# تراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن نادي تراث الإمارات العدد 289 نوفمبر 2023

## الشجرة في الإمارات
روح المكان ووجدان المجتمع

## الأشجار.. تروي عبقرية الشيخ
زايد بن سلطان آل نهيان
في الزراعة والتخطيط

ذكريات زمن البدايات
## عبد الله بن أحمد العتيبة ... ديوان شفهي للمتنبي وعنترة

## موتيف النخلة الأيقونة والإشارة والرمز
في التشكيل البصري الإماراتي

## سعيٌ نحو الزهور الربيعية

## أهازيج النباتات
في التراث الشفهي الإماراتي

## اختتام فعاليات النسخة الأولى من مهرجان أبوظبي للشعر
برعاية سمو الشيخ خالد بن محمد بن زايد آل نهيان

**التراث الشعبي في المناهج التربوية** بدولة الإمارات العربية المتحدة

# الأشجار منابع للقيم والمعاني
## في الثقافة الإماراتية

**ترى** الثقافة الإماراتية في الأشجار رمزاً للتعبير عن الهوية الوطنية والقيم الاجتماعية، وهي مكون أساسي في مفردات حياة ابن الإمارات اليومية. كما تتجلى هذه الثقافة في مختلف أروقة الحياة بأكملها، بدءاً من الشعر والقصص والأغاني، وصولاً إلى المجالات المتنوعة، مثل: الطعام والزينة والبيئة. وتعكس «ثقافة الأشجار» الغنية جوهر المكان وتحمل تاريخاً عريقاً، وأصبح لها طابعها الخاص والمميز عندما تستضيف أغصانها المورقة العابرين والمقيمين في صحاريها دون تمييز. وللأشجار دور مهم في نقل القيم والمعاني الثقافية في الإمارات، على سبيل المثال، تعدُّ شجرة النخيل رمزاً للكرم والضيافة، حيث تُقدم التمور في مختلف المناسبات الاجتماعية. وفي اللغة والتعبير تستخدم في نقل المشاعر والأفكار المحددة، وتعتبر مصدراً ملهماً في الفنون التقليدية والحرف اليدوية، حيث تجسد الأشجار في اللوحات والنحت والتصاميم المعمارية، ما يسهم في عرض جوانب من الهوية الثقافية الإماراتية. كما أن للأشجار دوراً بارزاً في التراث الزراعي والاقتصادي لمجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة، ويُمكن استقراء ذلك من خلال تطور تقنيات زراعة الأشجار المحلية وكيفية نقل هذه المعرفة من جيل إلى جيل، كما تعدها الدولة جزءاً أساسياً من رؤيتها المستقبلية.

وتمثل الأشجار مصدراً للإلهام في التعبير الثقافي في الأدب والشعر، وتعتبر موضوعاً مهماً في الحكاية الشعبية حيث يمكن أن تحمل دلالات متنوعة تُعبّر عن مفاهيم مختلفة وفي كثير من الأحيان تُمثل الحياة والنمو والجمال والفرح، أو أن تكون رمزاً لتطور الشخصية والنضج أو تستخدم الأشواك كرمز للقسوة أو للحماية. ولأن الأشجار تمتد جذورها في الأرض وتبقى قائمة لمدة طويلة ما يجعلها رمزاً للعراقة والاستدامة، ولأنها تمثل في الحكاية الشعبية الثبات والثقة، أو نقطة اتصال بين عوالم مختلفة أو لأنها تسهم في علاج الشخصيات المريضة أو تحقق أمنياتهم. وفي الشعر الإماراتي يستخدم معظم الشعراء والكتّاب الأشجار كوسيلة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم، كما تحتضن الأمثال الشعبية العديد من القصص والأقوال المتعلقة بالأشجار، وتنقل دروساً وحكماً حول الحياة وكيفية التفاعل مع البيئة.

ولأهمية «ثقافة الأشجار» التي يمكنها أن تسهم في فهم العلاقة المعقدة بين ابن الإمارات وبيئته وما تلعبه من دور في تشكيل الهوية الثقافية والأدبية، جاء اختيارنا لتكون الشجرة ملف عدد تُراث لهذا الشهر، والأمل يحدونا بأن تستمتعوا بمواد العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيسة التحرير



نادي تراث الإمارات
السلسلة التراثية الثقافية
مركز زايد للدراسات والبحوث

torathehc www.torath.ae

94
وجهة سفر

### مدينة الأحلام ( براغ )

من العادات الشعبية التراثية في مدينة براغ أسواق بيض عيد الفصح ففي وقت عيد الفصح تقريباً تستضيف ساحة البلدة القديمة في براغ والمناطق الأخرى أسواق عيد الفصح الملونة...وأسواق عيد الميلاد...وتستضيف براغ على مدار العام العديد من المهرجانات الشعبية التي تحتفل بالتقاليد التشيكي بما في ذلك الموسيقى الشعبية والرقص والطعام وأيام براغ الفولكلورية..ويوم القديس نيكولاس (ميكولاش)،...وهو تقليد محبوب في براغ حيث يزور القديس نيكولاس والشيطان والملاك المنازل لمكافأة الأطفال أوتوبيخهم بناءً على سلوكهم بالاتفاق مع الأهل طبعاً ... ضياء الدين الحفناوي

8

18



99
ارتياد الآفاق

### رحلة إمام التنوير إلى عاصمة الاستنارة الأوروبية

بمجرد أن دخل رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا لم يُخف الرجل انهاره بهندسة العمران، وطريقة تعامل الرجال مع النساء، كما تفاجأ بالمساواة بين الأغنياء والفقراء أمام القانون، وبخطاب الذات كان يتأسف على ما وصل إليه حال المسلمين من تقهقر، وأعلن أنه يجب التمييز بين الغرب الحضاري والثقافي وبين الغرب السياسي والديني، ولا عيب لو نقل المسلمون علوم الغربيين إلى بلادهم..ولما رجع إلى الوطن أدرك ما يحتاجه البعث والنهوض فتبنى حركة الترجمة المنظمة، وبعث في مصر حياة جديدة في التعليم والصحافة ... محمد عبد العزيز السقا

92

106
أدب ونقد

### المرأة الأخرى في قصص أسماء الزرعوني

تأخذ أسماء الزرعوني المرأة من بيت الطاعة إلى بيت العصيان، وتنقلها من دار العطور والأزياء إلى خندق المواجهة السياسية، فهي أنثى الاستثناء المعروفة بسعتها الثقافية وليست النكرة، حتّى سجّانها كان يعرفها من صورتها وكتاباتها المنشورة في الكتب والصحف والمجلات.. إنها سليلة شهرزاد الراوية والمروي عنها التي زيّنت ليل الملك رغم محاولاته الدؤوبة لمصادرة صوتها وكلمتها وحريتها فراحت إلى محاربة سلطته القمعية ومجابهة زنزانته الطافحة بالعتمة والتعذيب في خندق بقي معظم الوقت مخصصاً للرجل لتبقى كلمتها حاضرة في قلمها ولسانها عصيّة على الكبت والغياب ... أحمد حسين حميدان

94

114

124

114
دراسات إماراتية

### التراث الشعبي في المناهج التربوية بدولة الإمارات

إنّ مناهجَ التربية والتعليم في دولة الإمارات، من أكثر المناهج تطوراً، واستجابةً للمتغيرات، لذلك نجدها - مع ثباتها على الأسس العامة - كثيرةَ التغيير وفق تطوّر الحياة ومستجداتها، ومواكبة التطورات التنموية والإنجازات الكبرى التي تشهدها الدولة، فتنعكس في الدروس والمقررات لترسيخِها في نفوسِ الطلبة. وقد خصّصت المناهجُ الوطنية الإماراتية حيّزاً كبيراً للتراث الشعبيّ في مواد التربية الإسلامية واللغة العربية والدراسات الاجتماعية، من خلال الدروس المقرّرةِ أو الأنشطة الطلابية... عبد الرّزاق الدّرباس

تراث الشهر

8 اختتام فعاليات النسخة الأولى من مهرجان أبوظبي للشعر

91 بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح
(ألفاظ النباتات) - محمد فاتح زغل
92 فخامة الباب - عبد الفتاح صبري
98 كان ياما كان - شعر: غابرييل أوكارا - ترجمة: د. شهاب غانم
110 ذكريات زمن البدايات (19) - عبد الله بن أحمد العتيبة ...
ديوان شفهي للمتنبي وعنترة - خليل عيلبوني
113 أن تتأمل نهراً في قلبك - حمزة قناوي
120 الأدب والمأدبة - وليد علاء الدين
122 محاورة التراث والحوار مع الآخر - علي كنعان
124 صناعة «الدخون» حرفة من التراث ذات رائحة شذية - موزة سيف المطوع
128 الشاعرة مستورة الأحمدي (1975 - 2010) - مريم النقبي
130 القدوة والنموذج - فاطمة حمد المزروعي

## أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو نادي تراث الإمارات

118
فنون

### (سما - تاوى) بأهرامات الجيزة

استخدمت الأهرامات كمعبد روحي للتأمل من قبل ملوك مصروالكهنة للتواصل مع العالم الآخر، بهدف الحصول على معلومات من الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وكذلك من أجل الحصول على حلول للمسائل المستعصية. حيث يمثل نظام خاص يمرر من خلاله المعلومات والطاقة من فضاء إلى فضاء آخر. كما أن المصرين القدماء يطرحون تساؤلات حول معلومات كونية ومصيرية ومن بين المعلومات التي حصلت عليها المصرين خلال التأمل الروحي العميق...أن حركة الأرض تخضع لنفس قانون التي تحكم الكوكب المشتري، وزحل، وزهرة وأن الشمس تتحرك حول الكون، وأن الأرض كروية الشكل .... نورة صابر المزروعي

126
سرد الذاكرة

### مريم بنت النهار

كانت الحارةُ التي نشأت فيها مريم حُبلى بالحب، والتواصل الإنساني النبيل، كل جارٍ يحب جاره ويعتني بأبنائه عند غياب الآخر، وكل امرأة لا تضع لقمة في فمها قبل أن تشارك جاراتها ما أعدت من غداء أو «ربوق» بحسب ما توفر من مواد غذائية بسيطة في تلك الفترة التي نشأت فيها مريم نشأتها الأولى، قبل افتتاح المدارس وبدء التعليم النظامي والمسائي الذي انخرطت فيه بحب، وشغف، وتشوق لكل جديد من العلم والدروس في كل مرحلة من مراحل التعليم... شيخه الجابري

## الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:
مركز زايد للدراسات والبحوث - نادي تراث الإمارات، أبوظبي

نادي تراث الإمارات

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتّاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

## اختتام فعاليات النسخة الأولى من مهرجان أبوظبي للشعر

# برعاية سمو الشيخ خالد بن محمد بن زايد آل نهيان

**قسم الإعلام**

**اختتمت بنجاح فعاليات الدورة الأولى من مهرجان أبوظبي للشعر الذي أقيم تحت رعاية سموّ الشيخ خالد بن محمد بن زايد آل نهيان، ولي عهد أبوظبي، رئيس المجلس التنفيذي لإمارة أبوظبي، وبتنظيم من لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية - أبوظبي وبالتعاون مع نادي تراث الإمارات.**

**وعقد المهرجان خلال الفترة من 12 إلى 15 أكتوبر الماضي تحت شعار «الشعر يُلهمنا»، وذلك في مركز أبوظبي الوطني للمعارض «أدنيك». واستقطب المهرجان نحو 1000 شاعر وأديب وباحث، إلى جانب أكثر من 500 شاعر وشاعرة من المرشحين لمقابلة لجنة تحكيم برنامج شاعر المليون، ضمن فعاليات المهرجان. وتوافد على المهرجان ما يزيد على 15 ألف زائر تعرّفوا على الشعراء المميزين في الوطن العربي من خلال عشرات الأمسيات والجلسات النقاشية والفنية والعروض الشعبية والألعاب التفاعلية، إلى جانب إمكانية التفاعل المباشرة بين الزوار والشعراء عبر المنصات المخصصة لذلك.**

وصاحب المهرجان عقد مؤتمر أبوظبي للشعر الذي استمر ثلاثة أيام، وقُدِّم خلاله عدد من البحوث العلمية والأكاديمية توزعت على جلسات المؤتمر بواقع جلستين في اليوم؛ اشتملت كل جلسة على ثلاثة مشاركين وشهدت جلسات المؤتمر حضوراً جماهيرياً وإعلامياً واسعاً، وقَدَّم الباحثون خلال الجلسات العديد من الرؤى والأفكار المتعلقة بالشعر العربي بصورة عامة والشعر النبطي بشكل خاص.

وأوصت اللجنة العلمية في مؤتمر أبوظبي للشعر بأهمية استكشاف محاور جديدة لإثراء دور الحركة الثقافية والتراثية وتوسيع اختصاصاتها لتكون نافذة للشعر والشعراء ومحفّزة لأصحاب المواهب الجادة وتطوير المحتوى الإبداعي عبر دراسات أكاديمية معمّقة تمتاز بالجدية والموضوعية. ودعت إلى المزيد من الاهتمام بمخطوطات الشعر النبطي والعامي على وجه الخصوص وإعداد الدراسات لتحقيق هذه المخطوطات بعد جمعها، وتصميم مبادرات وبرامج فكرية تحفّز الباحثين الشباب وتحثهم على استكشاف أبعاد جديدة لرفد المشهد الشعري بفضاءات ترسخ القيم المجتمعية، مؤكدة على عالمية الفكر

والموروث الإنساني كحاضنة إنسانية تتسع للجميع كمصدر مستدام ينهل منه أصحاب المبادرات والأفكار الريادية.

كما أكدت اللجنة العلمية في مؤتمر أبوظبي للشعر على أهمية التعاون البحثي مع الجامعات العالمية ومراكز البحوث العلمية الرصينة والمجلات العلمية المحكمة للإسهام في إجراء الدراسات الجادة والموضوعية للموروث الإماراتي ونقله من المحلية إلى العالمية ليتم الاقتباس منه والاستشهاد به كأحد مراجع الموروث الإنساني الأدبي. وشددت اللجنة العلمية على خصوصية الشعر النبطي الإماراتي كونه يمثل هوية وطنية غنية واستدامة للموروث الشعري وسلامة نقله إلى الأجيال القادمة من غير اعتلال، مؤكدةً أهمية استخدام الرقمنة لخدمة الشعر النبطي وتيسير انتشاره، وضرورة تصميم برامج ومبادرات للجاليات الأجنبية المقيمة داخل الإمارات من أجل إدماجها وتعريفها بالموروث الإماراتي، وتوظيف هذا الموروث بكل ما فيه من بُعد إنساني وثقافي كقوة ناعمة تسهم في نشر ثقافة التسامح ورسالة دولة الإمارات الإنسانية. كما استعرض مهرجان أبوظبي للشعر الفنون الشعبية الإماراتية وقدمها بصورة متميزة جعلت الزوار يطلعون عليها ويتعرفون على أنواع الفنون الشعبية النابعة من وحي تراثنا العربي الإماراتي، بهدف إحياء هذا الموروث الأصيل بشكل مستدام في نفوس الأجيال الحالية والقادمة.

ووفر المهرجان فرصة مميزة للزوار أيضاً عبر منصة تعليمية للتعرف على مراحل تطور الشعر العربي عبر منصة «درب الشعر» وتضمّ المنصة، 9 محطات تنطلق من سوق عكاظ، وتنتهي بدور أبوظبي في الشعر والأدب والجهود التي بذلتها لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية - أبوظبي في تمكين الشعراء عبر برامجها العديدة منها، شاعر المليون، وأمير الشعراء، والمنكوس. كما استضاف المهرجان أمسيات شعرية شارك فيها العديد من الشعراء الذين صدحوا في مسرح المهرجان بقصائد معبرة بموضوعات مختلفة، ما أسهم في إثراء المشهدين الثقافي والأدبي في المنطقة وتعزيز التفاعل الثقافي والفني بين الشعراء والجمهور. ولنشر التجارب المتميزة التي تحقق أهداف الاستدامة في الفكر والثقافة، شاركت العديد من المؤسسات الثقافية والجمعيات الأدبية ودور النشر من دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي، والوطن العربي التي تُعنى بالشعر العربي بنوعيه الفصيح والنبطي في المهرجان.

وكان للأطفال الزائرين للمهرجان نصيب من هذا المحفل الثقافي الشعري؛ إذ وفر المهرجان عدداً من البرامج والأنشطة الموجهة للصغار، التي تحمل رسائل تعليمية وتثقيفية لربط الأجيال الجديدة بموروثهم الثقافي وترسخ في أذهانهم كل ما هو جميل ونبيل من قيم ومفردات تعزز انتماءهم إلى الوطن.

### محاضرة عن الطرق الصحراوية القديمة في منطقة الظفرة

نظم نادي تراث الإمارات يوم 19 سبتمبر الماضي محاضرة افتراضية ضمن برنامج «سلسلة قراءة في إصدارات إماراتية»،

جاءت بعنوان «الطرق الصحراوية القديمة في منطقة الظفرة»، قدّمها علي أحمد الكندي المرر، الباحث في التاريخ والتراث المحلي، وتحدّث فيها عن كتابه الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية ويحمل الاسم نفسه، ويوثق الطرق القديمة التي كان يستخدمها سكان منطقة الظفرة، ويوضح معالمها التي تغيّرت نتيجة الحداثة والتطوير خلال السنوات الأخيرة.

وعرّف المرر منطقة الظفرة قائلاً: «هي من المناطق المشهورة في شرق الجزيرة العربية وتقع في إمارة أبوظبي»، وتحدث عن أهم المناطق الرئيسية فيها، وما يميز كل منطقة عن غيرها سواء من ناحية التربة أو المياه أو المساحة، وحدودها وسكانها ومنها مناطق الطف، وبينونة، والساحل ويسمى ساحل الحمرة، والقفا ويسمى السارق، والبطانة، وليوا، والبطين، والحمرة، والمغرب ويسمى الرملة الغربية، ومناطق قديمة تابعة لها كالمجن، والعقل، وسبخة مطي، والكدن. ونوّه المحاضر بالمصادر التي اعتمد عليها في كتابه وهي مقابلات مع كبار السن الذين يقطنون تلك المنطقة، وذهابه إلى تلك المناطق بنفسه والتعرف عليها ومشاهدتها والسير فيها. وتحدث عن كل منطقة وما يميزها بداية من بينونة التي قال إنها سميت بذلك لأنها في الوسط بين البحرين وعُمان فصارت بينهما وهي تنقسم إلى قسمين، طف بينونة في الشمال ويحاذي الخليج العربي، وبينونة في الجنوب وهي منطقة رعوية يكثر فيها النبت وفيها موارد مياه كثيرة. وتطرّق المرر في حديثه إلى المناطق الرئيسية التي تتكون منها منطقة الظفرة، وأهمها الساحل، وهو ساحل رملة الحمرة لأنه يقع في شمالها وبينه وبين الخليج العربي منطقة الطف وفيه يقع حصن الظفرة، وكانت هذه المنطقة قديماً تزخر بالسكان لكثرة ما فيها من النخيل وآبار مياه. ومنطقة الطف هي منطقة تتميز برمالها المائلة إلى البياض وكثرة السباخ والملوحة في مياه الآبار المحفورة فيها. وبطين ليوا التي تمتد إلى رمال الربع الخالي، وتتميز برمالها الوعرة وكثبانها المرتفعة التي يصل طولها إلى 500 قدم وأكثر، بالإضافة إلى تميزها بمياهها المالحة. والقفا وهي منطقة أغلبها سهول لذلك سميت بمنطقة السارق. والبطانة التي تقع بين القفا ومحاضر ليوا وتكثر فيها غيوط النخل والمياه ورمالها مرتفعة جداً. وعن منطقة الحمرة قال إنها تتميز بلون رمالها المائل إلى الأحمر وارتفاع كثبانها الرملية وفيها سيوح وتتميز بكثرة النباتات فيها. وتقع منطقة المغرب بين غرب منطقة القفا والبطانة ومحاضر ليوا، ويوجد فيها سهول وكثبانها صغيرة وآبارها قليلة. وتحدّث المرر عن سكان منطقة الظفرة وقال: بعضهم من البدو الرحل وهم أصحاب الإبل والماشية، ومنهم سكان الجزر الذين يركزون في معيشتهم على ما يصطادونه من البحر، وفئة منهم ممن يعتنون بالنخيل، وأغلب السكان يعملون في الغوص في المناطق الساحلية، وأهم تلك المناطق بندر المرفأ، والمغيرا، والرديم، وبراكة، والشويهات، والحمرة التي تسمى اليوم الحمرا، ومغرق، والظهر، والرويس، وقرين العيش، والهرمية، والرويسية، وكانوا يتنقلون وفق فصول السنة، الخريف والشتاء، والصيف والقيظ هما موسم الحضارة.

جاءت المحاضرة ضمن أهداف نادي تراث الإمارات في الحفاظ على الهوية الوطنية، وتعزيز مكانة القطاعين الثقافي والتراثي في الدولة.

## محاضرة عن مغاصات اللؤلؤ في الإمارات

نظم نادي تراث الإمارات يوم 27 سبتمبر الماضي محاضرة في مقر مركز زايد للدراسات والبحوث التابع له، بعنوان «مغاصات اللؤلؤ في الإمارات من خلال المرويات الشفهية»، تحدّث فيها سعادة محمد سعيد الرميثي، المستشار والخبير في التراث الإماراتي، وأحمد محمد المهيري، رئيس قسم السباقات البحرية في نادي تراث الإمارات. وتناول المتحدثان أسماء وأماكن المغاصات التاريخية المشهورة في الخليج العربي، مثل: دلما، وأم الشيف، وأم العنبر وغيرها، وما تتميز به كل واحدة من حيث توافر اللؤلؤ وما يحيط ببعضها من المخاطر التي كان يتعرض لها الغواصون، وأشارا إلى أن أكثرها اندثر بعد إنشاء منصات التنقيب عن النفط. وبيّنت المحاضرة العوامل الطبيعية التي تسهم في جودة اللؤلؤ مثل مكان المغاصة والظروف الجوية وطبيعة تربتها ونوعها والتيارات فيها وغير ذلك من العوامل.

كما تحدث المحاضران عن المرويات الشفاهية المرتبطة باللؤلؤ في الإمارات، وتناولا رحلة الغوص والتجهيز لها عن طريق التزود بالمؤن، وتأمين الاحتياجات الغذائية، التي بيّنا أماكن وطرق الحصول عليها. كما عدّد المتحدثان أنواع السفن التي كانت مستخدمة قديماً، وتقاليد الغوص وحياة الغواصين في السفينة التي انقسمت بين العمل الشاق وبعض الترفيه.

وتناولت المحاضرة الحضور التاريخي للغوص على اللؤلؤ في النقوش الأثرية التي تعود لآلاف السنين مثل «ملحمة جلجامش»، وفي الشعر الجاهلي مثل معلقة عمرو بن كلثوم، وفي مدونات الرحالة في العصور الوسطى، إضافة إلى الشواهد الكثيرة التي يحفل بها الشعر النبطي في هذا الصدد، حيث ألقى المحاضران عدداً من الشواهد الشعرية المرتبطة بالغوص والمغاصات والقصص المأثورة بهذا الخصوص.

كما تحدثت المحاضرة عن تأثير الحرب العالمية الثانية واكتشاف اللؤلؤ الصناعي على الأهمية الاقتصادية والاجتماعية للؤلؤ في منطقة الخليج.

## تكريم نادي تراث الإمارات لمشاركته في الدورة الـ 20 من أيام الشارقة التراثية

بحضور الشيخ ماجد بن سلطان القاسمي، عضو المجلس التنفيذي لإمارة الشارقة، كرّم سعادة الدكتور عبد العزيز المسلم، رئيس معهد الشارقة للتراث، يوم 4 أكتوبر الماضي، نادي تراث الإمارات على مشاركته في فعاليات الدورة الـ 20 من أيام الشارقة التراثية. وتسلّم سعيد بن علي المناعي، المستشار التراثي في النادي، درع التكريم خلال حفلٍ أقيم في مقر معهد الشارقة للتراث لتكريم الجهات والمؤسسات الراعية للأيام والشركاء الاستراتيجيين، الذين لعبوا دوراً حيوياً في إنجاح الفعاليات.

## نادي تراث الإمارات يحتفي بيوم الإمارات للطيران المدني

نظم نادي تراث الإمارات محاضرة افتراضية عبر برنامج «مايكروسوفت تيمز» بمناسبة يوم الإمارات للطيران المدني الذي يصادف الخامس من أكتوبر من كل عام، جاءت بعنوان «تاريخ الخدمات الجوية في إمارات الساحل المتصالح (1932 - 1970)»، قدمها الدكتور محمد فارس الفارس، المؤرخ المتخصص في تاريخ الإمارات والخليج، واستعرض خلالها تاريخ الطيران في دولة الإمارات العربية المتحدة. واستهل الدكتور محمد فارس المحاضرة بالحديث عن تاريخ الطيران في العالم وأول رحلة طيران ناجحة قام بها الأخوان أورفيل وويلبر رايت، بعد اختراعهما أول طائرة بمحرك في عام 1903م، كما تحدّث المحاضر عن تطور صناعة الطيران عبر التاريخ، موضحاً أن هذا القطاع شهد تطوراً بشكل سريع وملحوظ، حيث دخلت الطائرات عصر الإنتاج الصناعي بغزارة وتنوعت أحجامها وأشكالها ومهامها والأعباء المكلفة بإنجازها. واستعرض الدكتور محمد الفارس تاريخ الطيران في الإمارات بدايةً بهبوط أول طائرة على أرض الدولة في مطار المحطة في إمارة الشارقة، حيث وصلت رحلة الخطوط الجوية البريطانية إلى المطار في 5 أكتوبر عام 1932، مؤكداً أن مطار المحطة لعب منذ إنشائه دوراً تاريخياً في الانفتاح على العالم الخارجي، حيث يعد أول مطار يقام على أرض الإمارات ويعطي الفرصة كوسيلة سريعة وسهلة للانتقال من الشارقة إلى دول الخليج والعالم. وتحدّث الفارس عن متحف «محطة الشارقة الجوية» قائلاً: إنه يوثق لتاريخ الطيران في دولة الإمارات العربية المتحدة بما يضمه من مقتنيات وتحف أثرية ونماذج الطائرات الحقيقية والمصغرة التي توثق الانفتاح الكبير الذي شهدته دولة الإمارات على مدار تاريخها وحركة الملاحة

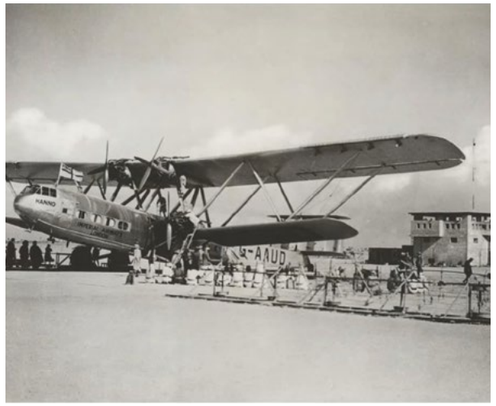

الجوية العالمية. كما شهدت المحاضرة سرداً لتاريخ الطيران وبداية الخدمات الجوية في كل من إمارة دبي وإمارة أبوظبي ومحطات تطور هذه الخدمات على مرّ السنوات الماضية.

ويأتي تنظيم المحاضرة لتسليط الضوء على ما حققته الدولة من إنجازات في قطاع الطيران على الصعيدين الإقليمي والعالمي، وما يشهده من تطورات مستمرة، وتحقيقاً لأهداف نادي تراث الإمارات في الاهتمام بتاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة وتراثها الغني بمكوناته الحضارية، وبغرض إحيائه ضمن سياقاته الوطنية المختلفة.

## كونجرس المجلس الدولي للأرشيف - أبوظبي 2023

شارك نادي تراث الإمارات ولجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية في كونجرس المجلس الدولي للأرشيف - أبوظبي 2023، الذي أقيم في مركز أبوظبي الوطني للمعارض «أدنيك» خلال الفترة ما بين الأيام 9 و13 أكتوبر الماضي، تحت شعار «إثراء مجتمعات المعرفة»، وبمشاركة قادة وخبراء عالميين في مجالات الأرشيف، وتقنيات المعلومات، والذكاء الاصطناعي.

وجاءت المشاركة عبر جناح خاص احتوى على عدد من الإصدارات المتنوعة في حقول التراث والتاريخ والثقافة ودواوين الشعر، بالإضافة إلى أعداد مجلة تراث الشهرية التي يصدرها النادي، كما احتوى الجناح على أحد مقتنيات معرض الشيخ زايد، وهي شهادة بابا الفاتيكان بولس السادس التي قدمها للشيخ زايد بتاريخ 29 أكتوبر 1971، وتعد من أهم الأوسمة والدروع التي تبرز دور دولة الإمارات العربية المتحدة وجهودها الكبيرة التي تبذلها في دعم مبادرات التسامح والأخوة الإنسانية. وحظي جناح

النادي واللجنة بزيارة عدد كبير من المسؤولين والشخصيات الرسمية والباحثين والإعلاميين والمهتمين.

## مسابقة حرفة التلي للطالبات

نظم نادي تراث الإمارات في مقره بمركز العين النسائي مسابقة حرفة التلي للطالبات خلال الفترة ما بين 16 و19 أكتوبر الماضي، وهدفت المسابقة التي خصصت للفئة العمرية من 10 إلى 16 سنة، إلى الحفاظ على الحرف اليدوية التقليدية، واكتشاف مهارات الطالبات ومواهبهن، وإبراز دور النادي في نشر التراث وتعليم الحرف، حيث تعد حرفة التلي من أعرق فنون الحرف اليدوية ومن أهمها لدى المرأة الإماراتية.

## ندوة حوارية بمناسبة يوم الوثيقة العربية

نظم نادي تراث الإمارات يوم 18 أكتوبر الماضي في مقره في مدينة العين ندوة حوارية بمناسبة يوم الوثيقة العربية ضمن برامجه الثقافية، جاءت بعنوان «وثائق الإمارات التراثية والتاريخية»، وقدمها نخبة من أصحاب الاختصاص في التاريخ والتراث.

وتحدث في المحور الأول للندوة الذي جاء بعنوان «أهمية الوثائق التاريخية في كتابة التاريخ»، الدكتور حمدان الدرعي، الباحث والمؤرخ في تاريخ الإمارات، والدكتور يحيى محمد، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة الإمارات، وأدار الحوار الدكتور أدريان دي مان، رئيس قسم السياحة والتراث في جامعة الإمارات.

وأشار الدرعي في حديثه إلى أهمية الوثائق حيث تعد أحد مصادر كتابة التاريخ، وركز على الوثائق المحلية لاسيما المتعلقة بمدينة العين واستعرض نماذج عدة للوثائق عبر شاشة العرض مبيناً الطرق الصحيحة لحفظها وتخزينها وإثبات صحتها، ونوه إلى محاذير التعامل مع الوثيقة وضرورة اتباع المنهج العلمي التاريخي في التحليل والإحاطة بالأحداث ومجريات الأمور التاريخية.

من جانبه تحدث الدكتور يحيى محمد، عن الحصون والقلاع في مدينة العين، موضحاً أنها مصدر من مصادر التوثيق، وركز على النصوص التأسيسية ليؤكد أن المعماريين الذين بنوا هذه القلاع كانوا على اطلاع كامل بأسس بنائها. كما أشار إلى أهمية دعم دراسة التاريخ من خلال البحث في مصادر غير تقليدية، والرجوع إلى المصادر الشفهية لأهل المنطقة، والتأكد من أن هذه المصادر صالحة خلال كتابة التاريخ. وجاء المحور الثاني من الندوة تحت عنوان «الجهود العلمية والفردية لتحقيق

الوثائق المحلية وجمعها»، بمشاركة شمسة الظاهري، رئيسة تحرير مجلة تراث، ومسلم العامري الإعلامي والباحث في نادي تراث الإمارات، وأدار الحوار الدكتور عماد خلف، الباحث في نادي تراث الإمارات، حيث استعرضت شمسة الظاهري من خلال فيلم وثائقي مدينة العين وطبيعتها، وتحدثت بالفيديو عن منطقة المعترض وضواحيها، بالإضافة إلى المساجد والحارات والآثار والمباني والقصور والقلاع التي تميزت بها مدينة العين. فيما أشاد مسلم العامري بجهود نادي تراث الإمارات في الحفاظ على التراث واهتمامه بنشره بين الأجيال، متناولاً تأسيس النادي والأنشطة والفعاليات التي يقوم بها، وتخصيصه مدربين تراثيين متخصصين لإقامة الأنشطة والفعاليات، مثل: الهجن، والمحالب، والمزاينة، بالإضافة إلى تعليم الحرف اليدوية والتراثية للطلاب.

كما تحدّث عن دور مركز زايد للدراسات والبحوث التابع للنادي وإسهامه الثقافي والمعرفي في الجانب التراثي عن طريق إقامة الفعاليات والندوات وإصدار الكتب والدواوين الشعرية، ومجلة تراث الشهرية، والمشاركة باسم النادي في معارض الكتب والفعاليات التراثية والثقافية. وتحدّث في المحور الثالث الذي جاء بعنوان «الأدب الشعبي وثيقة تراثية ومعرفية» كل من الدكتور يوسف حطيني، أستاذ اللغة العربية في جامعة الإمارات، والدكتور راشد المزروعي، الباحث في الموروث الشعبي والأدبي، والحظ مصبح الكويتي، الباحث في التراث الشعبي في دائرة الثقافة والسياحة، وأدارت الحوار الدكتورة غنيمة اليماحي، رئيسة قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الإمارات.

حيث ركّز الدكتور حطيني من خلال ورقته التي قدّمها على انتماء المرء وتعلقه بتراث دولته وجعله ركناً يأوي إليه، مشيراً

إلى أنه بالنسبة إلى التراث الإماراتي المادي وغير المادي فإن على المبدعين والنقاد والباحثين الاهتمام به والإسهام بالمحافظة عليه من خلال الممارسات الثقافية والفكرية، بعد أن قامت الدولة بواجبها وحفظت القطع الأثرية والمباني والمعالم.

وتطرق المحاضر في حديثه أيضاً إلى دور إحياء التراث من خلال الرواية الإماراتية، حيث قام العديد من الروائيين من خلال رواياتهم بالتركيز على العادات والتقاليد الإماراتية، والأشعار الشعبية، وتوظيف العديد من الأمثال الشعبية للمحافظة على التراث، وذكر العديد من الأماكن التقليدية والمفردات التراثية في كتاباتهم. فيما ركز راشد المزروعي في حديثه على دلالات المكان وجمالياته من خلال الشعر الشعبي في منطقة العين، وعرّف الشعر الشعبي على أنه أدب الطبقات التي تسمى شعباً أو عامة، وهو أكثر ميلاً لوصف الحقيقة أو التعبير عن المدح والحزن والآمال، وقال إنه مرتبط دائماً بالعادات والتقاليد، لذلك كانت قراءته لها أهمية كبيرة، فهو مرتبط بالبيئة والمكان، وأضاف أنه ذكرت أماكن كثيرة في الشعر الشعبي كانت لها صلة وثيقة بتجارب الشعراء الإماراتيين وتناولوا فيها أدق التفاصيل للأماكن التي عاشوا فيها.من جهته اختتم الحظ مصبح الكويتي المحور بحديثه عن الأمثال الشعبية، مشيراً إلى أن الدول جميعها لها أمثال شعبية خاصة بها، وأن الأمثال تكون نتيجة موقف أو قصة حصلت، وأن هناك العديد من الروايات والقصص القديمة ارتبطت بوثائق قديمة وأصبحت اليوم أمثالاً تقال ويتم تداولها بين الأفراد. وقرأ العديد من أبيات الشعر التي تتناول مدينة العين وجمالها. جاءت الندوة ضمن أهداف نادي تراث الإمارات في نشر الثقافة والتراث من خلال برامجه الثقافية، وتجسيداً لأهمية الوثيقة باعتبارها الذاكرة الحية للأجيال، وانطلاقاً من إيمانه

بدوره التاريخي في الحفاظ على الإرث الوثائقي للوطن، وللاستمرار بمسيرته في حماية الوثائق ودراستها ونشرها، وتعزيز مكانة القطاع التاريخي والتراثي في الدولة.

## برنامج تدريبي لحرفة السدو

نظم نادي تراث الإمارات في مقره في مركز أبوظبي النسائي برنامجاً تدريبياً لحرفة السدو للأمهات، وذلك بهدف الحفاظ على قيمة العمل اليدوي وتشجيع النساء على ممارسة الحرف التقليدية، ونقلها عبر الأجيال، وفي ختام البرنامج تم تكريم الأمهات المشاركات.

## اختتام فعاليات ملتقى سهيل البحري الحادي عشر

نظم نادي تراث الإمارات بالتعاون مع لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية في أبوظبي، «ملتقى سهيل البحري» في نسخته الحادية عشرة، وذلك في يومي 21 و22 أكتوبر الماضي، تحت شعار «من ليس له ماض ليس له حاضر»، بمشاركة 60 طالباً من المنتسبين إلى النادي، تم تقسيمهم إلى مجموعتين قدم من خلالهما مدربون تراثيون متخصصون في تراث البحر والصيد والغوص مجموعة متنوعة من الفعاليات والبرامج التراثية للمشاركين. ويحرص النادي على تنظيم الملتقى سنوياً بهدف تعريف الأجيال الناشئة بالتراث البحري وطرق الصيد والصناعات التقليدية وترسيخ معرفتهم بالعادات والتقاليد وآداب المجالس والسنع وتفاصيل الحياة قديماً، عبر العديد من الأنشطة التراثية المصممة لهذا الغرض وشملت الأنشطة التعرف على المحامل التراثية، والطرق التقليدية لصيد الأسماك، ومحاضرات عن السنع، والألعاب الشعبية، والصناعات التراثية البحرية، والسباحة. وفي اليوم الأول للملتقى قدّم المدربون التراثيون نبذة تعريفية للطلبة عن الملتقى وأهدافه، وعن الالتزام بإرشادات الأمن والسلامة التي تخص النشاط وأهمها ارتداء سترة النجاة، والإصغاء للمدربين، كما تم تقديم شرح نظري عن استخدام الخيط في الصيد، قبل انطلاق المشاركين في جولة بحرية زاروا من خلالها جزيرة مصنوعة وجزيرة حالة البحراني، ومارسوا صيد الأسماك بطريقة الشب وهي عبارة عن خيوط ملونة تكون على أطراف الميدار ويتم تحريكها طلوعاً ونزولاً في الأماكن متوسطة العمق، كما مارس المشاركون الصيد بطريقة الحداق أيضاً وهي طريقة يتم فيها استخدام الخيط والصنارة، وقام المدربون بشرح المسميات التراثية لأدوات الصيد قديماً واستخدام هذه الأدوات بالطرق الصحيحة والسليمة.

وفي اليوم الثاني والختامي مارس الطلبة الألعاب الشعبية، وقاموا بجولة في جزيرة مصنوعة ومارسوا صيد الأسماك والسباحة، وأقيمت ورشة خاصة عن كيفية إعداد المالح ■

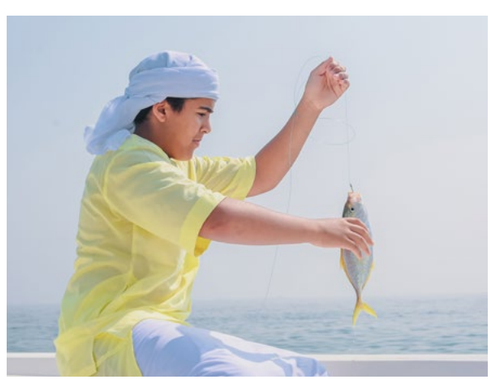

# يعل يسقى

إعداد: نايلة الأحبابي

الشاعر محمد بن سلطان الدرمكي

يعـــــــل يسقـــــــى يـــوم بتلاجـــــي
لـــــــي يسلـــي النفـــــس لمسيحـــــه
لـــــي جمالـــــه فـــــاق لـــي فاجـــي
م الدمـــــن ماخـــــــذ ملاميحـــــــه
عـــين حـــــــرطـــــفق خفاجـــــي
العصـــروا ثنـــــوا لـــــه بصيحـــــه
لا ولا مـــــن خشـــــــرة الباجـــــي
بـــوميادي ـــــــل منـــاشيحـــــه
سيـــــدي لـــي هنـــــدس الداجـــــي
وبـــان نـــــور الخـــــد توضيحـــــه
يستريـــــح القلـــــــب لـــوشاجـــــي
النظـــــر مـــــن شوفـــــه يريحـــــه
يعـــــــل داره يسجـــــــي الساجـــــي
بالغـــــــدر تنضـــــح منـــاضيحـــــه

القصيدة للشاعر محمد بن سلطان الدرمكي، من شعراء الإمارات ممن أسهموا كثيراً بالقصائد المغناة، وهذه القصيدة مجاراة ومشاكاة لإحدى قصائد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حيث تنساب بالرجاء والتمني في مطلعها بقوله «يعل يسقى»، بمعنى ليته يعود ذلك الزمن وكأنه يقف على ذاكرة الأطلال بوصال ولقاء أحبابه، حيث يسعد القلب ويزيل عن النفس الضيق والتعب. ثم يقول عن الذي يفوق بجماله كل الوصف ولا يوجد له شبيه بين أقرانه، بأنه يتميز بحسنٍ وملامح تشبه الدماني قائد الغزلان. ثم يصف عينيه كعين الحر (الشاهين) الذي يخفق بجناحيه للصيد، وأصحابه يثنون ويعيدون الكرة بمناداته في لحظة هداده فيبدو كأنه جاهز للانقضاض على الفريسة. ثم أردف في الوصف بأنه لا يقاسمه على حسنه أحد فيقول: «بوميادين مناشيحه» يصفه بالشعر الطويل الذي ينتثر. وأكمل بأسلوبه الإبداعي في التشبيهات الصريحة بأن وجهه كالبدر ويستريح القلب الشقي لمجرد النظر إليه. ويختم بدعوات للمحبوب أن يسقي الله أرضه بغيث يسيل سيله وتمتلئ الغدران بمائه.

المفردات: لمسيحة: الضائقه من الهم والتعب. الدمن: قائد الغزلان الدماني. أثنوا: أعادوا النداء مرة ثانية، لا ولا من خشرة الباقي: لا يناصف حسنه أحد. هندس: أظلم الليل. لو شاقي: الشقي.

ملف

# الشجرة في الإمارات روح المكان ووجدان المجتمع

18 الشجرة في الإمارات.. روح المكان ووجدان المجتمع - خالد صالح ملكاوي
24 الأشجار.. تروي عبقرية الشيخ زايد في الزراعة والتخطيط - جمال مشاعل
28 الأشجار.. تاريخ وسحر وثقافة - هيثم يحي الخواجة
32 الشجرة الوطنية الإماراتية تلهم الشعراء
قصيدة الغاف غرض جديد في الشعر الشعبي - الأمير كمال فرج
38 موتيف النخلة الأيقونة والإشارة والرمز
في التشكيل البصري الإماراتي - محمد فاتح صالح زغل
42 سعيٌ نحو الزهور الربيعية - لولوة المنصوري
46 الأشجار والمجتمعات المستدامة: إطلالة كونية - صديق محمد جوهر
49 أهازيج النباتات في التراث الشفهي الإماراتي - جميع سالم الظنحاني
54 بيت فيه أشجار أهله لا يملون الحياة
معرفة الشجرة فريضة ورمزيتها نافلة ثقافة - محمد حسن الحربي
58 رمزية الأشجار في الأدب الإماراتي - حمادة عبد اللطيف
62 السدر تراث وحكاية - مريم سلطان المزروعي
66 أُمّنا الشبهانة.. حكاية عمرها 200 عام - فاطمة سلطان المزروعي
70 من رمضاء الصحراء إلى ظلال القصيدة
الغاف في وجدان محمد خليفة بن حاضر - عادل نيل
76 أشجار مريم جمعة فرج .. حكايات .. و .. حياكات - عبد الله محمد السبب
80 الأيقونة الثقافية للأشجار في الإمارات - محمد نجيب قدورة
84 حضور شجرة الغاف في الشعر النبطي
كرمز من رموز الهوية الوطنية الإماراتية - أحمد عبد القادر الرفاعي
88 النباتات في التراث العربي موارد الموروث ومنابع الفكر - منّي بو نعامة

خالد صالح ملكاوي

**لعبت الشجرة دوراً مهمّاً في حياة البشر على مرّ العصور. وحفلت الأساطير بالأشجار المقدسة كمحور للعالم، وقدَّس الجاهليون الأشجار وعبدوها، واتخذوا منها أسماء لأبنائهم، فهي تتمتع بجلال لا يُنكَر. والشجرة في الإمارات لها جذور ضاربة في التاريخ، وهي تحمل دلالات اقتصادية وبيئية واجتماعية، مما يبرز أهميتها كعنصر حيوي في الثقافة الإماراتية. وتكون الأشجار قريبة من بيوت السكان وفي مزارعهم مثل النخل والأشجار المثمرة، وقد تكون برِّيَّة تنبت في العراقيب والوديان وما شابه ذلك، مثل أشجار الغاف والسدر والسمر. وجميعها تشابكت مع نسيج حياة الأهالي، وتمَوْضَعتْ في مختلف ألوان الثقافة وميادين الموروث الشعبية، وظلت حاضرة في وجدان المجتمع، سامقة بين الكثبان وعلى رؤوس الجبال، أو مسترخية بين شرائع الواحات.**

**وللأشجار أدوارها الاجتماعية والثقافية والسياسية المهمة في حياة أهل الإمارات، فمثَّل بعضها رمزاً مهماً في حياة العامة والخاصة، وظلت أيقونة حاضرة في التعامل اليومي مع مفردات الحياة، ودائمة البقاء في ذاكرة أبناء الإمارات؛ فهي، إن لم تكن مصدر رزقهم وموئل طعامهم ومواشيهم، فإنما تخزّن الذكريات وتُجسّد المعتقدات، وتشهَد على الأحداث.. تحتضن الأفراح وتظلّل الأحزان، ولها قوةُ جذبٍ روحية.. تحت أفيائها مارس الأجداد سلوكهم المجتمعي، إذ كانت ظلال الشجر الوارفة مركزاً للتجمع والتداول في أمور الحياة، وممارسة العديد من أوجه الحياة الاقتصادية والإبداع والتعلّم ونشر المعرفة.**

## النخلة.. رمز الحياة

تعتبر نخلة التمر سيدة الأشجار التي عرفت زراعتها في عصور ما قبل التاريخ، وورد ذكرها في بعض النصوص الأثرية والكتب السماوية المقدسة، وهي تُزرع في إقليم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا منذ أكثر من 5000 سنة، وكانت من أهم الأشجار التي عبدها الجاهليون وقدسوها. وفي الإمارات، تعتبر النخلة رمزاً للحياة والازدهار في الصحراء، وقد تغلغلت في جوانب الحياة المختلفة عند الإنسان الإماراتي، وتجذَّرت في تفاصيل الثقافة الشعبية المحلية، ومن ذلك الشعر والأغاني، والحكم والأمثال والحكايا، والألعاب الشعبية، وغيرها.

ولما تجاوز شعراء الإمارات، بعلاقاتهم التاريخية مع مختلف أنواع الأشجار، البعد النفعي إلى أبعاد روحية ورمزية أعطت للأشجار قدسية خاصة، فقد صادف القاضي علي بن سالم بن عبد الله بو مَلْحَا المرر، قاضي الظفرة وشاعرها، أن لجأ بمركبه إلى إحدى الجزر المحيطة بأبوظبي في موسم الغوص، فوجد فحَّالاً (ذَكَر النخل الذي يُلقَّح به حوائل النخل) نَبَتَ منفرداً في ذلك المكان النائي، فأهاج منظره شجون الشاعر الذي راح يمتدح قوة الفحَّال وجلَده على تحمّل الوحدة، ورأى الشاعر في صبر الفحَّال على هذه الحال صبراً فائقاً قلَّما يتحمله غيره. ثم أسقط على ذلك الفحَّال كل ما في نفسه هو من وجع البُعد عن وطنه وأهله ووصوله إلى هذه الجزيرة النائية وحيداً، فأنْسَنَ هذا الفحَّالَ واختفى وراءه، وأنشد يقول:

**يـــا فَحَّـــال الجزيـــره**
**فـــي وِحدتـــك مـــا اجْســـاكْ**
**أشـــوف احـــوالك ضريـــره**
**مـــا كـــنّ حـــدّ احْـــذاك**
**كـــم جاســـيت الحجـــيره**
**مـــا حـــد صـــبَرشـــرواك**
**لـــو فـــي حضـــن البصـــيره**
**كـــان مُحـــبّي لفـــاك**
**داس ارضـــك بالجـــبيره**
**واصبـــح يَنْـــدى ثـــراك**
**لـــي هيّظـــت السّريـــره**
**قطْـــع القمّـــه عســـاك**
**وآزم يذعـــك حظـــيره**
**رســـم الذاري عفـــاك**

وفي الحِكم والأمثال الشعبية نالت النخلة نصيبها الوافر، ما جسَّد ما تتمتع به من جلال، وغطى كثيراً مما يتعلق بسيرورة حياتها، فكانت هذه الأمثال وما زالت منهجاً علمياً لزراعة النخيل. فنجد ما يرشد إلى سلامة زراعتها، مثل: «ابعدها عنّي، وخُذْ تمرها منّي»، وهو مثل أتى على لسان النخلة، إذ تقول النخلة للمكلّف بفسلها:

أَبْعِدْ النخلة التي تريد غرسها مسافةً كافيةً عنّي، وسأعوّضك كمية التمر الذي تتوقّعه منها. وفي ذلك حكمة من ترك المسافات الكبيرة بين النخيل عند زراعتها، بما يفيد في تقوية جذع النخلة وحصولها على الغذاء الكامل، دون منافسة أشجار النخيل الأخرى، فيعود ذلك على حملها من الثمار فيغزُر إنتاجها، ويجوّد محصولها من الرطب والتمر.

وتقول إحدى الحدوات الشعبية، وهي لون من ألوان الشعر الشعبي، التي كان يردّدها المزارعون من أصحاب النخيل عندما يقومون بجدّ النخيل، أي قطع عذوقها الناضجة بالتمر، ويكون ذلك في موسم «المربعانية» أي نهاية موسم القيظ:

**تُربّعـــي والحـــول عـــودي**
**تسقيـك الروايـــح والرعـــودي**
**تربّعـــي يـــا كريمـــه**
**والحـــول ســـوّي وضيمـــه**
**ربّعـــك اللـــه بالسيـــل والأمـــان**
**وسلّمـك اللـــه من ضعايـــف القيمـــان**

فهم يقولون للنخلة «تربّعي»، أي حان وقت حصادك أيتها النخلة الكريمة، وعودي لنا أقوى مما كنت في العام القادم، وندعو لك الله أن يسقيك روايح الصيف (الأمطار الصيفية)، فيزيد حملك من العذوق. حماك الله وآمنك، وحرسك من الأقوام الغزاة «القيمان»، الساعين لنهب خيراتك.

وفي نهاية موسم القيظ أو الرطب، تكون النخلة جريحة أربعين يوماً جراء قطع عذوقها، وترتاح الأربعين يوماً التالية، ثم تبدأ بعدها أربعين يوماً أخرى لتكوّن الطلع ليكون جاهزاً لإنتاج الرطب، وهذه هي مراحل حمل النخلة وإنتاجها. وقد جاء من المثل ما يشرح ذلك، فقيل: «أربعين يربح، وأربعين تستريح، وأربعين تْزازي بالمربح».

وثمة قول شعبي في بيان أهمية العناية بالنخلة وقت «التنبيت»، أي التلقيح، لما لذلك من أهمية في نوعيّة الإنتاج وكميته. وفي القول: «احضر عند النبات، وغيب عند اليداد»، وهو بمثابة نصيحة زراعية لحثّ أصحاب مزارع النخيل على حضور تلقيح النخيل أو تنبيتها، باعتبارها من أهم عمليات الاعتناء بالنخلة لتنتج محصولاً جيداً، لأن لها شروطاً أهمها اختيار نوعية الطلع الذكري. أما في مرحلة «اليداد»، أي جني التمور، فلا ضرورة لوجود صاحب المزرعة، لأن العملية لا تعدو أن تكون جني محصول فحسب.

ومن جوانب الحياة المختلفة التي ولجت النخلة فيها حياة الإنسان الإماراتي، الألعاب الشعبية، فلعبة «حيل يريد»، تعتمد على سعفة النخيل، إذ يضعها اللاعب بين الرجلين، ويمسك مقدمتها بيده اليمنى وعصا بيده الأخرى تستعمل لضرب السعفة من الخلف أثناء عملية الجري، وكذلك «القرقعانة»، التي تتكون من عزق النخيل، ويشرخ إلى ثلاثة شروخ، يمسك الصبي بمؤخرة العزق ويحركها بقوة، وأثناء ذلك تحدث صوتاً قوياً.

## الغاف.. حالة ثقافية خاصة

شكّلت شجرة الغاف في الإمارات، وما زالت، حالة ثقافية خاصة، وحضرت في محاور الحياة جميعها؛ بدءاً من القصائد والروايات والأغاني وصولاً إلى الطعام والزينة والبيئة، إلى جانب رمزيتها التي تمثل نبض المكان وذاكرة الزمان، لا سيما عندما تفتح ذراعيها دون تفرقة لعابري الصحاري والقاطنين بين كثبانها، فهي شجرة الرمال والتلال، شجرة الفيء والظلال، وحارسة الصحراء التي توّجت الشجرة الوطنية للإمارات.

ومما يُروى في التعلّق بشجر الغاف ما قالته عميدة الشعر الشعبي في الإمارات الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري، عندما أراد راوية الشعر المعروف راشد بن سيف بالحايمة أن يثير قريحتها ويدفعها إلى نظم الشعر، مستغلاً عشقها الجارف لشجرة الغاف وتعلّقها بها، فأخبرها أن الرياح الشديدة والسيول الجارفة قد اقتلعت شجر العود (شجر الغاف) الذي كانت تعزّه، فهاجت عاطفة الشاعرة، وتوقّدت قريحتها، ونظمت قصيدة في بكاء شجر الغاف والتحسّر عليه:

**لعبت** الشجرة دوراً مهمّاً في حياة البشر على مرّ العصور. وحفلت الأساطير بالأشجار المقدسة كمحور للعالم، وقدَّس الجاهليون الأشجار وعبدوها، واتخذوا منها أسماء لأبنائهم، فهي تتمتع بجلال لا يُنكَر. والشجرة في الإمارات لها جذور ضاربة في التاريخ، وهي تحمل دلالات اقتصادية وبيئية واجتماعية، مما يبرز أهميتها كعنصر حيوي في الثقافة الإماراتية

**راح وينـــــه عـــود المجيلـــه**
**لـــي مديـــم وبـــارد اظلالـــه**
**يـــاه ريـــح شلّـــة بْسيلـــه**
**وآزمـــت لعيـــون همّالـــه**
**قلـــت أنـــا روحـــي بَرَوّيلَـــهْ**
**جـــاد ينقـــض عـــود مِ الْهالـــه**
**سِـــرت صـــوب الـــورق بشكيلـــه**
**قـــال اشـــوف الحـــال لا تسالـــه**
**غـــيربـــانـــزرع تماثيلـــه**
**جـــان بانتعـــاض ف أبدالـــه**
**كـــم لـــي حلـــوه ميادلـــه**
**لـــي حســـين وزيـــن لِجْبالـــه**

**وكـــم غـــرٍّ جابـــع بُشيلـــه**
**قـــد ليـــا وانـــزاح فـــي ظْلالـــه**

ولتجذّر بعض الأشجار الضارب في تاريخ الإمارات، تم تسمية كثير من المواضع في الدولة بأسمائها. ولعل أبرزها موضع «الشهانة» بالقرب من السلع، وهو من المواضع الشهيرة في إمارة أبوظبي، وسمي المكان نسبة إلى شجرة غاف كبيرة ومعمرة لها تاريخ حافل، وكان المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - يجلس تحت ظلها كلما مرّ بالمنطقة، وتحت ظلالها أيضاً تم اتخاذ الكثير من القرارات التاريخية ذات العلاقة بالمنطقة.

ووضع الباحثون شجرة الغاف في مكانة الشاهد على أحداث ووقائع تاريخية تكشف الكثير من الأحداث المهمة، مثل «عود التوبة» في مدينة العين الذي ارتبطت تسميته بفترة حكم الشيخ زايد الأول، و«غافات زايد» في إمارة دبي التي ارتبط اسمها بالشيخ زايد الأول، و«غافات زاخر» التي شهدت حفل زواج المغفور له الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - بسمو الشيخة فاطمة بنت مبارك، و«غافة الحصان» في مدينة العين التي كان الشيخ زايد يربط حصانه أسفلها عند تفقّده أحوال المنطقة، عندما كان فيها ممثلاً لحاكم أبوظبي. وتحت ظلال شجرة الغاف ثمّة حكايات محفوظة ومشاهد محفورة وصور كثيرة يصعب امّحاؤها، إذ كانت أشجار الغاف تشهد تجمعات كبيرة من الأهالي تحتها في مواسم المقيظ والمناسبات المتنوعة والأعياد، فغافة «المناعي» في منطقة شمل جلفار، ظلت تحتضن الدارسين والباحثين عن العلم والمعرفة، فكانت المكان المحبَّب لنخبة المطاوعة لتعليم التلاميذ القرآن الكريم واللغة العربية وعلوم الدين. ولم تختلف كثيراً عن هذه الغافة غافة «العبدولي» وغافة «أمون»، في منطقة شمل، إذ كانتا ملتقيات رئيسية يجتمع الأهالي تحت ظلالهما. فيما كان بعض أشجار الغاف يشكّل محطات التقاء وراحة موسمية لأبناء بعض القبائل، كما هي حال غافة «القرايم» على الطريق في منطقة شمل، حيث كان أبناء بعض القبائل ينامون تحتها عندما يأتون من الجبل لبيع الفحم والحطب والتين، وكذا الأمر مع غافة «الناخي»، وتحت غافة «أسد» كان الحدادون يسكنون موسم القيظ.

## الشجر وصلب التفاصيل

وثمة صور متنوعة لأشجار مختلفة تشابكت مع مكونات ثقافة الأشجار، وغدت من مفردات الموروث الإماراتي، فقد ربط القول الشعبي بين كل من شجرة السدر وشجرة التين وبعض العلوم الفلكية التي كان الإنسان الإماراتي يهتدي بتفاصيلها، فقيل في الأولى: «إذا بَلَغْ الكنار، تساوى الليل والنهار»، للدلالة على الأيام التي يتساوى فيها الليل والنهار؛ فعندما تنضج ثمار السدر في ديسمبر من كل عام، يتساوى الليل والنهار. ومعروف أن شجرة السدر من الأشجار البيئية المعروفة التي تنبت غالباً في الوديان والجبال.



وقيل في الثانية: «تظهر الثريا على شوب تين وإلا جارين»، للدلالة على ظهور نجم الثريا مع بلوغ ثمر شجرة التين، أو بداية نضج الرطب، وجارين كناية عن الرطب. وهذا القول الشعبي للتعريف بفصول السنة والنجوم التي يهتدي بها الأهالي في تسيير أمور حياتهم. ونجم الثريا من النجوم المهمة التي ترتبط بحياة الناس سابقاً، لتأثير ظهورها وزوالها على الطقس.

وقيل في ملكة السهول والوديان، شجرة السمر: «حطبهم سمر، وأكلهم تمر»، للتأكيد على أهمية شجرة السمر كوقود وكذلك التمر كغذاء، باعتبارهما من أهم معطيات البيئة التي يستفاد منها. ومعروف أن حطب السمر هو أجود أنواع الوقود للتدفئة، والسمر شجرة معمرة من أشجار البيئة.

ومع شجرة الحنّاء، وهي شجرة شعبية مشهورة، عاش الشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي طقساً عاطفياً أجَّج حرارته العطش الذي ألفاه في شجرة حناء، فنظم قصيدة يقول فيها:

**تشتكيلـــي «قـــورة الحنَّـــا»**
**بالعطـــش مـــا حـــدْ يسقيهـــا**
**ويـــن ســـار صغـــيِّر السّنَّـــا**
**اللـــي اصْبوعـــه يحنّيهـــا**
**يـــادلٍ شوفـــه مشجنَّـــا**
**وشرْهَتَـــه واجـــب ندارِيهـــا**
**لـــي مكلِّـــف قلـــب لمْعنَّـــا**
**«م» العنـــا يسهـــر لياليهـــا**
**ونحـــن مثـــلك من نشـــد عنَّـــا**
**المـــودّه راح طاريهـــا**
**الليالـــي الســـود غثّنَّـــا**
**والهمـــوم النفـــس تظويهـــا**

باحث وإعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع

1. الأمثال والألغاز الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، عبيد راشد بن صندل، العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، الطبعة الأولى، 2001م.
2. ديوان أحمد بن عبيد المنصوري، للشاعر أحمد بن عبيد بن جابر المنصوري، جمع وتحقيق وتنقيح وشرح: محمد بن يعروف المنصوري، أبوظبي: نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، 2008م.
3. ديوان ابن بخيت، للشاعر علي بن سلطان بن بخيت العميمي، إعداد وتحقيق: راشد أحمد المزروعي، أبوظبي: بيت الشعر بنادي تراث الإمارات، 2012م.
4. ديوان موزة بنت جمعة المهيري، موزة بنت جمعة المهيري، أبوظبي: نادي تراث الإمارات، 2004م.
5. الشعر النبطي في منطقة الخليج والجزيرة العربية، غسان حسن أحمد الحسن، أبوظبي: المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، القسم الأول، القسم الثاني، 1990م.
6. صحيفة الإمارات اليوم، 10 /2 /2021م.
7. صحيفة البيان، 28 /2 /2019م.
8. صحيفة الاتحاد، أعداد مختلفة.
9. صحيفة الخليج، 28 /11 /2019م.
10. مركز جمال بن حويرب للدراسات https://jbhsc.ae.
11. موسوعة الأمثال والأقوال الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، راشد أحمد المزروعي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، أبوظبي: المؤلف نفسه، 2016م.
12. الموقع الإلكتروني لجائزة خليفة الدولية لنخيل التمر والابتكار الزراعي https://www.kidpa.ae.
13. موقع الصحيفة الإلكترونية «الفجيرة اليوم» https://fujairahtoday.ae.
14. النبات من كتاب الطب الشعبي، إبراهيم بن سليمان الأنقر، تحقيق: الشيخ محمد بن أحمد بن الشيخ حسن الخزرجي، دولة الإمارات العربية المتحدة: لجنة التراث والتاريخ، الطبعة الثانية، (د.ت).
15. نخيل التمر في الإمارات: الإنجازات من عام الاتحاد 1971م إلى عام التسامح 2019م، وليد عبد الغني كعكة، أبوظبي: جائزة خليفة الدولية لنخيل التمر والابتكار الزراعي، 2019م.
16. ويل ديورانت، «قصة الحضارة»، الجزء الثالث، المجلد الثاني، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1968م.

# **الأشجار..** تروي عبقرية الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في الزراعة والتخطيط

## جمال مشاعل

**كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - يصرّ على غرس الأشجار على جوانب الطرقات ومحاورها وفي الحدائق العامة، ولم يكتفِ بإصدار الأوامر بغرسها؛ بل كان يُشرِف شخصياً على تخطيط أماكن انتشارها وتوزيعها في جميع أرجاء الإمارات، ولفتت علاقته الوطيدة بالطبيعة والأشجار وإصراره على قهر الصحراء أنظار العالم، حتى غدت تجربة الإمارات مثالاً يُحتذى به عالمياً. لقد تمددت المساحة الخضراء على أرض الإمارات، ومن ضمنها الأشجار التي انتشرت بتوجيهات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى - وعلى يديه الكريمتين، وبدأت الصورة تغدو أجمل إذ تنحسر الصحراء أمام تمدد اللون الأخضر، فأيّ اهتمام وجدته الشجرة من المؤسس والباني طيّب الله ثراه؟**

**إن اهتمام الشيخ زايد بغرس الأشجار ورعايتها والحرص عليها جعلها في صلب اهتمام القادة الذين ساروا على نهجه، واستناروا برؤاه، وتابعوا مسيرته المباركة، وهذا ما جعل شجرة الغاف وغيرها تعبّر عن الهوية الوطنية والقيم الاجتماعية في دولة الإمارات العربية المتحدة، وللأشجار القديمة مكانتها الكبيرة لدى أبناء المجتمع منذ القديم فقد كانت محطة استراحة المسافرين، وتحت ظلالها الوارفة تنعقد المجالس، ويتلقى الأطفال تعليمهم.**



### الشجرة.. في صميم اهتمام القائد

في كتابه (خمسون عاماً في واحة العين) الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية، يقول المؤلف المهندس الزراعي الراحل عبد الحفيظ خان الذي أسهم في زراعة وانتشار الأشجار في أبوظبي ومناطقها، بتوجيهات الشيخ زايد: تعيّن عليّ السفر عاجلاً لنقل 12 صندوقاً مملوءاً بالنباتات وصلتْ إلى ميناء دبي ضمن حمولة إحدى السفن، كان حينذاك أمر السيارة المخصصة لي معلقاً، وكنت في أمسّ الحاجة إليها، ولكني لم أستلمها بعد، فأعطاني الشيخ زايد سيارته الخاصة التي ثُبّت عليها علمُ أبوظبي، وقادها سائقه حميد المهيري إلى دبي لجلب النباتات إلى العين بعناية فائقة، ولما عدنا شاهدنا الشيخ زايد ينتظر بشوق وصول النباتات، وكان - رحمه الله تعالى - هو الذي وقّع على البروة يفوّض إليّ استلام الشحنة من قبطان السفينة، وكانت تلك أول شحنة من الأشجار تم استيرادها وقام الشيخ زايد بغرس شجرة «أوكالبتس» في حديقة منزلي، وتنتمي تلك الشجرة إلى عائلة الأشجار الصمغية، وهي من فصيلة الأشجار ذات الخشب الجامد، وما زالت تلك الشجرة قائمة بعد نصف قرن من غرسها. وعن اهتمام الشيخ زايد بالأشجار وغرسها، يقول خان: كان الشيخ زايد حريصاً على غرس الأشجار على طول ما تصوّر أنه مواقع للطرق، فلم يكن ثمة طرق في ذلك الحين، وقد طلب مني فيما يشبه جزيرة لأنه كان يودّ أن تكون الطرق التي تُشقّ لاحقاً ذات اتجاهين، وكانت تلك بوابة مشروعات الطرق، واليوم يشاهد المسافر على الطرق تلك الأشجار الأولى التي غُرست في مدينة العين، وكانت تلك الطريقة الوحيدة التي تحدّ من زحف رمال الصحراء على الطرق. لقد قالها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان: «أعطوني زراعة أضمن لكم حضارة» وهو القائد الذي كان يطلب من شعبه غرس الأشجار وزراعة الخضراوات؛ معتبراً ذلك من متطلبات النهضة والحداثة.

### تجربة غرس النخيل التي اجتازت الحدود

يقول خان: إن جذور شجرة النخيل تمتصّ الرطوبة من التربة، على حين تتعرض أوراقها وثمارها للشمس الحارة طوال النهار، وهذا ما يجعل أي شخص يقع في حب تلك الشجرة الفريدة الساحرة ذات السمات الفريدة، التي تؤتي ثماراً عظيمة ذات خواص متوازنة، وتكفي وحدها أَوَدَ الحياة، وإني أتذكر كيف عشقت تلك الشجرة وخصائصها الفريدة ما جعلني أغرس الآلاف منها في كل أنحاء أبوظبي، وكم كانت سعادتي عظيمة عندما وجدت الشيخ زايد يشاركني في عشق نخيل التمر، ومن

ثم سهَّل تنفيذ مشروع التشجير الذي كان تحقيقه حلماً، وقد حمل - رحمه الله تعالى - الفكرة إلى بلاد مجاورة؛ فقد توجّهَ بها إلى عُمان وإلى المملكة العربية السعودية، وكان في قمة السعادة بتجربة غرس نخيل التمر. غرسنا أول دفعة من الأشجار على امتداد طريق الشيخ زايد من الموقع الحالي الذي يحتله الآن فندق هيلتون حتى قلب مدينة العين، ولما وصلت شركات رصف الطرق بعد ذلك بسنوات أصدر الشيخ زايد تعليمات مشددة بألا تُقتلع شجرة واحدة في أثناء أعمال شقّ الطرق ورصفها، ولذلك فلم تُمسّ أي شجرة بسوء تنفيذاً لتعليماته عند تنفيذ مشاريع البناء، وشقّ الطرق ورصفها، ومن يفعل ذلك فلن يفلتَ من العقاب، ومن المُذهل حقاً أن غُرستِ الأشجار أولاً ثم جاءت الطرق على جنباتها لأنها هي التي تحميها من زحف الصحراء، وتوفّرُ الظلال على طول الطرق داخل المدن وبينها، وتبدّدُ وحشة المنظر الصحراوي. وإذا كان للنخلة مكانة خاصة لدى أبناء الإمارات فإن شجرة الغاف لها مكانتها هي الأخرى، حيث تزودهم بالطعام والدواء والظلّ، وأما الأشجار المعمرة فإنها تمثل الكثير من روح المكان وذاكرة المجتمع، ولما كانت الأشجار في دولة الإمارات العربية المتحدة لها جذورها الضاربة في أعماق الزمن لذا سميت الكثير من المواضع بأسمائها.

## اقطع الطريق ولا تقطع الشجرة

يوثق كتاب (زايد رجل بنى أمة) الصادر عن الأرشيف والمكتبة الوطنية، ما قاله الذين عرفوا الشيخ زايد عن كثب، وهو إن شيئاً من التآلف الوطيد كان يربطه بالشجر، فهو بعد عام 1966 غادر منزله في العين وانتقل إلى أبوظبي حاكماً للإمارة؛ ولكنّ هذا الانتقال لم يقطع بينة وبين الجذور؛ حيث كان الجناح الخاص به في الدور الأول من قصر البحر يطلّ على حديقة من نافذة واسعة هي أشبه بالشرفة المفتوحة من جوانبها الثلاثة، وقد غرس الشيخ زايد في الحديقة أو البستان أنواعاً من الأشجار المحببة لديه، بما فيها النخيل، وعدد من أشجار اللوز المثمرة. ويروي الرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميّل أنه في إحدى زياراته إلى أبوظبي كان مع الشيخ زايد في سيارته ولم يكن يرافقهما أحد، توقف الشيخ زايد عند أحد المنعطفات والتفت إلى شجرة كبيرة وارفة، كانت مائلة على جنبها حتى تكاد تهوي على الأرض، أوقف الرئيس السيارة واتصل عبر هاتف سيارته بالمسؤولين في القصر طالباً إرسال من يهتم بالشجرة ويعيدها قائمة في مكانها، ويواصل الجميّل حديثه: لقد انتزع الشيخ زايد بضع دقائق من وقته الثمين لهتم بمصير الشجرة، إنها التفاتة تشعرك بعظمة التواضع. وفي إحدى زياراته - رحمه الله تعالى - إلى مدينة العين وصل إلى مشروع إنشاء واحد من الطرق الجديدة، ولاحظ أن الطريق يتجه مباشرة نحو واحدة من أقدم الأشجار في منطقة العين، فأوقف الشيخ زايد سيارته وطلب استدعاء المسؤولين عن المشروع، وكان قد علم أنهم ينوون قطع الشجرة لكي يمر الطريق مكانها، فأمر بترك الشجرة مكانها وجعل الطريق مسربين يمران عن جانبيها ويتركانها بسلام ثم يعودان فيلتقيان. ويقول الشيخ حمدان بن محمد الشرقي: كان شعار الشيخ زايد «اقطع الطريق ولا تقطع الشجرة»، ويقول الدكتور عز الدين إبراهيم: إن الشيخ زايد قد قال: نحن لا نريد أن نكتفي بالمحافظة على الشجرة الموجودة فقط، بل نريد أن نزرع إلى جانبها شجراً كثيراً. ويقول راشد أحمد بن فهد الذي شغل منصب وزير البيئة والمياه: منذ مطلع رئاسته أمر الشيخ زايد بزراعة ما أمكن من الأشجار في أوسع ما يمكن من المساحات، وكان يشرف شخصياً على تخطيط وتوزيع زراعة الأشجار في جميع أرجاء الإمارات. ويقول سعيد الرقباني المستشار الخاص لصاحب السمو حاكم الفجيرة: كان الشيخ زايد يعبّر عن قناعته الراسخة بأن الأشجار ليست أقلّ أهمية على صعيد البنى التحتية المدنية من الطرقات والأبنية.

## أشجار وطنية

ينقل موقع 24 الإعلامي الإلكتروني أن بلدية العين تعتبر شجر الغاف والسمر والسدر، من الأشجار الوطنية التي يمنع قطعها

أينما كان مقرها في المدينة، وذلك التزاماً بتوجيهات المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان؛ حيث تحرص البلدية على حفظ الأمانة الغالية، ولذلك تضمنت بعض مشاريع الطرق إنشاء جزر وسط الطرقات لحماية تلك الأشجار التاريخية، وأن مدينة العين تحفظ ثروة وطنية من الأشجار الشاهدة على مراحل تاريخية مهمة، وهي ذات قيمة بيئية غنية، وتعمل بلدية العين دوماً على حفظ هذه الأشجار ورعايتها.

## وتحت ظلال الأشجار

في كتاب (الرمال العربية) قال الرحالة الإنجليزي ويلفرد ثيسيغر: حين اقتربنا من «المويجعي»، حيث كان الشيخ زايد يعيش في هذا المكان، شاهدتُ حصنه وهو فناء واسع محاط بسور... كان نحو ثلاثين عربياً يجلسون تحت شجرة أمام الحصن، أشار دليلنا وقال لي: الشيوخ جالسون، قمنا بتبريك نياقنا، وتقدمنا، وبعد أن ألقيت عليهم السلام، تبادلت الأخبار مع الشيخ زايد...

ويقول ثيسيغر: مكثتُ عند الشيخ زايد نحو شهر، وفي كل صباح، بعد أن نتناول الفطور، كنا نخرج وننضمّ إلى مجلس الشيخ زايد الذي يجلس في أكثر الأحيان تحت شجرة خارج الحصن، كان يطلب القهوة ونجلس هناك نتحادث حتى وقت الغداء.

وتلك الشجرة التي كانت أمام قصر المويجعي، والتي يلتئم مجلس الشيخ زايد في ظلالها هي من أشجار الغاف المعمّرة، وهذا ما يؤكد حبّ المؤسس والباني لها، وقد أولاها رعايته واهتمامه. وعرفاناً بالحقيقة ووفاءً للعطاء الذي لم يعرف الحدود، وللرؤى السديدة التي سبقت العصر، جدير بنا أن نتذكر أنه عندما قرر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أن يغرس أشجار نخيل التمر، وغيرها من الأشجار صديقة البيئة الإماراتية في أوائل ستينيات القرن الماضي كجزء من برنامج شامل لتخضير الصحراء، كان العالم بأسره، آنذاك، على بُعد عقدين على الأقل من إدراك ما ينطوي عليه التغيّر المناخي العالمي، والتدهور البيئي.

## للشجرة صور أخرى

ورد في موسوعة (زايد) أن للشجرة صوراً عديدة، فهي عند علماء الدين تلك التي تمت تحتها البيعة إيماناً ونضالاً في سبيل انتصار رسالة الإسلام، وهي الشجرة التي هزت مريم العذراء - عليها السلام - جذعها فتساقط منها رطباً جنياً. ويقول المفكرون: إن الشجرة فكرة وكلمة، وقلم وأوراق. ويقول الشعراء: إنها أغصان ميادة وفرح، وأحلام وعشق وعبير. ويقول الفلاسفة: إنها هي من جوامع الشمائل التي تعلّم الناس معنى التجمع والائتلاف، والتعاطف والتكافل، وصدق العطاء بلا حدود. وقال علماء البيئة: من الشجرة الخضراء تخرج النار والوقود، والزيت والدواء والغذاء، وبها تتم المحافظة على البيئة من التلوث والتعرية.

ومن فوائد الأشجار أنها تمتصّ أكثر من ثلث أصوات الضجيج فتخفف من آثاره السلبية - وهو أحد أمراض العصر- وهي دون شك رئات يتنفس منها المجتمع؛ ولا سيما تحت ضوء النهار، وعلاقتها راسخة بأرض الوطن وترابه ■

صحفي مقيم في الإمارات

# الأشجار.. تاريخ وسحر وثقافة

هيثم يحيى الخواجة

**لا غرو في أن للشجرة عبر الأزمان والدهور قيمة كبيرة، فهي عشيقة البسيطة، وصديقة الإنسان في حله وترحاله، لأنها تغذي الروح والنفس والجسد بجمالها وروعتها وظلالها وعطائها وثمرها. فالشجرة، وباستمرار، تحكي قصة الأرض والمطر، وتعزز حب الإنسان للطبيعة، فحضورها قد استتر وراءه منجل لفلاح حنّ عليها فأنبتت يداه السحر والحياة. وتحت ظلالها الوارفة أبلقت حكايات الحب التي لا تنسى! وعلى أغصانها نبتت سمفونيات أبدعتها البلابل والعصافير وطيور الكرة الأرضية، ومن روعة أزهارها وثمارها وخضرتها زادت الطبيعة نقاء وبهاء وطهراً. لهذا كله كانت الشجرة ولا تزال عنواناً عريضاً للحياة الجميلة والحلم والخيال الخصب. لقد واكبت الشجرة في الإمارات حياة الإنسان عبر التاريخ، فهي رمز البقاء والنماء والخضرة، وإذا كانت تحاكي الصحراء آناء الليل وأطراف النهار، فهي تصر على أن تستقبل الإنسان بفرح ورحابة صدر لكي تحضنه في ظلالها وتستضيفه متى شاء ليأكل من ثمرها ويستمتع بفيئها. وقد غدت الشجرة في دولة الإمارات العربية المتحدة جزءاً من تاريخ دولة عريقة وحضارة تشع زهواً وثراءً. فأينما توجهت في دولة الإمارات تجد الشجرة شامخة كقصيدة خالدة في سفر الطبيعة والحياة، أو قل كلحن خالد شاركت الفتنة والأزهار والأمطار والنسائم العليلة والبلابل وشلالات المياه والجداول في تأليفه. فالشجرة كالثريا في الإمارات السبع وفي ليوا والسلع والعين وغير ذلك من مناطق زادتها الأشجار بهاء. هناك تجد أشجار النخيل والسدر والغاف والقرط والنبق وغير ذلك الكثير.**

والذي لابد من الإشارة إليه هو أن المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - عشق الشجرة وأحبها وأصر على رعايتها وحمايتها بأحدث الأساليب والطرق، لتصبح باسقة تطاول السماء، وتكون رمزاً شامخاً في تاريخ دولة الاتحاد.

وقد حظيت النخلة بمكانة كبيرة، فهي أم الشجر بحنانها وعطفها وصمودها وارتباطها بالصحراء، وقد نالت من الاهتمام قسطاً عظيماً لكونها مصدر غذاء مهماً، ولارتباطها بوجدان ابن الإمارات وتاريخه، ولشجرة الغاف المعمرة ألق مبهج حيث تنتشر في أماكن متعددة من دولة الإمارات العربية المتحدة، ولشجرة السدر والغاف أصالة يترنم بها الأجداد والآباء، والكثير الكثير من أنواع الأشجار التي تبهج النفس وتسر الخاطر.

لقد كان زايد صانع حضارةِ الإمارات ورائداً في نشر ثقافة حماية الشجرة ورعايتها، كما كان قدوة ونبراساً في إصراره على الزراعة ونشر الخضرة في بقاع الإمارات دون استثناء. كان - رحمه الله - يدرك أهمية الشجرة في حياة الإنسان ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، كما كان يسعد عندما يتفيأ بظلالها، ومن لا يعرف أوامره باستزراع الغابات والعمل على زيادة أشجار النخيل وغيرها من الأشجار؟

ويكفي أن نذكر أنه في إمارة أبوظبي وحدها نحو سبعة ملايين شجرة. ولئن كانت الشجرة جزءاً من التراث والمعالم التي تعكس صورة جميلة للطبيعة، فإن لها أبعاداً اقتصادية واجتماعية أيضاً تسهم في رفع الإنتاج الزراعي وتستغني بذلك عن استيراد المنتوجات اللازمة. ألم تكن الشجرة إلى جانب الأجداد في الكفاح والإنتاج والحياة بقضها وقضيضها؟

أليست الشجرة شاهداً عدلاً على ملايين الذكريات والحكايات والإنجازات والعلم والتعليم وغير ذلك؟

إن شجرة النخيل بشموخها وعزتها وجودها رمز للعطاء والحياة والصمود، وإن شجرة الغاف رمز ثقافي عامر بالفاعلية والتفاعلية والتأثير، ويكفي الحديث عن قدرتها العجيبة في التأقلم مع البيئة الصحراوية وتحمّل الحر الشديد والبرد القارس وتقلبات الأجواء في الصحراء.

لقد عكست الأشجار حضوراً إنسانياً عميق الدلالة، بسبب عطائها وظلالها التي تمد جسور الحب والتآلف بينها وبين الإنسان، ما جعلها تسكن وجدانه، ومنحها جواز سفر دبلوماسي متميزاً لتكون نبض حركة الحياة والاقتصاد والغذاء وذاكرة المجتمع الذي يتطلع إلى ولوج بوابة الحضارة بإصرار ومكنة وثقة.

## ثقافة الشجرة وشجر الثقافة

لما كانت الشجرة رمزاً للتعبير عن الهوية الوطنية والقيم

الاجتماعية، فقد غدت مصدراً فائضاً للإلهام والتعبير الثقافي في الأدب والفنون ليس في دولة الإمارات العربية المتحدة فحسب، بل في الوطن العربي كله، قال الشاعر أحمد شوقي متحدثاً عن الشجرة:

**يمامة كانت بأعلى الشجرة**
**آمنة في عشها مستترة**
**فأقبل الصياد ذات يوم**
**وحام حول الروض أي حوم**
**فلم يجد للطير فيه ظلا**
**وهم بالرحيل حين ملا**

أما الشاعر شوقي بزيغ فقد أهدى ديوانه للأشجار، لكونه أحد عشاقها، ولكونه يثمن دورها عالياً:

**لذا لن يتم القصيدة عني**
**إذا مت غير الشجر**

ويقول أيضاً:

**مهد من جذوع السنديان**
**مبقع بالدم**
**ثم تكلفتني بابتسامتها البتول**
**شجيرة الدراق**
**والحبق الذي عرته فيما بعد**

إن الشجرة رمز التأثر والتأثير بين ابن الإمارات والبيئة والحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ولهذا غدت الشجرة موضوعاً ثراً للشعر والأدب الإنساني والثقافة الزراعية والغذائية والتراث، قال الشاعر معروف الرُصافي:

**انظر لتلك الشجرة**
**ذات الغصون النضرة**
**كيف نمت من حبة**
**وكيف صارت شجرة**

أما الشاعر فاروق جويدة، فهو يستمد تفاؤله من الشجرة فيقول:

**ما زلت أقول**
**إن الأشجار وإن ذبلت**
**في زمن الخوف**
**سيعود ربيع**
**يوقظها من الأطلال**

ويعتقد الشاعر والمسرحي محمد المأغوط أنه شجرة فرح أي إنه يماهي بين ذاته، بما فيها من آمال وآلام، والشجرة، يقول:

**إني شجرة فرح**
**وإذا بخريف صاعق**
**يضربني حتى الجذور**

لقد أطلق الشاعر سليمان العيسى على ديوانه الشعري الصادر عن وزارة الثقافة بدمشق عام 2013م (كتاب الشجرة).

وقد عكس الأدباء الإماراتيون في إبداعهم تقديرهم وحبهم للشجرة، فها هو الشاعر عبد الله محمد السبب يتحدث في ديوانه (مشهد من رئتي) عن قداسة الشجرة وارتباطها بالبوح والنبل والعلاء:

**أسعدت مجيئاً**
**أيتها المقدسة**
**المكدسة**
**بالماء والنماء والانتماء**
**وهمس المساء ونبل النساء**
**يا نسل السماء**
**أسعدت مجيئاً**
**ومضيء أنا**
**بك،**
**بك،**
**بك،**

**يا شجرة الماء**
**يا نسب السماء**

وفي الديوان نفسه في قصيدة (سلطنة) يعبر عن عشقه للنخلة ويربط بينها وبين ما يعتلج في نفسه من وعي وحب وشوق:

**اصطفيتك**
**يا وجه قلبي**
**ووجهتي**
**ووجاهتي**
**اصطفيتك**
**يا نخلة العصر.. يا نحلة السهر**
**يا ذات المطر المعطر**
**بالصبر**
**والبصر**
**والبصيرة**
**يا ليلة العشق، يا ليلى العشيرة**
**يا نجمة الشوق، يا نجوى المسيرة**
**يا ذات الفوج والفرج**

ويكتب الشاعر أحمد عيسى العسم خاطرة نشرها في جريدة الاتحاد بعنوان: غاف في حديقة:

(قد يكون شجر الغاف هذا المجتمع في حديقة وسط منطقة دهان في رأس الخيمة المتميز بأناقة ثباته وظروفه الوجدانية واخضرار غصونه وحيداً..).

أما الشاعر ناصر البكر الزعابي فيقول في ديوانه (تركت وجهي للمرآة):

**شجرة الرمان تتلألأ**
**روعة الشتاء**
**يا الله**
**كيف أينع الحب؟**
**كيف عدنا صغاراً؟**
**وكبر الآخرون مع الأوهام!**

وفي الإمارات دار نشر باسم شجرة غاف، وفي الفجيرة حديقة الشعراء، وفي الإمارات تنتشر المحميات الحضارية التي تحتضن آلاف الأشجار المتنوعة والمختلفة.

أيتها الشجرة العزيزة الغالية! كم أنت رائعة! وكم أنت مؤثرة ومعطاءة!

أنت صديقة الإنسان والحيوان والنبات، تجودين بسخاء، ولا تنتظرين من أحد شيئاً.. لك دعاء الخير والوفاء، لقد أحطت بالإبداع كله وكنت وما زلت مثالاً للخير والوفاء.. أنت ترنيمة الوجود ولحن الخلود وقيثارة السعادة والطمأنينة ■

كاتب وناقد مسرحي

# الشجرة الوطنية الإماراتية تلهم الشعراء

## قصيدة الغاف

### غرض جديد في الشعر الشعبي

الأمير كمال فرج

**المتتبع لتطور الشعر العربي، سيلاحظ أن التطور كان بطيئاً، استغرق عصوراً وأزمنة، وهذا ديدن التطور في المجالات كلها، يحتاج دائماً إلى وقت وجهد وتراكم المعرفة والخبرات، وهذا ربما ما دفع عنترة بن شداد إلى استهلال معلقته بالقول الاستنكاري: «هَلْ غَادَرَ الشّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟»[1]، أي إن الشعراء لم يتركوا موضوعاً إلا وكتبوا فيه، مدللاً على صعوبة الابتكاروالتجديد. وقد اتخذ التطور في الشعر مسارين متجاورين، الأول على مستوى الصورة والإبداع الفني، والثاني على مستوى الموضوعات والأفكار، وفيما شهد الشعر على مدى العصور الأدبية المختلفة تطوراً حثيثاً في المسار الأول، فخرج الشعر من الصنعة إلى الطبع، وظهرت أساليب جديدة في التصوير الفني، وظهرت تقسيمات جديدة للقصيدة، كما حدث في الموشحات وغيرها، كما تطورت القصيدة من حيث الشكل فظهر الشعر الحديث «التفعيلي».**

وفي المقابل، تطور الشعر من حيث الأفكار بتطور الزمن ومستجدات الحياة التي ولّدت موضوعات جديدة، إلا أن التطور في هذا المسار بالذات كان بطيئاً متباعداً، وهذا أمر طبيعي لأن اهتمامات الإنسان في الغالب واحدة، والأفكار واحدة أيضاً، وإضافة اهتمام جديد يحتاج إلى سنوات، لذلك حافظ الشعر العربي، في الغالب، على أغراضه الأساسية. قد تتقدم أغراض، وتتراجع أخرى، ولكن رغم ذلك ظلت أغراض الشعر العربي محدودة، لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.

لذلك كان ظهور غرض شعري جديد حدثاً مهماً، لأن ظهور موضوع جديد يعني تياراً شعرياً، وينبوعاً جديداً من الأفكار والموضوعات وأساليب الكتابة الشعرية، وتحريكاً لماء الشعر الذي يحتاج إلى تجديد، ليس على صعيد الأسلوب ولكن في الأفكار أيضاً. والدارس للشعر في دول الخليج والإمارات العربية المتحدة تحديداً سيكتشف ظهور أفكار وموضوعات جديدة، خاصة في الشعر الشعبي، الذي وجد من البيئة الشعبية الثرية مناخاً خصباً للتفاعل والابتكار، ما سمح بظهور أشكال وأنواع وأساليب شعرية وأدائية جديدة، بل وموضوعات تستحق أن تصنف كأغراض شعرية جديدة، ومنها الشعر المتعلق بشجرة الغاف، أو ما يمكن أن نسميه «قصيدة الغاف».

### الغاف في الثقافة الإماراتية

«الغاف» شجرة قوية ضاربة في الثقافة الشعبية الإماراتية، واكبت المجتمع من عصر البداوة بما يحمله من قيم، إلى عصر البناء والرخاء والتقدم، تنمو في غرب آسيا وشبه الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، تكثر قديماً وحتى اليوم في سلطنة عُمان والإمارات.

«تتميز هذه الشجرة بأنها تتحمل الجفاف في البيئات الصحراوية القاسية، لذلك يمكن أن تعيش 120 عاماً، وأحياناً أكثر، وفي البحرين شجرة غاف تسمى «شجرة الحياة» يبلغ عمرها 400 عام. كما توفر الغاف الموئل لآلاف من الحيوانات، التي يعتبر بعضها

مهدداً بالانقراض، كما أنها بمثابة مصدّ طبيعي للرياح، وكانت أوراق الغاف وقرونها توفر الغذاء للماشية، ونظراً لخصائصها الطبية، كانت تستخدم لعلاج الروماتيزم والربو والتهاب الشعب الهوائية ولدغات العقارب والثعابين، وللشجرة كذلك فوائد بيئية، فهي تقلل انبعاثات الكربون، وتثبّت الكثبان الرملية، وتحسن خصوبة التربة"[2]، وهو ما جعلها رمزاً للحياة.

وبسبب الأهمية الثقافية والتراثية لشجرة الغاف تم إعلانها عام 2008 الشجرة الوطنية لدولة الإمارات العربية المتحدة، وفي عام 2019، تم اختيارها كرمز لعام التسامح لتجسيد دورها كرمز تاريخي وثقافي للاستقرار والسلام في البيئة الصحراوية للدولة.

والغَافُ في «المعجم الوسيط»: نباتٌ مخشوشبٌ معمَّرٌ من الفصيلة القرنية، يوجد في بلاد العرب وأفغانستان وإيران والهند، وهو ذو فروع كثيرة الشوك، أوراقُهُ مركبةٌ ريشية، ذات وريقات صغيرة، وأزهارُهُ قصيرة العنق في نورات دالية، والثمرة قرنٌ مستقيمٌ حلوُ الطعمِ أملس[3]، وفي لسان العرب لابن منظور: «الغاف: العضاه، وهي شجرة نحو القرظ شاكَّة حجازية تنبت في القفاف»[4].

### الغاف في الشعر العربي

الغاف شجرة قديمة ورد ذكرها في الشعر الجاهلي، ولعل حضورها في هذا الشعر المرجعي دليل على حجم وجودها في هذه البيئات القديمة، وقد حضرت الغاف في قصائد شعراء الجاهلية، ومنهم امرؤ القيس (نحو 80 ق.هـ) (501 م: 540م) الذي قال:

**«يَقْطَعُ الغافَ بالخَصِينِ ويُشْلي**
**قَدْ عَلِمْنا بمَنْ يُدِيرُ الرَّبابا»**[5]

فرق بلدية أبوظبي تزرع الغاف في المناطق الإنشائية

وورد ذكر الغاف قبل البعثة المحمدية أيضاً في شعر قيس بن خطيم (2 ق هـ / 620 م) حيث قال:

**«أســـد ببيشـــة أوبغـــاف روافِ»**[6]

و«رواف» هذه منطقة قريبة من مكة المكرمة، وهذا يدل على وجود شجر الغاف في منطقة الحجاز بكثافة حتى عرفت بعض المناطق بها.

- وكتب أَبُو فِرَاسْ هَمَّامْ بْنْ غَالِبْ بْنْ صَعْصَعَة «الفرزدق» (20 هـ / 641م : 110 هـ / 728م) قصيدة وجهها للحجاج، اعتراضاً على تعيين المهلب بن أبي صفرة في مناصب قيادية في الدولة الأموية، فقال:

**«ولـــوردّ المهلـــب حيـــث ضمـــت**
**عليـــه الغـــاف أرض أبـــي صفـــار»**[7]

وهنا يشير إلى البلاد التي أتى منها المهلّب بن أبي صفرة، وهي مشهورة بالغاف.

- وقال الفرزدق في قصيدة أخرى:

**«فإن تغلـــق الأبواب دونـــي وتحتجـــبُ**
**فمـــا لـــي مـــن أمٍّ بغـــافٍ ولا أبِ»**[8]

- وبعد أن تحسنت الأمور بينهما، عاد الفرزدق ومدح المهلب وذكر فضائله، قائلاً:

**«إليـك نشـأت يـا ابـن أبـي عقيـلٍ**
**ودونـــي الغـــاف غـــاف قـــرى عُمـــانِ**[9]

وتعبير «غاف قرى عُمان» دليل على أن عُمان منذ القدم مشهورة بشجرة الغاف.

- وورد ذكر شجر الغاف في قصائد في عصر صدر الإسلام أيضاً، حيث قال الشاعر عبيد اللّه بن الحر (68 هـ - 687 م) يعاتب مصعب الأبرد بن قرة الرياحي، ويذكرله تقريبه سويد بن منجوف:

**«جَعَلـــت قُصُـــور الأزد مـــا بين مَنبـــج**
**إلـى الغـــاف من وادى العُمان المَصُـــوب**
**بـــلاد نَفَـــت عنهـــا العَـــدُو سُيُوفُنـــا**
**وصفـــرة عنهـــا نـــازح الدار أجـــنَب»**[10]

- وقال غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي «ذو الرمة» (77 هـ - 696 : 117 هـ - 735) الذي عاصر الدولة الأموية:

**«إلَى ابنِ أَبـــي الْعَـــاصِي هشامٍ تَعَسَّفَـــتْ**
**بِنا العِيسُ، مِنْ حيثُ الْتقى الغَافُ والرملُ»**[11]

وقوله: «ابن أبي العاص» يقصد به الخليفة عبد الملك بن مروان، و«هشام» هو ابنه الخليفة الأُمَوي.

- وقال شاعر اسمه الليث:

**«حَتَّى أَنـــاخَ بذاتِ الغـــافِ مِـــنْ شَغَـــفٍ**
**وَفِي الْبِـــلَادِ لَهُـــمْ وُسْـــعٌ ومُضْطَـــرَبُ»**[12]

و«شغف» موضع بعُمان ينبت فيه الغاف وهو شجرة من شجر الشوكة.

## الغاف... قيم زايد

كان ورود شجرة الغاف في الشعر العربي القديم عرضياً لا يرقى إلى الحالة أو الظاهرة، ولكن كانت هذه الشجرة على موعد مع التاريخ عندما وجدت زخماً قوياً في العصر الحديث، بعد أن حظيت بمكانة أثيرة لدى الإماراتيين الذين ارتبطوا بها ارتباطاً وثيقاً، وأصبحت جزءاً من ثقافتهم الاجتماعية.

كانت شجرة الغاف عنصراً مهماً من البيئة الشعبية الغنية بالمفردات والقيم والمعتقدات، ففضلاً عن فوائدها المختلفة، كان لها فوائد اجتماعية أيضاً، حيث اعتاد الرجال على الاجتماع تحتها ومناقشة الأمور كافة التي تعنّ لهم، ويمكن القول إن الغاف لعبت دوراً مهماً ليس في الحياة الاجتماعية الإماراتية فقط، ولكن في الحياة السياسية أيضاً، وكان لها دور في تأسيس الاتحاد، حيث كان المغفور له - رحمه الله تعالى - المؤسس الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - يجتمع تحتها، ويتخذ القرارات المهمة التي تخدم أبناء شعبه، وتخطط لمستقبل هذا الوطن العظيم. واستمد هذا الحضور الاجتماعي والثقافي والسياسي المزيد من الزخم بعد أن أوصى الشيخ زايد بزراعة الأشجار عموماً وشجرة الغاف تحديداً، وأمر بمنع قطع أي منها، وباستزراع غابات منها في أنحاء الإمارات كافة.

كانت شجرة الغاف والعناية بها إحدى قيم الشيخ زايد التي أورثها لأبنائه البررة الذين حافظوا عليها وحوّلوها إلى قوانين ومبادئ، فكان ذلك سرّ صمود هذا الكيان العظيم واستمراره وتطوره.

جسدت شجرة الغاف قصة الإمارات، ففيما صمدت الغاف في ظل الظروف الصحراوية القاسية، صمدت الإمارات في مواجهة التحديات كلها، وحققت معجزة الصحراء، فتحولت «الغاف» إلى هوية وطن، وتوج ذلك عام 2008 بإعلان «الغاف» الشجرة الوطنية لدولة الإمارات العربية المتحدة.

ودخلت الغاف في الأدب الإماراتي، فظهرت في الشعر والسرد والمسرح، وفي الأمثال الشعبية أيضاً، وهناك مثل يقول: «لا يزور الإنسان الموت ولو في مجاعة إذا كان له غاف وعنزة وجمل، فإن الثلاثة مجتمعة يرزقون الرجل حتى في أصعب الظروف»[13].

## الغاف غرض شعري

الشعر مرآة للبيئة، فلا شعر دون بيئة اجتماعية حاضنة، وفي المقابل، كان الشعر على مرّ العصور الراصد الدقيق والمؤرخ الأمين للبيئة بمختلف مظاهرها ومفرداتها، لذلك أطلق عليه «ديوان العرب»، ولهذا كان من الطبيعي أن يوثق الشعر مكانة شجرة الغاف وأهميتها كواحدة من عناصر البيئة في مختلف العصور. ونظراً لأن الشعر الشعبي هو الأقرب إلى البيئة، ومنها خرج ونما وتطور، كان الشعراء الشعبيون الأسرع تعبيراً وكذلك الأصدق في التعبيرعن هذه الشجرة.

و«تاريخ ورود شجرة الغافة في الشعر النبطي في الإمارات قديم، ويعود بحسب الرواة إلى أكثر من 300 سنة، إذ يرتبط بأقدم شاعر نبطي وصلنا إنتاجه الشعري في الإمارات، وهو الماجدي بن ظاهر الذي توفي في مطلع القرن الثامن عشر، ويروي الرواة الشفاهيون تغرودة له عن شجرة الغاف التي لجأ إليها، كي تنقذ ناقته «إختيلة - ناقة ابن ظاهر» من الموت، يقول فيها:

**«الغـــاف لوينفـــع نفـــع إختيلـــه**
**ماتـــت وهـــوه لها يخـــرط الكيلـــة»**[14].

- وذكر الغاف بعد ذلك عدد كبير من الشعراء منهم محمد بن روضة الكتبي الذي كتب قصيدة يعبّر فيها عن حزنه لأشجار الغاف التي تذكره بالماضي الجميل، مستذكراً أيام الأعياد وما فيها من فرح وسعادة، يقول في قصيدته «مسكين عود»:

**«مِسْكـــين عـــوْد المربحانـــه**
**ربتـــه خَـــلا واروحـــه وْحيـــد**
**يبْكـــي عَلَـــى وقْتـــه وزمانـــه**
**ويبْكـــي عَلَـــى شـــوف الأياويـــد**
**وْيـــيت فـــي بِقْعـــة مكانـــه**
**ودَارَت عَلَـــى بالـــي مَناشيـــد**
**عـــوْدٍ معـــي مـــا رخـــص شانـــه**
**يا مَـــا حلاتـــه موســـم العيـــد**
**والسَّيْـــل يمْطـــر مـــن امزانـــه**
**والْعشْـــب لـــي مْسَـــوّي عَنَاقيـــد**
**مقَـــرلـــي دعْجَـــه اعيانـــه**
**لِمْخَضّـــب بْشيـــل الأساويـــد**
**قَلـــتْ الْمثْـــل كلّـــه عَشانـــه**
**ذاك الزَّمـــان اللّـــي مـــضى احيد»**[15]

### الحمام الراعبي

- ويحاور الشاعر سالم بن سويف الكتبي الحمام الراعبي وهو الحمام البري صغير الحجم، بعدما وجده يبكي بعد قطع الكثير من شجر الغاف الذي كان يستظل به، يقول:

«يـــا الرَّاعـــي غنَّيـــتي الْبـــال
مـــن كثـــر مـا بِـــيَّ تنوحـــين»

فقالت:

«فـــي الدَّار ما خَلّـــوا لـــي ظِـــلال
الغـــاف طاحـــوا بـــه بخصّـــين»

قال:

«لوفي «علـــي» واشكـــي لـــه الْحـــال
وامّـــا بـــدا بـــك لا تغبّيـــن
وان قـــال لك مأْمونـــه الـــدَّار
ابْـــني عشيشـــك ويـــن تبغيـــن
فـي الدَّار حَطّـــوا شرْطـــي «هـــلال»
وانـــتي امّـــرّه لا تخافيـــن»

قالت:

«مـــا حَـــد ياخـــذ عَ البـــدو حـــال
وأخـــاف مـــن أهْـــل السكاتـــين»

قال:

«مـــن عقَّـــب هَـــذي مـــا لك مُجـــال
إلا أن بغينـــا بآتمّـــين
لا اتّابعـــين اشـــواربهّـــال
اتشـــلك الوزفـــه وْتجـــفين
بتعذّبـــين عْيـــالك صغـــار
منّيـــه لْـــين هناك تمشـــين»[16].

### عود المجيلة

كانت الشاعرة موزة المهيري تحب شجر «الغاف»، وكان الجميع يعرفون ذلك، وفي يوم أراد الشاعر راشد بن سيف تحفيزها لتكتب قصيدة، فأخبرها أن السيول اقتلعت شجر الغاف «العود» فكتبت قصيدة «عود المجيلة» التي تعبر فيها عن حزنها على فقد شجرها المفضل، تقول:

«راح وينـــه عـــود لِمجيلـــه
لـــي مديـــم وبـــارد ظلالـــه
يـــاه ريـــحٍ شلّـــه بسيلـــه
وآزمـــت لِعيـــون همّالـــه
قلـــت أنـــا روحـــي بَرَوّيلَـــه
جـــاد ينقـــض عـــود م الهالـــه»[17]

- وتمتدح الشاعرة «الغاف» وسماته الجمالية وتعدد فوائده، فهو يزين رؤوس الجبال، ويلجأ إليه الناس للراحة في ظلاله، وتقول:

«كـــم لـــي حلـــوه ميادیلـــه
لـــي حِســـين وزيـــن لِجبالـــه
وكـــم غـــرٍّ جابـــع بشيلـــه
قـــد ليـــا وانـــزاح فـــي ظلالـــه»[18]

- وللغاف حضور في المناسبات الاجتماعية، ومنها حفلات الزواج، فعند زواج الشيخ محمد بن صقر القاسمي عام 1934، أُقيمت وليمة الغداء في منطقة الخبيصي تحت ظلال أشجار الغاف، وبهذه المناسبة ألقت الشاعرة هداية الساكوب قصيدةً تقول فيها:

«محـــروزيـــا غـــاف الخبيـــصي
واليـــوم ترتـــع فيـــك غـــزلان
ربـــعٍ لقيتـــه فـــي فريجـــي
يملـــة عـــرب وشيـــوخ م الخـــان
الزيـــن عندنـــا مستفيـــجي
وألباسهـــم مـــن غالـــي أثمـــان»[19]

- وفي قصيدة أخرى تمتدح هداية الساكوب غاف الخبيصي، وترسم لوحة شعرية بهيجة الألوان ترتدي فيها دبي ثوباً جديداً، فيسقط فيها المطر، وتفيض الغدران، وتغني الطيور، وتمتد أشجار الغاف مدّ البصر، وتقول:

«طـــاح المطربـــش الأجاويـــد (الأياويد)
يوم المـــلا هجعـــين ورقـــود (هيعـــين)
ودبـــي لبســـت دلٍ جديـــد (يديد)
يلظـــى عليهـــا البـــارق العـــود
غدرانـــه تفيـــض من الـــزود

يصبـــح عليـــه مشّـــرف الغيـــد
غـــاف الخبيـــصي ظـــل ممـــدود
والطيـــر غـــنى بالتزغـــريـــد
فـي شـــف مـــن يزهـــي بالحـــذْود»[20]

- ولشجرة الغاف وجود في الفنون البحرية، حيث وردت على ألسنة النّهامين الذين يقودون البحارة في غناء جماعي لتحفيزهم على العمل، ومن ذلك هذه الأهزوجة الشعبية التي تمتدح الظل في رحاب الغاف:

«يـــا محـــلا بـــراد القيـــظ
يحـــلا بظلـــة الغافـــة
يا خـــوي الشّتـــا مغثّـــة
يبغـــي لبـــس ولحافـــة»[21]

وهكذا حركت شجرة الغاف بما تحمله من قيم وذكريات قرائح الشعراء، فكتبوا فيها العديد من القصائد التي تفيض بالوصف والرمز والتأويل، وقد حظيت هذه الفكرة الشعرية على دفعة كبيرة، بالاهتمام الرسمي والشعبي من ناحية، وبوصية المؤسس من ناحية أخرى، ذلك كله ساعد على تكوين موضوع شعري، سينمو لا شك بمرور الزمن ويزداد رسوخاً وقوة، ليكون غرضاً شعرياً جديداً يحرك الماء الشعري، ويضفي المزيد من الإبداع على الشعر العربي ■

صحفي وباحث مصري

الهوامش والمصادر:


1. معلقة عنترة بن شداد: موقع الديوان: www.aldiwan.net
2. هيئة البيئة - أبوظبي: www.ead.gov.ae
3. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية في القاهرة، الطبعة الخامسة، 2011.
4. لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، 2016.
5. بيت لامرئ القيس ورد في متن العديد من المعاجم مثل: «لسان العرب»، لابن منظور. و«تاج العَرُوس»، لمرتضى الزبيدي، طبعة الكويت، 2006.
6. لسان العرب، ابن منظور، ج 9، ص 128.
7. معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي، ج 4، ص 183.
8. المصدر السابق نفسه، ص 183.
9. «الغاف مصدر الصمود ورمز الاستقرار»، مركز جمال بن حويرب للدراسات: www.jbhsc.ae
10. تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، ج 4، ص 594.
11. لسان العرب، ابن منظور، ج 9، ص 273.
12. لسان العرب، ابن منظور، ج 9، ص 179.
13. «شجرة الغاف.. رمز الصمود الصحراوي في الإمارات وشبه الجزيرة العربية»، وام، 2 إبريل، 2011.
14. «معجم الغاف في دولة الإمارات»، سلطان العميمي، أكاديمية الشعر، 2020.
15. الغاف الشجرة الأثيرة لدى الشعراء، محمد عبد السميع، مجلة «الحيرة»، العدد 17، يناير 2021، ص 60.
16. المصدر السابق نفسه، ص 61.
17. ديوان الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري، إعداد وإشراف شيخة الجابري، نادي تراث الإمارات، 2022، الطبعة الثانية، ص 59.
18. المصدر السابق نفسه، ص 59.
19. «الموروث»، مبادرة معنيّة بتوثيق الموروث الشفاهي في الإمارات، تويتر.
20. المصيف والمطر في شعر هداية الساجوب، عبد الرحيم الأحمدي، صحيفة الرياض، 13 نوفمبر 2014م، العدد 16943.
21. «الغاف .. في إماراتي»، صحيفة «البيان»، 1 مارس 2014.

# موتيف النخلة الأيقونة والإشارة والرمز في التشكيل البصري الإماراتي

محمد فاتح صالح زغل

أطلق مركز أبوظبي للغة العربية، التابع لدائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، سلسلة كتب تحت عنوان «الفن الإماراتي - رواد بيننا». وقد تعاون المركز في هذه السلسلة مع خمسة فنانين تشكيليين إماراتيين، وتتكون السلسلة من خمسة كتب ترصد التجارب الفنية في الفن التشكيلي الإماراتي والخط العربي، وتسليط الضوء على تجارب مجموعة من أبرز الفنانين، وهم: الفنان عبد القادر الريس، والفنانة د. نجاة مكي، والفنان عبد الرحيم سالم، والفنان د. محمد يوسف، والفنان محمد مندي.

وتمثل الكتب الخمسة مرجعاً فنياً فريداً من نوعه من حيث الشكل والتصميم والمحتوى، إلى جانب تناولها لأبرز إنجازاتهم وأعمالهم وإبداعاتهم التي شكّلت مسيرتهم الفنية التي كان لها بالغ الأثر في الساحة الفنية المحلية والعالمية، ودعمت بناء هوية فنية وطنية متفردة شكّلت مسيرة الفنون الإبداعية في الدولة.

ويحمل كتاب الفنان الإماراتي عبد الرحيم سالم عنوان «كم من الألوان في الأسود؟».

كما تشمل السلسلة كتاباً عن الفنانة الإماراتية د. نجاة مكي، بعنوان: «يوم بعد لون». ومن ضمن إصدارات المبادرة كتاب عن الفنان الدكتور محمد يوسف علي، بعنوان: «نحات الذاكرة»، كما تضم كتاباً عن الفنان الإماراتي عبد القادر الريس، بعنوان: «روح البدايات»، بينما يرصد الكتاب الخامس في المجموعة مسيرة الفنان محمد مندي، في إصدار يحمل عنوان: «رحلة قلم وخط ورسم». وتتضمن الكتبُ مقدّمةً فنية نقدية عن تجربة الفنان، إلى جانب مجموعة كبيرة من صور لوحات أو رسوم أو منحوتات تغطي مرحلة مهمة من حياة الفنان، بالإضافة إلى سيرته الذاتية والفنية والمعارض التي شارك فيها.

د. نجاة مكي

محمد يوسف

محمد مندي

عبد القادر الريس

عبد الرحيم سالم

## موتيف النخلة

رسم الإماراتيون هذه الوحدة الزخرفية منذ نشأتهم بدءاً من رسمها على الرمال إلى رسمها على واجهات بيوتهم الطينية إلى دفاتر صغارهم في المدارس، إلى تجسيدها في المشروعات السياحية والحضارية كمشروع جزيرة النخلة في دبي، إلى استحواذ الفن التشكيلي عليها وبخاصة عند الفنان الدكتور محمد يوسف علي الذي أولاها مكانة بارزة من حيث التشكيلات المتعددة كما ظهرت في كتابه «نحات الذاكرة». لقد تربّعت النخلة كأيقونة محببة في ذاكرة الإماراتيين على وجه الخصوص رغم وجودها في أماكن أخرى في البلاد العربية أو حتى العالمية؛ غير أنها تتمتع اليوم بمكانة قوية في قلوب أهل الإمارات، وكما سنرى، فإن موتيفة النخلة ترتبط بالنسبة إلى الإماراتيين الأكبر سناً، بذكريات طفولتهم؛ لذا فهي مكان حافل بالحكايات الأسطورية أيضاً.

## أيقونة أم إشارة أم رمز؟

تعتبر هذه المصطلحات الثلاثة «الأيقونة والإشارة والرمز»، نوعاً من العلامات بوصفها أسلوباً لدراسة الثقافة البصرية وشكل العلامة (النخلة) والارتباط بين الدال والمدلول. فالأيقونة النخلة تشبه العلامة الإرشادية، فرسم النخلة يعد أيقونة لأنها تشبه النخلة مادياً، أما الإشارة فكما أن الدخان هو إشارة عن النار لذا، فإن رؤية نخلة في الصحراء يمكن أن يكون إشارة عن وجود حياة بشرية في هذه المنطقة، ما يعني أن هناك أشخاصاً يعيشون هناك. ويمكن أن يشير رسمٌ لعناقيد البلح والسّعف بالمثل إلى نوع معين من النّخيل.

أما الرمز فهو شكلٌ من العلامات يرتبط بما يدلّ عليه طبقاً لمبدأ العقل الذي يستخدم الرمز، ولا يمكن أن يكون موجوداً من دون هذا النوع من الترابط، لذلك، يمكن أن تكون صورة النخلة رمزاً للصحراء أو أن ترمز إلى مشاعر التذكر، ونمط حياة الناس فيها.

تمّ استخدام رمز النخلة بطرق مختلفة في فنّ التزيين، ليس في الإمارات أو دول الخليج العربي أو في الشرق الأوسط فحسب،

ولكن في الأجزاء الجنوبية والشرقية من أوروبا أيضاً. فقد تم استخدام أوراق النّخيل بوصفها رمزاً في الأعياد في مصر القديمة، وبوصفها زخرفة في أواخر عصر النهضة.

إن الأهمية الرمزية العظيمة لسعف النخيل، بوصفه رمزاً للسلام الأبدي، قد ضمنت له مكاناً في الفن الحديث.

## رمز النخلة في السياقات الثقافية المختلفة

ارتبطت النخلة التي هي من التراث المادي البيئي في المجتمعات الخليجية قاطبة والمجتمع الإماراتي بشكل خاص بالتنشئة الاجتماعية وبمعاني الخير والخصوبة والجمال والظل كما تشير النخلة إلى المكانة الاجتماعية التي ارتبطت بشخصية الإنسان الإماراتي والهوية الشخصية لصاحب النخل. تعد النخلة وحدة زخرفية تراثية دلالية ذات معنى بوصفها منهجاً لتوضيح بعض المعاني والدلالات والمفاهيم المختلفة التي تعبّر عنها باستخدامها عَبْر مفاهيم عدة في الزخارف التراثية سواء بالنظر إليها كأيقونة أو باعتبارها إشارة إلى شيء أو باعتبارها رمزاً تحيل إلى الحياة لمكانتها في الثقافة الشعبية الإماراتية، وإبراز خصائصها الجمالية والأشكال التي يتم تصنيعها سواء من خشب النخلة أو من أوراقها كما تظهر في الثقافة البصرية الشعبية. وتعد الإمارات واحدة من أكبر تجمّعات أشجار النخيل في العالم، حيث يتجاوز عددها 50 مليون نخلة وهذه المكانة اللائقة للنخلة سهر عليها المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد مؤسس نهضة الإمارات وبانيها، رحمه الله، بحيث أصبحت رمزاً لا يخلو أي بيت إماراتي منها الذي خصص في معماريته لها مساحات طبيعية ودافئة في الديكور الخارجي والداخلي للبيت الإماراتي. تتيح النخلة بعناصرها الجمالية مساحة واسعة تلهم الفنان الشعبي رؤية مختلفة عن تلك التي يراها الإنسان العادي فأوراقها التي تكون على شكل أوراق ريشية تشبه خصلات الشعر، أو تكون على شكل مراوح أو تكون واسعة وممتدة مثل الأصابع إضافة على ما تحتويه معظم أنواع النخيل من جذوع أسطوانية طويلة تكون إما ملساء وإما بها وخز معقوف. وربما بنموها المنتصب قد منحت الفنان الإماراتي رؤية مختلفة حيث شبهها بالرجل الصالح الذي لا ينحني ولا يخالف مبادئه وهذا متعمق في الثقافة الأخلاقية الإماراتية والسلوك الإماراتي. ورغم مرونة هذه الشجرة؛ فإنها لم تعرف الانحناء أو الكسر، وهذا يرمز بدوره إلى قدرة الرجل الإماراتي على التكيّف حتى عندما يواجه ثقل مشكلات الحياة وتحدياتها.

## تجربة التشكيلي الإماراتي محمد يوسف

تعتبر تجربة الفنان التشكيلي الإماراتي محمد يوسف علي في تعامله مع النخلة كأيقونة وكرمز ودلالة تجربة مميزة ما يجعله صوتاً متميزاً في الفن التشكيلي باعتماده على النخلة ومكوناتها باعتبارها وحدة زخرفية متكاملة قدمها بسياقات مختلفة من شغف الطفولة بالطبيعة إلى تمثلاتها في الثقافة الشعبية الإماراتية باعتبارها خلاصة لوعي الإنسان الإماراتي الجمالي، حيث استخدم عناصر من الطبيعة ومزجها وجعل منها وحدة زخرفية مستمدة من الطبيعة الإماراتية. هذه العودة إلى الطبيعة يقول الفنان: «قادتني إلى التحرر من أساليب الوسائط التقليدية؛ إذ لم أعد محصوراً في فهم الفن كتصوير أو لوحة أو رسوم ذات بعدين، لقد تحررت من ذلك، انفتح ذهني على آفاق جديدة من أعمال الفراغ والمجسمات».

إن جلب النخلة من البيئة الإماراتية التي تستند إلى موضوعات سيرية وحكائية وتراثية وشعبية تعبّر عن الإنسان ومعاناته اليومية والحياتية وعن ظروف التحول الاجتماعي التي واكبت طفرة النفط، وقد أبدع الفنان الإماراتي في إيصال النخلة لتكون

ضمن الفنون التركيبية تحفز المتلقي لاستخدامها كوحدة زخرفية تراثية. بيئة مشهدية بصرية جلبها الفنان الإماراتي من بعض رموز تراثه وجمالياتها ببساطتها حيث الحنين والسكينة أو لقاء الزمن الضائع مع الزمن المفقود. في الإمارات في أسواقها القديمة وحاراتها الشعبية، جنباً إلى جنب مع الحداثة والتطور العمراني والسياحي والأزياء.. أَنَّى ذهبت، تجد الرموز الشعبية الزخرفية (عين الحسود، النخلة، الشعر والحروف، آيات الله، بيوت النخل، الجرات الفخارية، والمشغولات النسائية الجميلة، وغيرها) ذاكرة شعب، ذاكرة فنية غنية، وذاكرة فنان تسافر عبر ذاك الزمن الجميل، كما لو كان المتفرج في سوق شرقي مأخوذاً بمفرداته الحميمية. هكذا تسافر ذاكرة الفنان التشكيلي محمد يوسف إلى هذا التراث فيعيد تشكيلها بإطارات ولوحات زخرفية متنوعة ومتشابكة تشكل نسيج اهتمامه الفني وتجذره مثل بساط جميل فالنخلة بمكوناتها كلها تضفر فيه. الحبال والأخشاب، والسعف والأغصان، والجذوع وهي تتطاول إلى الأعلى أو بتمددها عبر الأفق تقول للرائي: انظر إلى هذه التشكيلات الزخرفية الجمالية التي ترسم عوالم الحنين والشجن. هذه المقدرة البصرية نبعت من قدرة النخلة الفيزيائية على التواصل مع عين الإنسان من زوايا مختلفة ما شجع الكثير للاستدلال بها ورسم خرائطهم الذهنية للمناطق التي يعيشون بها. ومع الزمن أصبح هذا العنصر دليلاً مادياً على مكانة الأسرة الاجتماعية بعد أن أصبحت النخلة ذات تكوين بصري زخرفي. ما يؤكد ما للرموز البصرية من قيمة كبيرة ومقدرة فائقة على المقاومة والاستمرار. الانتماء له أرض وله هوية، وهو سؤال أكثر منه جواب عن حياة فنان، لأن الكل فيه ويشارك به، ويتجسد عبر الأشكال التشكيلية والزخرفية، إنها الاستكشاف غير المنتهي ■

أكاديمي وباحث في التراث

# سعيٌ نحو الزهور الربيعية

لولوة المنصوري

**في الربيع يكبر ارتباطنا بسرّ هذه الأرض وبالريّ الذي يأتي من السماء، كانت زهرة المراعي سر الجاذبية والوصال، تآخينا مع الطبيعة وكان رابطنا وجدانياً قائماً على الشوق والتسامح مع الفقر والحزن وضيق الحال، كانت المراعي هي مدرستنا الوحيدة، والانتظاروتأمل النموالبطيء هودرسنا الوحيد، فما إن يسقط المطر الربيعي ويأتي موسم التكاثروالخصوبة حتى نتسارع في الخروج من كل شيء، بدءاً بالخروج من ثقل الجسد. ثمة تعاليم في الأرض درسها الأول هو الانتظار، انتظار كرامات الماء.. انتظارنشوء الحب بين الأشياء، انتظارتزاوجها، انتظار حصادها، انتظار ذوبانها في اللّب، انتظار السواعد الجبلية، انتظار العمل، انتظار الصلاة، وانتظار أثر الإيمان. تهيدة الزهور البرية في فضاء قاسٍ هو تعبير أول لمنازل العرفان للخلاص من المعاناة، إن الإبداع يولد من رحم المعاناة، والزهور إبداع يفيض من حرمان الأرض.**

انجراف حاسم لصفاتها وشكلها ومواطن اجتماعها، وللإنسان الإماراتي قدرة تخيّل الأسماء وإطلاقها على كل زهرة ونبتة، مانحاً لها فوارق رمزية أقرب إلى عذوبة وبساطة اللهجة المحلية واللغة البيئية المعاشة، لكل نبتة أكثر من اسم، ومن النادر جداً أن يكون للنبتة الواحدة اسم متفق عليه، ويعود اختلاف المسميات ربما إلى اختلاف المناطق والقبائل والهويات المارة على أرض الإمارات منذ زمن القوافل التجارية والرّحلية. لسنوات طويلة مثّلت الجبال والسهول بالنسبة إلى الإنسان الإماراتي القديم صيدلية مفتوحة ومملوءة بالثروة الصحية، فما إن شعروا بألم في موضع ما من الجسد، عثروا على دواء له من موقع قريب أو ناءٍ. تلك الزهور التي أعنيها في هذه المادة يكون المطر ماؤها الوحيد لكي تنمو بجمال طبيعي، كان البحث عنها يسيراً بعض الشيء في هذا الموسم، مئات الأنواع، إذ لا يمكن حصر العدد في ربيع واحد أو ربيعين. عطرها الناهض في الأجواء هو المرشد الواثق على منابت النضج والتكون ومكامن البعث من جديد، إنها تنمو في كل مكان ما بين شهري فبراير ومايو، وبعضها من يناير إلى إبريل، وتنتعش الأمكنة بها، في مجرى الينابيع وعلى أطراف الأفلاج وفي ثقب جدار متهالك، بين شقوق الحجر الصلد، بين الطابوق المرصوف أمام البيت، وفي فجوة إسفلت الشارع، ويدهشك النمو حتى بين ثغور جذع النخل الذي هوى على الأرض ومات منذ سنين فجرفه السيل إلى رأس الوادي الكبير، تماماً مثل صورة ذلك الجذع في (وادي الخب) في قرية (الطويين الجبلية)، على ذلك الجذع الميت ما يستحق الحياة، إنها الصورة الأكثر ذهولاً في جولة التصوير. بدت رحلة عفوية مع الريح الخاطفة، بحثاً عن الزهور والأسماء.



في الزهور تنمو حياة بأكملها، كل شيء هناك ممكن الحدوث ما بين البتلات والميسم والساق والجذور، كون عظيم داخل زهرة تتسم بالرحابة العطرية، غمرتني رائحة النمو في منحدرزلق لوادي السّدر الواقع على طريق مسافي مروراً بقرية (طيبة) الشهيرة بآبار المياه العذبة، كانت الحصيلة تصويرزهريّ: الناب والطقيقة.

## طقيقة

تنحدر هذه الزهرة على جوانب التلال والأودية والجبال، وعلى ارتفاع منخفض إلى متوسط، شكل زهرها المضموم يذكرنا بجنين مضموم في رحم، تميل إلى اللون الأبيض أو الزهري الفاتح وعليها زغب خفيف، سيقانها معقدة التفرع، النورة تتجمع في تكتلات كثيفة على أعناق تخرج من عقد الأوراق، الأزهار دقيقة تتكون من 5 بتلات تقريباً، أنبوبها زهري قرنفلي اللون، يخرج من كأس قرنفلي يشبه الوسادة المخملية.

## الذنب أو ناب

زهرة تشبه زهرة أخرى تسمى (سيف الجن)، وجدتها تزهر في السهول الحصوية في الطريق ما بين مسافي ودبا. ويقال إنها تزهر في الجزر البعيدة عن اليابسة أيضاً! أوراقها منقسمة بعمق 3 فصوص مموجة، الأوراق السفلية عند قاعدتها متقاربة وتشبه الزهرة، النورة عبارة عن سنبلة طرفية وعطرية، الثمرة أشبه بعلبة بيضاوية عريضة لها أربعة أسنان عند القمة.

## الحميض

وفي يوم آخر كان المنحدر يصعد بي نحو قرية تحيطها الجبال الشاهقة من كل جانب، عدا الجهة المؤدية إلى دبا، جهة البحر، حيث كانت هناك لوحة إرشادية تشير إلى قرية زراعية شبه عصرية وسط الطبيعة الساحرة، اسمها (الحلاة)، تنمو فيها زهور الربيع بكل إذعان، فكان نصيبي منها التقاط صورة لزهور (الحمّيض).

احمرار مبهج يلتف على طراوة الأخضر الناصع، نبتة محببة في الإمارات، تولد بعد تساقط الأمطار، تزهر على جوانب التلال والأودية في جبال الحجر ورؤوس الجبال، للأوراق طعم كالليمون الحامض، سبيل للخلاص من غثيان الأمهات الحوامل في فترة وحامهن، لها قامة مدببة وقاعدة كاملة مثل رأس الرمح، وسيقانها

زهرة الحميض

الطقيقة

الذانون

متفرعة عند القاعدة، والأزهار مدلاة على أعناق رفيعة كالأجراس الصغيرة، والثمرة لها أجنحة كبيرة ورقية لونها أحمر زاهٍ عليها تعرّق شبكي.

### كرنب الصحراء

يسمى أيضاً (سلح، سليح) ويسميه بعضهم (الحلا ورد)؛ يجذبك لونه البنفسجي الصافي، له حضور سحري كثيف في الأرض، وخاصة إن كان ينمو جماعياً بين فراغات الأشجار وممرات المزارع وطين برك الأمطار، وهي زهور عطرية لامعة في ذروة الشمس، خجولة تحت ظل الغيم، ذات عناقيد طرفية كثيفة أو مبعثرة على طول الأفرع العليا، أوراقها ثلاثية ذات زغب وغدد ملساء، بها عرق طولي وتخصرات بين البذور، إنها الشكل الأمثل لجسد صبيّة أو امرأة لم تنجب بعد. وقد تنمو على ارتفاعات جبلية تصل إلى 1200 متر، تحتمل تيارات الرياح وتشق الأرض الحجرية بصعوبة بين أودية الجبال ورؤوسها، ويحدث أن تنهض في أرض منخفضة بين أعشاب الخبيز والسلك بهدوء ودعة وأمان. التقطتُ لها صوراً في أرض الفحلين والحيل وعلى جانبي وادي جيس وسهل جبال ينس وفي الحقول الجبلية مثل وادي حقيل في منطقة شمل في رأس الخيمة.

### نويله

الأزهار خضراء مصفرّة محمولة كأجنّة متكوّرة على نفسها في سنبلات تخرج من عقد الأوراق أو طرفيه، كانوا يستخرجون من جذوره عصيراً أزرق اللون يستخدم كصبغة، كما تحوي البذور على مواد زيتية. تنمو هذه الأيام في السهول الحصوية والأودية القريبة من منحدرات جبال الحجر وعلى حافة واحات الساحل الشرقي، قاعدة النبتة متخشبة ولها سيقان غزيرة التفرع.

### النوّير

سيدة زهور الربيع، تشرق مثل نور الشمس، تتفتح أزهارها عند الشروق، وتنغلق عند ارتفاع آخر شعاع، لها رائحة تشبه رائحة البرتقال، ولا تشم إلا من قريب، إن لَمستها، يفضحك إصفرارها على أصابعك كعلامات توكيدية بانجذابك اللا إرادي نحوها، التربة الرملية هي الأمثل لاحتوائها، وتنتشر كالبساط الأصفر على رقعة واسعة من رمال دولة الإمارات العربية المتحدة، رأيتها بشكل مكثف في رأس الخيمة، تحديداً في (الحمرانية والخران والظيت) وتنتشر في واحتي (الذيد والعين) أيضاً، ولا تقهرها الحداثة، فلا عجب من انتعاشها بين ممرات وعتبات وأزقة البيوت العصرية.

### كوثر

زهرة في منتهى الصغر، ما إن ترفع درجات الزّوم لعدسة التصوير حتى تبدو أمامك أشبه بالزنبقة البيضاء، تلك المنتشرة على جبال القوقاز وأوروبا الشرقية. تومئ في جبالنا الشرقية بالنقاء والعفّة والتديّن، وتجذبك تلك الهالة الروحانية المحيطة بها إن كانت تنمو وفق رفيقاتها من العائلة الزنبقية. لها مسميات محلية أخرى مثل: (كويتة، برواق، بروق...)، والمثير أن بعض العائلات من بدو الجبال كانوا يغمسون دقيقها مع الحليب الرائب لصنع الكعك الجبلي الجاف أو بعض أنواع الجبن.

### الذانون

حين يأتي المدّ من البحر تتنفس ويكتمل استعدادها للنموّ، وما إن ينحسر البحر تنبثق زهراتها الصفراء كالأجراس أو الأبواق. إنها بهجة الربيع المائي. وتسمى (ثانون، هالوك) أيضاً، هناك جماعات كبيرة منها أزهرت في تربة ملحية لزجة قرب أشجار القرم على ساحل الإمارات، يستطيل ساقها عند النضج، ومغطى بحراشيف عبارة عن أوراق مختزلة جافة، أما (الزهرة) فهي أسطوانية تتلون من عند الأزهار المتباهية. إن هذه النبتة منتشرة على سواحل الخليج، تصل إلى صحراء سماوة في العراق، ويسمونها هناك بـ(الهليون)، نبتة طينية وملحية، نبتة تحتاج إلى أرض رخوة، وكانت في السنوات القديمة جداً تزرع من وسط العراق حتى جنوبه. هي نبتة ليست ربيعية ولا طارئة في النشوء، بل هي معمّرة من سلالة متطورة زمنياً، أحببت أن أضيفها هنا لغرابتها، ولعل قولنا (تربة رخوة) هو الوصف الدقيق للأرض التي تنبت عليها في الإمارات، والمدهش أن هناك قواقع وكائنات رخوية تزحف من الشاطئ قاصدة رائحة هذه النبتة. استعملت في دولة الإمارات لعلاج الجروح والقروح وعلاج الجمال الجرباء، واستعملت أزهارها في غسل الشعر ومنحه رائحة طيبة، كما كانت توضع في ماء الغسيل لإحداث رغوة صابونية من شأنها أن تسهل تنظيف الغسيل وتطييبه.

### «الهندبة» البيضاء

تسمى محلياً (جعضيض أو دالوين) تنمو أحياناً مجاورة للنوّير، في السهول الطينية أو الحقول والمزارع المهجورة، وعلى أطراف الحدائق أو في تربة البيوت السكنية، يستعمل منقوع جذورها وأوراقها خافضاً للحمى، أما السيقان، فلها مفعول التهدئة.

### شوك الجمل

زهرة نسوية بامتياز، طولية شعاعية وأنبوبية، كروية الشكل ذات أشواك طويلة، ولتحصل المرأة على البذرة الفقيرة في هذه الزهرة تلجأ إلى كسرها بالحجر وتنظيف الرأس من الأشواك، ثم تمضغ سائلها المعزز للهدوء والراحة من آلام الطمث. تم العثور على هذه الزهرة في أحد أخاديد وقرى مسافي الواقعة بعد المنطقة الزراعية (اعسمه) التابعة لإمارة رأس الخيمة ■

روائية وباحثة من الإمارات

نويله

سلح، كرنب الصحراء، حلا ورد

شوكة الجمل، الحنق

كرنب الصحراء، سلح

كوثر

ناب ، ذنب

الهندبه البيضاء

# الأشجار والمجتمعات المستدامة: إطلالة كونية

صديق محمد جوهر

**منذ أن وضع الآباء المؤسسون اللبنات الأولى لبناء دولة الإمارات العربية المتحدة انصبّ اهتمام الدولة على الزراعة والتشجير ومقاومة التصحر. لقد تحدى مؤسس الدولة الشيخ زايد بن سطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - آراء الباحثين الذين ادّعوا أن التربة في أماكن معينة من الدولة لا تصلح للزراعة، وبفضل إيمانه وإصراره صُنعت المعجزات الزراعية في السعديات وفي مناطق أخرى عديدة وزُرعت أشجار النخيل والتمور وغيرها من الأشجار المثمرة في جميع أنحاء البلاد. علمياً تلعب الأشجار دوراً حاسماً في الحفاظ على حياة البشر والكوكب، وأظهرت العديد من الدراسات أن وجود الأشجار خاصة في المناطق الحضرية يمكن أن يحسّن الصحة العقلية والجسدية للناس ويساعد الأطفال على النمو في بيئة صحية حيث تعمل الأشجار على تبريد المراكز الحضرية وتخليص الأجواء من الغازات والعوادم الضارة. ومن هذا المنطلق تُعد الأشجار ضرورية للمجتمعات البشرية في عهد ما بعد العولمة حيث تساعد الفوائد التي توفرها الأشجار سكان المدن المعاصرة على تحقيق العديد من أهداف الأمم المتحدة للتنمية المستدامة ولذلك يجب على الخبراء الاستراتيجيين ومخططي المدن والمطورين العقاريين والقادة اعتبار الأشجار جزءاً لا يتجزأ من جغرافية مدن المستقبل.**

يجب الاهتمام بزراعة الأشجار والحفاظ عليها خاصة في عصر ما بعد العولمة حيث تعرضت البشرية وكوكب الأرض للعديد من التداعيات السلبية الناجمة عن التلوث والاحتباس الحراري وذوبان الثلوج وثورات البراكين وحدوث الزلازل والفيضانات وغيرها من الكوارث الطبيعية التي نجمت عن تغير الأنظمة البيئية التي كانت تحفظ للكوكب توازنه. بالإضافة إلى ذلك أصبحت غالبية سكان العالم يعيشون في المدن الحديثة المكتظة بالسكان؛ وتلبية لاحتياجات الناس في عالم متغيّر أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة أهداف الأمم المتحدة للتنمية المستدامة في سبيل تحسين نوعية الحياة على كوكب الأرض، حيث تحدد هذه الأهداف العامة أكبر التحديات التي تواجه البشرية في عصرنا الراهن، ومن الاستراتيجيات الفعالة للمساعدة في تحقيق هذه الأهداف زراعة الأشجار وحمايتها، خاصة في المدن التي يعيش فيها غالبية الناس.

للأشجار فوائد جمة فهي تعمل على تعزيز الصحة والرفاهية الاجتماعية عن طريق إزالة تلوث الهواء وتقليل التوتر وتشجيع النشاط البدني وتعزيز الروابط الاجتماعية بين البشر. لقد أثبتت الدراسات أن الأطفال الذين يعيشون في مناطق تنتشر فيها الأشجار هم أكثر قدرة على النبوغ والنجاح في الدراسة. وتعمل الأشجار المثمرة على تعزيز الاقتصاد في المدن وخارجها ويمكن أن توفر العديد من الموارد للأشخاص الذين يبحثون عن عمل، وبينما تزداد حرارة المدن في ظل كثرة النفايات والغازات الدفيئة يمكن للأشجار أن تقلل من درجات الحرارة في المناطق الحضرية على وجه الخصوص علاوة على أنها توفر الموائل والغذاء للحيوانات العاشبة. وفي سياق متصل تُشكل الأشجار بنية تحتية خضراء قيّمة لإدارة مياه الأمطار والسيول. إن الأموال التي تنفقها الدول على زراعة الغابات خاصة في المناطق الحضرية لها عائد مرتفع على الاستثمار حيث تشير الأدلة الدامغة الواردة في البحوث العلمية إلى أن الاستثمار في الأشجار هو استثمار في تحقيق أهداف التنمية المستدامة للأمم المتحدة علاوة على أنه استثمار من أجل عالم أفضل.

يؤدي التغير المناخي في الوقت الراهن إلى ظهور عدد متزايد من التحديات المباشرة وغير المباشرة التي تؤثر بشكل كبير في صحة ورخاء الناس والكوكب. بالإضافة إلى ذلك فقد تسبب ارتفاع مستويات المياه في المحيطات لعدد غير مسبوق من الكوارث البيئية المرعبة في ظل تزايد عدد السكان في المناطق الحضرية. وبحلول عام 2050، سيعيش معظم سكان العالم (70٪) في المدن وفق تقرير (منظمة الأغذية والزراعة، 2016). وتواجه هذه المجموعات السكانية المتركزة في المدن تحديات هائلة أهمها عدم حصول الأشخاص على المياه النظيفة علاوة على الإشكاليات الصحية المرتبطة بالتلوث البيئي؛ ولذلك يحتاج سكان المدن المستقبلية إلى حلول تتسم بالكفاءة والفعالية لمواجهة تحديات هذا العصر. وفي عام 2015 حددت الأمم المتحدة أهدافاً عدة للتنمية المستدامة تبشر بتحسين نوعية الحياة لمليارات الأشخاص على كوكب الأرض ومن أهمها الحفاظ على الأشجار والنباتات ومحاربة التصحر ومنع تدهور التربة الزراعية. وإحدى الطرق الإضافية لمواجهة التحديات التي يواجهها سكان المناطق الحضرية هي تزويد الناس بالمساحات الخضراء وزراعة الأشجار وصيانتها وحمايتها حسب دراسة (معهد الموارد العالمية، 2018). لقد أشارت الدراسة نفسها إلى أن زراعة الأشجار يمكن أن تزيد من رفاهية غالبية سكان العالم، وتندرج فوائد الأشجار وفق الدراسة تحت خمس فئات: (الصحة والرفاهية الاجتماعية) و(التنمية المعرفية والتعليم) و(الموارد الاقتصادية) و(التخفيف من آثار التغيرات المناخية) و(توفير

البنية التحتية الخضراء) التي تتيح لسكان مدن المستقبل والمجتمعات المستدامة رفاهية الوصول إلى الغابات الحضرية والمساحات الخضراء كافة.

ومن أبرز الفوائد العلمية للأشجار في المناطق الحضرية - والمتوافقة مع أهداف الأمم المتحدة للتنمية المستدامة- تعزيز الصحة العامة والرفاه الاجتماعي حيث تعمل الأشجار على تعزيز الصحة البدنية والعقلية لسكان المدن ومن ثم تدعيم الروابط المجتمعية والتقليل من معدلات الجريمة والحد من التلوث ونشر روح السلام والتسامح بين البشر وزيادة النشاط البدني والحد من انتشار العنف والنزعات العدوانية وتعزيز التنمية المعرفية والتعليم، ويؤدي وجود البيئة التي تنتشر فيها الأشجار إلى زيادة قدرة الطالب على النجاح واجتياز المراحل الدراسية بالإضافة إلى تعزيز جودة التعليم. إن وجود الأشجار يؤدي إلى تحسين أداء الطلاب والانضباط الذاتي والحد من التوتر وزيادة التركيز وتقليل أعراض بعض الاضطرابات، مثل: نقص الانتباه وفرط الحركة. ومن ناحية أخرى فإن وجود الأشجار بأنواعها كافة يدعم الحركة السياحية ويعزز الاستدامة الغذائية.

ومن أهم الفوائد التي يمكن أن توفرها زراعة الأشجار والغابات

الحضرية لصحة الإنسان هي تقليص تلوث الهواء والحد منه ويرتبط تلوث الهواء بالغازات ذات التأثير السيء على طبقة الأوزون علاوة على الهيدروكربونات العطرية متعددة الحلقات وأول أكسيد الكربون وثاني أكسيد النيتروجين، وثاني أكسيد الكبريت، وما إلى ذلك من الغازات الضارة التي تتسبب في الإصابات بأعراض الشُعب الهوائية، وزيادة ضغط العين (الذي يؤدي إلى الجلوكوما)، وضعف عضلة القلب (ما يؤدي إلى حدوث النوبات القلبية) علاوة على تأثير هذه الغازات في وظائف الأوعية الدموية اللاإرادية والدقيقة وعلاقاتها المباشرة بمرض التوحد وأمراض ضغط الدم، ومشاكل النمو المعرفي لدى الأطفال ومشاكل سلوكية أخرى مثل أعراض اضطراب نقص الانتباه (فرط النشاط)،... إلخ. وأكدت الدراسات أن زراعة الأشجار تقلل من الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية وأمراض الجهاز التنفسي والحد من أعراض الاكتئاب.

لذلك يمكن للأشجار أن تساعد في تحقيق الأهداف المجتمعية على النحو المبين في أهداف التنمية المستدامة للأمم المتحدة خاصة في ضمان حياة صحية وتعزيز الرفاهية للجميع في الأعمار كلها وجعل المدن والمستوطنات البشرية آمنة ومستدامة وتعزيز الثقافة البيئية في مجتمعات المدن المعاصرة، حيث يحتاج الأطفال فيها إلى التواصل مع الطبيعة والمناظر الخضراء والأشجار من أجل تنمية قدراتهم ومواهبهم. وفي هذا السياق اهتمت دولة الإمارات العربية المتحدة منذ نشأتها بالأشجار والبيئة وتوسيع رقعة المناطق الزراعية والمسطحات الخضراء لدرجة أن السيّاح الذين يزورون الإمارات للمرة الأولى يعتقدون أن ثمة أنهاراً تجري في هذه البلاد عندما تقع أعينهم على الأشجار الكثيفة والأيكات الخضراء الممتدة عبر الأفق في ربوع البلاد. رحم الله الشيخ زايد والمخلصين كلهم من أبناء الإمارات الذين - بعزائمهم الجبارة - حوّلوا الصحراء إلى قطوف دانية وجنات خضراء يانعة تفيض بالخير على البلاد والعباد ■

خبير الترجمة في الأرشيف والمكتبة الوطنية - أبوظبي

# أهازيج النباتات في التراث الشفهي الإماراتي

جميع سالم الظنحاني

**تعكس أهازيج النباتات العادات والتقاليد والقيم الثقافية في دولة الإمارات العربية المتحدة، حيث تسلط الضوء على أنواع معينة من النباتات والأشجار المحلية، وتكشف استخداماتها في دولة الإمارات لأغراض، مثل: العلاجات الطبية والغذاء والبناء والزينة إلى غير ذلك. وتعزز هذه الأهازيج الوعي بأهمية الحفاظ على التراث الثقافي والبيئي لدولة الإمارات. ومن هذه الأهازيج، الأهزوجة التي جاءت بأسلوب المحاورة بين طائرين من الطيور المحلية وهما «الوقيشة» و«الحمامة»، ومفادها أن الحمامة تغني أيام بذر الحب، (غرس البذور) بلا مبالاة، أما الوقيشة جالسة تجمع الحب وتدسه أي تخزنه لموسم الأمطار: هنا الوقيشه قالت للحمامة: «يوم الحصايد ألهتج القصايد»[1] ونأخذ من هذه المقولة حكمة تعبر عن أهمية استغلال الوقت والادخار لوقت الحاجة وضرب المثل على لسان الطير دلالة على ارتباط الإنسان بالطبيعة أيضاً.**

وأهزوجة أخرى محاورة بين الأعشاب على لسان البشر ترددها النساء أثناء قطف الأعشاب وجمع الحطب وموضوعها أن نبات «الغرز» يتحدى نبات «الدخناه» وباغته نبات «الغمير» ومن ثم المرأة وغلبته وهنا يتبين لنا دهاء أهل الإمارات في التعبير بالسليقة ونسجها بالبيئة المحيطة وما فيها من مسميات محلية تعكس محاكاتهم للحياة الفطرية. وهنا نص المحاورة حيث يبدأ نبات الدخناه ويقول لنبات الغرز:

**أنـــا الدخنـــاه أنـــا الدخنـــاه**
**ودهانـــتي كمـــا المزمـــاه**

شرحها نبتة الدخناه تفرض نفسها بأن تقول هي كبر «المزماه» والمزماه وعاء كبير يصنع من جريد النخل - ليرد نبات الغرز على الدخناه:

**أنـــا الغـــرز أنـــا الغـــرز**
**ودهانـــتي كمـــا الخـــرز**

شرحها: يجيب نبات الغرز بأن حجمه صغير لكن يعادل الخرز الغالي بالثمن، وهنا باغتهم نبات الغمير بأن يقول:

**أنـــا الغمـــير أنـــا الغمـــير**
**ودهانـــتي كـــبر راس الحمـــير**

وتنهي المرأة المحاورة وتقول:

**بحـــش غـــرز وحمـــراه**
**مـــا تحشهـــا غـــير لمـــراه**[2]

هذه المحاورة تسرد بأسلوب حواري شائق ويأتي من باب التسلية والترويح عن النفس ونَدُرَت هذه الطريقة الغريبة أو الأسلوب

حقيقة في باب الأهازيج، حيث نلاحظ أن كل نبات يفرض مكانته على الآخر والمبدع في الأمر هو استنطاق نباتات في الحياة الفطرية على لسان البشر. فنبات الدخناه يقول إنه كالمزماه وهي وعاء يصنع من جريد النخل حجمه كبير وفارغ من الداخل أما الغرز حجمه أصغر ولكنه يعادل الخرز بقيمته، والغرز من النباتات الموسمية التي تنمو بعد سقوط الأمطار في السيوح والوديان والجبال تستخدم علفاً للمواشي، وهذه الدلالات كلها كانت حية في أذهان الأولين حين سرد المحاورة.

وهنا مثال آخر في السياق نفسه بذكر النباتات:

**الغريـــرة والينـــم كـــــبرروس الغنـم**

**الغريـرة والينـــم كـــبرروس القعـــدان**[3]

فالغريرة والينم من أنواع النباتات الموسمية الرعوية وهي مفيدة للماشية. ومن الجدير بالذكر أن النساء في الماضي كن يعملن بجمع الحطب والأعشاب لاستخدامها وقوداً للطبخ أو التدفئة أو لاستخدامها في الأدوية الشعبية، ولذلك تذهب النساء إلى السيوح والوديان والصحاري على حسب تضاريسهم وكانت النساء تخرج بشكل جماعي للاحتطاب وقطف الأعشاب الموسمية للبهائم أينما وجدت في بيئتهم المحيطة حتى إنهن يتسلقن الجبال ومساييلها وغلانها[4] وينزلن من الجهة المقابلة بحثاً عن الكلأ وقد يعملن في قطف العسل وهذه الحرفة تقتصر على بعض سكان مناطق جبال دبا والسلاسل الجبلية المحيطة بها من جبال الحجر الممتدة من جنوب الدولة إلى شمالها.

## الغلي والخناصير

وهذه أهزوجة دارجة عند أهالي الجبال والوديان والسيوح ترددها النساء والأطفال أثناء جمع «الغلي» و«الخناصير» وغيرها من النباتات الموسمية والحولية دائمة الخضرة، التي تنتشر في الجبال والوديان فقد كان الأولون يأكلون أوراقها الصغيرة في بداية بزوغها، والخناصير من أنواع الصبار الحولية التي تنمو بعد سقوط الأمطار وتستخدم في الأدوية الشعبية وهي تؤكل مع أنها مُرة الطعم إلا أن فوائدها عديدة وصحية:

**بـترقـــــص بالمقاصـــــــير**

**وبكـــــل غلـــــي وخناصـــــير**

والمقصود بالمقاصير الجبال متوسطة الارتفاع والمفرد «قصار» وأهل البحر يطلقون على الصخور أو المرتفع الصخري أو الجبل في البحر قصار.

## أهازيج في نبات الحناء

هنا قصة من التراث الشعبي[5] فمع إشراقة الصباح تذهب البنات لجلب المياه من الطوي والنساء الكبار أيضاً وفي يوم من الأيام تجمعت البنات للذهاب إلى الطوي في ثاني أيام عيد الفطر وأيديهم محنّاة كعادة أهل الإمارات في الأعياد وأثناء جلبهن الماء شاهدهن رجل وفتنته بزهاء الحناء على أناملهن وكفوفهن فقام بجلب عيدان من الحنا بعد أن ذهبن وغرسها بشكل دائري إلى جانب طية الطوي، وجاء باليوم الذي يليه بالتوقيت نفسه وهو على دراية بورودهن عند الطوي وصعد جبلاً صغيراً في الجهة المقابلة للطوي وهو يترقبهن ليراقبهن وإذا بهن يقبلن وهن حاملات «القراب واليحل» وعند وصولهن إلى الطوي شاهدن عيدان الحناء مزروعة على أطراف الطوي فوقفن في استغراب وذهول! وكل واحدة منهن تنظر نحو الأخرى، والشاعر ينظر إليهن ويتبسم من الموقف وهذا ما دعاه ليترنم شعراً. ومنها جاءت هذه الأهزوجة التي ارتبطت بالحناء:

**علـــى موردكـــن نقـــض حـــــنى**

**يـــا حضكـــــن يا صغـــير الســـنى**

**علـــــــى الروايـــب بتعلـــــنى**

**حنـــــا الخضـــــر بيعلقـــــنى**[6]

وهنا يتبين لنا كيف كان دهاء الشعراء في سالف الزمان في خلق المواقف تهيضاً لقريحتهم الشعرية.. والحناء من الأشجار المحلية في دولة الإمارات العربية المتحدة وتنتشر أكثر في الساحل الشرقي للدولة والمناطق المحيطة به ويعتبر من أجود أنواع الحناء المحلي ويسمى «زعتري أو زعيتري». لأن أوراقه صغيرة وعيدانه رفيعة تشبه أوراق الزعتر لكن جودته عالية بل تضاهي الحناء الصناعي من حيث اللون والرائحة والفائدة، وأنا أنصح باستخدامها وزراعتها في البيوت لفوائدها و«فغوتها» أي زهرتها الفواحة. وتستخدم كذلك لزينة النساء والتداوي أيضاً لأنها من الأدوية الشعبية المعروفة لدينا حيث قالوا عنه توصوفة:

**حنـــــا الليـــــل خزينـــــة**

**وحنـــــا النهـــــار زينـــــة**

ومعناها أن وضع الحناء بالنهار هو عادة لزينة النساء والبنات الصغار في المناسبات غالباً والرجال يضعونه كدواء، وهذه أهزوجة تردد للأطفال سواء في وقت التخضيب بالحناء أو بعد إزالتها:

**مرحبـــا محـــنيين القصـــة**

**ولهـــا صبيعـــات شـــرى الحـــيبِ**

**خصّـــي مـــن قبـــل مـــا خصـــه**

**بسلامـــــــــه والتراحـــــيبِ**[7]

وهناك نقوش مختلفة الرسم لأيدي الأطفال من البنات وتختلف عن الصبيان، وقد توضع قبل الخلود إلى النوم أيضاً مع سرد حزاوي وخراريف كي ينام الطفل في سبات عميق ولئلا يؤثر على النقوش حينما يتحرك الحناء الذي يوضع على رجل أويد الأطفال لكثرة حركة الأطفال أيضاً، وجرت العادة على أن يُحنى الأطفال والبنات على الخصوص في الأعياد والمناسبات وأنا بنفسي تحنيت في الصغر بيدي ورجلي وتم لفها وربطها بوقاية قديمة أو قطعة قماش بالية، أما الرجال كبار السن يتحنّون بغرض العلاج كدواء من تشقق الأرجل أو الصداع.

وتقص أعواد الحناء مع أوراقها وتجمع فوق بعضها ويجب أن يكون توقيت القص مناسباً كمراعاة العوامل الجوية الملائمة، فالأولون كانت عندهم دراية بالمواقيت المناسبة للزراعة

والحصاد والقص وغيرها، وبالنسبة إلى الحناء بعد أن تخضر أوراقها ويعاينها صاحبها للقص يقول «غايتها» وتعني حان وقت قصها والقيام بتجهيزها، فتقص وتجمع فوق بعض في اليوم الذي يكون فيه الطقس حاراً جافاً أي «سهام» مع هبوب رياح «الصوري»[8] ولا تقطع أغصانها إذا كانت الرياح شرقية مثلاً أو أي رياح مشبعة بالرطوبة كيلا تؤثر الرطوبة في أوراق الحناء، وتقلل من جودته ويصبح رديئاً، وبعد يوم من قصها تخبط كي تفصل الأوراق عن العيدان وتسمى العملية «اللزا» ويقوم بعد ذلك بجمع الأوراق وحملها إلى النساء لتكمل العملية بدقها وبطحنها وتصبح جاهزة للاستخدام.

وتقوم النساء بخلطها مع الليمون اليابس، لذلك يقال المثل الشعبي «فائدة الحناء يأكله اللومي». والمقصود به أنك إذا أردت القيام بتجهيز الحناء يتطلب عليك إحضار الليمون اليابس ليعلق عند وضعه. وتسمى زهرة الحناء «فغوة» ولها رائحة طيبة ومن ثم تتبلور هذه الزهور وتصبح بشكل دائري لونه أخضر وبعد فترة يتغير لونها إلى الأحمر ويسمى «حمال» في هذه المرحلة ومن أجود أنواع الحناء الموجودة في الساحل الشرقي ومناطق الجبال بشكل عام كما أشرنا سابقاً. وجاء في الألغاز الشعبية: «أخضر في أمه أحمر فيك» عن الحناء.

ومن الأهازيج الشعبية المرتبطة بطقوس الحناء إن جاز التعبير **والتي يرددها الأطفال:**

**الحنى على كفوف سيالي**
**يتلي الروايب[9] بالعدالي[10]**

وتوضع الحناء بأشكالها المختلفة للعرائس أيضاً ومنها بأن توضع طرقين (خطين) أي رضفين ومما يقولونه:

**يمه حني كفي طرقين**
**باكربي حبيب العين**
**والزعفران ع الخد رضفين**
**محلاة ذاك الويه بشقة العين[11]**

ومن مسميات الحناء التي توضع للأطفال «الغمسة» و«القَصّة» وحنا «الروايب» و«الطرقين» ومن مقولات الأولين عن الحناء: «طرق حفا» أي الاستخدام لقاعة الرجل تعالج من تشققاتها ومن خلال وضعه على الأرجل يمتص الرطوبة من الجسم، ويقال أيضاً «طرق شفا» أي دواء للشفاء ويقال «طرق عمى» أي لمداواة العيون. وهذه أهزوجة أخرى عن الحناء ووصفه:

**موزن ف العينه[12] طرا لي**
**الحنا على لكفوف سيالي**
**عد الروايب بالعدالي**
**تسعين عجفن بالتمامي[13]**
**ويختص غرٍ مالي الساقي**
**على ظهور عيلات الهمامي**
**فداعة اللي كأنه اختاري[14]**

وهناك أهازيج يرددها الأطفال أثناء وضع الحناء:

**حناي طول**
**بلعب بك تحت الطبول**
**حناي إعلق إعلق**
**بلعب بك تحت العلق[15]**

وهذه أهزوجة الحنا عند استقبال الغواصين من رحلتهم وهي أهزوجة معروفة ومتداولة في الساحل الشرقي وتقال للنساء أثناء وضع الحناء ليتزيّن لأزواجهن بعد عودتهم من الغوص وهن في شوق ولهفة لـ«تلاقي الولايف» فالعيون ناظرة جهة البحر والأيادي مخضبة:

**يا بنية لا تختفي**
**تالي الشهر بيون**

النباتات الحولية في الامارات

النباتات الحولية في الامارات

**والحنا طار غباره**
**وتبحلقت لعيون[16]**

## الزعفران

وهذه أهزوجة تردد أثناء وضع الزعفران على وجوه البنات الصغار كي يضفي عليهن جمالاً ورائحة طيبة، ويجلب الزعفران من خارج الدولة أما المقابل المحلي للزعفران فيسمى «شوران» وذكره الباحث الحظ في كتابه رمستنا منظرتنا بأنه نوع من الزعفران الرديء كان يزرع قديماً ويستخدم بعد خلطه بالماء كعلاج للحساسية والحكة ويقول الشاعر:

**ما خلط بالشورانـي**
**له فالضما يربيت**
**إن هب المغربانـي**
**يا قلب شو سويت**

ومن الأبيات التي قيلت بالزعفران من التراث الشعبي:

**الزعفران المري**
**على الخدود إرضوف**

نبات الدخن

**بين الخشم والحايب**
**كنه لميع سيوف**

وفي السياق نفسه ومن الأشعار:

**الزعفران لعصير دافنه**
**وشخطنه بين لزلافِ**
**خوص قلبي بيض يفنه**
**ونتقنه من لب لفواد[17]**

باحث في التراث الشعبي الإماراتي

**الهوامش والمصادر:**

1. المثل من برنامج الغافة الذي يعرض على قناة الوسطى ومن رواية الشاعر سعيد بن خليف الطنيجي.
2. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت عبد الله بن عبيد الظنحاني، عام 2020.
3. حساب زمن الطيبين حمد بو نايف انستغرام bu.nayf.hamad
4. مساييلها وغلانها: مفرد مسيال وهو المنحدر الجبلي من الأعلى إلى الأسفل تتخلله تفرعات منحدرة وضيقة تسمى غليل.
5. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بن سالم الواجف المزروعي، عام 2020.
6. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بن سالم الواجف المزروعي، عام 2021.
7. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد الواجف المزروعي.
8. الصوري: مسمى لرياح محلية حارة وجافة من أي جهة تهب منه تنشط في فصل القيظ.
9. الروايب: أطراف الأصابع من الأعلى.
10. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بن سالم الواجف المزروعي، عام 2021.
11. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بن سالم الواجف المزروعي، عام 2021.
12. العينة: موضع في منطقة أذن جنوب رأس الخيمة، وكذلك يوجد وادي العينة غرب منطقة الحلاة التابعة لإمارة الفجيرة.
13. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بنت سالم الواجف المزروعي، عام 2021.
14. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بن سالم الواجف المزروعي، عام 2021.
15. العلق: مسمى لشجرة السمر في مرحلة نموها الصغيرة ثم عربض ثم سمرة.
16. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت عبد الله بن عبيد الظنحاني، عام 2020.
17. مقابلة شخصية مع الراوية مريم بنت سعيد بن سالم الواجف المزروعي، عام 2021.

بيت فيه أشجار أهله لا يملون الحياة

# معرفة الشجرة فريضة ورمزيتها نافلة ثقافة

محمد حسن الحربي

**(بيت فيه أشجار أهله لا يملون الحياة)**

**شعرت بأن علينا التعرّف على الأشجار، قبل التعامل معها كرمزية، حاملة لأكثر من دلالة وبعد في الثقافة الإنسانية، خاصة في الآداب والفنون، على تعدد أجناسها واختلاف طبيعة محتواها. وهي التي ربما سبقت الإنسان في الخلق، وفقاً لبعض التفاسير الدينية والروايات التاريخية، لكن الثابت، بالنص القرآني الكريم، أن الإنسان سمع بالشجرة وتعامل معها، قبل أن يهبط على الأرض آدم أبو البشرية، فقد كان للشجرة دور في حياته، إذ قال لهما جلَّ ذكره . لآدم وزوجه - (.. ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)، لكنهما اقتربا منها ليظلما نفسيهما، بعدما أغواهما الشيطان.**

**(زرع الأجداد الأشجار... ليستمتع الأحفاد بظلها وثمرها)..**

مقولة، من يقرؤها لن يغادرها قبل أن يتعمّق فيها، بحثاً عمّا فيها من حكمة، خاصة في زمن يحمل لأهله مفاجآت عديدة، على أكثر من مستوى، منها الصحة تحديداً، بدناً ونفساً؛ فالطبيعة، أُمنا الأولى، بغاباتها الخضراء، وتنوع أشجارها وثمارها وزهورها وروائحها، واتساعها المترامي، تكاد اليوم أن تصبح الملجأ الوحيد للبشرية؛ فهي التي تذود بكل أسلحتها عن بقاء الإنسان، وصحته، وغذائه، ووعيه وذائقته، سواء تجلّت له في شكلها المرئيّ، أو الخفيّ الذي لا يعلم أسراره سوى الخالق المبدع جلّت قدرته.

مقولة قرأتها مكتوبة على جدار، فنقلتها لاستهل بها موضوعنا حول الأشجار وأهميتها لحياة الإنسان، قبل أن تتسيد رمزيتها في الثقافة، عبر مخيال الأدباء والكتّاب، وعلى وجه الخصوص، في الفنون والآداب على اختلاف أجناسها واختلاف مضامينها؛ فالأشجار لا تقتصر أهميتها على ما تمثله للبشرية، فهي ليست الخزان أو الرئة المملوءة بالأكسجين فقط، ولا البدن النابض بالحيوية، أو شعلة الروح، إنما تتعدى ذلك في الأهمية بكثير، إلى تغذية الحياة في هذا العالم الفسيح، على تنوع أحيائه في البر البحر والجو. ولعله من غير الغابات الخضراء، وعيون الماء النابعة من الأرض، وتلك المنهمرة من السحاب في السماء، لما استمرت حياة الخلائق كافة على البسيطة، وفي باطنها، وفي أعماق البحر، وفي الفضاء الرحب.

لا تقتصر فوائد الأشجار للبيئة، على تزويد الأحياء بالأكسجين، وتنقية الهواء من الشوائب، والحفاظ على التربة رطبة مدداً للجذور، ودعماً للحياة البرية، وتحسين جودة الحياة لمليارات المخلوقات، إنما للشجرة أسرار تجعل وجودها يتعدى الرمزية بكثير، لينفتح على فضاءات ملأى بالإشارات والدلالات.

فلنأخذ ثبوتات العلم في هذا المنحى، قبل أن نلج إلى فضاءات أخرى، لنكتشف فيها أوجه خفية للشجرة؛ فالعلم ينقل لنا حقيقة أن المرضى الذين يجلسون في غرف مطلة على الأشجار والنباتات الخضراء، غالباً ما يتعافون أسرع من غيرهم في الأماكن الأخرى، النائية عن الخضرة؛ فمن الثابت أن الأشجار تُساعد على خفض التوتر والقلق بمجرد أن يقترب الإنسان منها، قبل أن يتأمل شكلها ومنبتها ويتذوّق ثمرها، والأهم هي أحاسيسه، تلك التي بدأت تشعر بالثراء، لتنقله شيئاً فشيئاً، بعملية كيميائية معقدة، من حالة إلى أخرى جديدة، سعيدة ومبهجة. وتشير الأبحاث إلى أنّ جلوس الشخص في مكان مُحاط بالأشجار، يُساعده على خفض ضغط الدَّم، ومعدل ضربات القلب، ما يجعله أكثر توازناً، فالأشجار تحمي صحة الإنسان، فكلما اقترب منها، شعر بالاسترخاء والسعادة، وكلما ابتعد عنها غادره ذلك الشعور الذي يمكن أن يكون اتزاناً، ليحل نوع من الاضطراب النفسي أو ضيق في الصدر محله.

إن مظلات الأشجار التي تبتدعها الأغصان عبر تشابكاتها، ليس دورها بسط الظل الرطيب لتلجأ إليه الأحياء في الغابة، بل هي تفعل ذلك لتشعر بالألفة والغبطة مع الأشجار جاراتها في النطاق؛

فالمودة إن لم تكن مرئية، فهي مادة مهمة، تفرزها عندما تتلامس مع جاراتها القريبات، لتحسّن من جودة صحتها البدنية، وزيادة انغمارها في عملية حبور كيمائية غاية في التعقيد، تقوي بها مناعتها، إذ تفرز روائح طيبة يأنس لها غيرها، فيما هي تحمي بها نفسها من غزوات الحشرات التي قد لا ترى بالعين المجردة.

من نافلة القول إن الأشجار تنقي الهواء من الغبار، وتمنح ظلاً ندياً تصد به أشعة الشمس المباشرة، التي تؤذي الإنسان وتضر بصحته، وتقلل من نسبة الضوضاء المتأتية من المحيط الخارجي للسكنى، بفعل المركبات والراجلة في حركتها المستمرة. فمعلومات كهذه باتت معلومة لدى الجميع. ولعله من المعلومات العلمية المفاجئة بأن اللحاء الملتف حول جذوع الأشجار، تكمن في طياته الرمادية اللون فوائد طبية جمّة؛ فزيته المستخرج - الذي أطلقوا عليه اسمه التجاري (البتولا) - يحتوي على خصائص شتى مضادة للجراثيم بأنواعها. فضلاً عن زيوت أخرى، تُستحلب من نوى ثمار الشجرة، على اختلاف مذاقاتها وروائحها وقيمها الغذائية، ويأتي على رأسها في هذا السياق، زيت الزيتون، فضلاً عن تميز شجرة الزيتون من بين باقي الأشجار، فهي مباركة، ولها قدسية خاصة، نعرفها وتعرفنا في كامل منطقتنا العربية تقريباً، وفي جزء من بلدان جنوب أوروبا.

والأشجار، إلى جانب ما تقوم به من مهام، ثمة فوائد أخرى لها يصعب تعدادها، منها أنها عطاء للبيئة من حولنا نحن البشر؛ فهي لا توفر الأكسجين في الهواء الذي يتنفسه البشر فحسب، إنما هي تحافظ على المياه أيضاً؛ إذ تجمع مياه الأمطار، بعد عملية تصفية دقيقة، لترسلها، من ثمّ، إلى الأنهار والجداول المائية نقية ونظيفة، خالية من الرواسب والملصقات التي علقت بها عبر مسيرتها إلى مبتغاها الأخير. ويأتي تحسين جودة الهواء، والحفاظ على التربة، ودعم الحياة البرية، عبر امتصاص ثاني أكسيد الكربون. هذه كلها لا تتمتع بها سوى أمٍ معطاءة كالطبيعة، سخر الله كل ما فيها لهنأ الإنسان في حياته على كوكب هو الأجمل من بين الكواكب الأخرى، علّه يقدّر النعم، ثم يشكر ليضمن استمرارها. كما أن الأشجار لا تخلو من قيمة اقتصادية، حيث إن وجودها قد يرفع قيمة عقار السكنى والممتلكات الأخرى، بما يساوي نسبته ما بين 7 - 25 في المئة كما تفيد التقارير. وذلك لأنها تحظى (بجيرة) الأشجار فقط؛ فالناس، على اختلاف حاجاتهم وتفاوت رغباتهم، ينجذبون إلى المنازل والمكاتب القريبة من الطبيعة الخضراء. فقد أثبتت دراسة بحثية بأن المتاجر القريبة من الطبيعة الخضراء، والأشجار والمسطحات الخضراء، يرتادها المستهلكون بنسبة أكبر من أخرى غيرها، وصلت إلى 13 في المئة.

يلجأ البشر لزراعة الأشجار، لما يرون فيها من جمال مأنوسٍ ومتجدد، لا تمله العين، ولا تعافه النفس الشفيفة، ولا الذهن المتبصّر المتأمّل في صنائع الخلق، فهي تغذي نفوسهم بعناصر تصد هجمات التصحّر على عواطفهم ومشاعرهم الإنسانية، تلك الغزوات التي تشنها الطبيعة من آن إلى آخر، بينما هم في سبيلهم إلى الحياة. وتمنحهم ظلاً يجلب الراحة، وتولّد شعوراً من الحبور، يدفعهم إلى الإقبال أكثر على الحياة، ومحاولة العيش على مقربة حيث الأشجار، وعلى نحو مستدام إن أمكنهم ذلك؛ فالطبيعة عامّة، بأحيائها المرئية والخفية، بأصواتها المتداخلة في الليل والنهار، تلك الأقرب ما تكون إلى مقطوعات موسيقية ألّفها الإنسان، كأنه ذو عهد قديم بمجرات مبهجة، لها أفراحها الأشبه بسحر مقطوعات زرياب. إن الإنسان مخلوق مفطور على حب الحياة في طريق يزرع فيه ما يضمن به جمال المثوى وحسن المصير.

الشاعر بدر شاكر السيّاب

إن أهمية الأشجار للإنسان، تكمن في قدرته على اقتنائها، نبتة طريّة زهيدة الثمن في البداية، لكن حين يستنبتها في رقعة من الأرض واسعة، تغدو بعد قليل شجرة كبيرة باسقة في الفضاء، ظليلة ومثمرة، تضفي بهدوئها نوعاً من التواصل الخفي، يبعث على التأمل والتدبر في بدائع الخالق، فالطيور والعصافير والحيوانات الأخرى، على اختلاف أنواعها، تنجذب بالغريزة إلى (الفنن الأخضر) حيثما وجد، لعلمها بأنه ما كانت لتكون خضرة الشجرة نضرة على هذا النحو، إلا لأن الماء قريب منها. وهذه حقيقة علمية، تعلّمها الطير بالفطرة التي فطره الله عليها. والماء إما أن يكون نبعاً متدفقاً، وإما نهراً يجري رقراقاً، وإما طلًّا (ندىً) يهبط من السماء عند الفجر أو في المساء، فيغمرُ ورق الشجر والأغصان وتويجات الأزهار بالرطوبة، لتقوم الجذوع عبر النسغ، بعملية عكسيه شبه سحريّة عبر امتصاصه باتجاه الأسفل حيث الجذور العميقة، تحفز نهاياتها العصبية لتتواصل مع جذور الأشجار الأخرى، ملبيةً بذلك استغاثاتها لجرعة لازمة من الرطوبة، تستعين بها على الاستمرار والصمود، أمام حرارة الشمس العتية، ومقاومتها كذلك لهجمات أعدائها الآخرين من أرتال الحشرات العضّاضة، التي تعتاش على السكر في أوراقها وثمارها بالطبع.

إن البرودة التي توفرها الأشجار، تحد من حرارة بَخر الأرض في الجو، فيغدو معتدلاً مقبولاً للحركة والعمل؛ فالشجرة الواحدة، تعادل في نسبة تبريدها للطقس، نسبة عمل عشرة أجهزة تكييف حديثة، لمدة عشرين ساعة في اليوم.

وتقوم أوراق الأشجار المتساقطة بدورها فتغطي التربة، لتقلل من درجات حرارتها حفظاً لرطوبتها اللازمة، ما يسمح للكائنات الدقيقة، والعناصر العضويّة الأخرى، بالتناسل والتكاثر، في عملية ضرورية لنمو الأشجار واستمرارها في حياتها الخفية، التي لا يعلم منّا أسرارها - نحن البشر العاديين - سوى (الغابيّين) المتخصصين، أولئك الشغوفون بالعمل في الغابات والأدغال.

ونختم مقالتنا عن الأشجار، بأشجار النخيل وعلاقتها بعيني محبوبة الشاعر بدر شاكر السيّاب، في تشبيه سحر المتذوق، ومطلع عبقري ذاع صيته في الملأ، فتلقفه أهل المغنى ليبعثوه مجدداً ومنغماً في الأسماع، فـ(المغنى حلّةُ الشعر، إن لم يلبسه، طويت). يقول مطلع قصيدة السيّاب:

**عينـــاك غابتـــا نخيل ساعة السحـــرْ**
**أو شرفتـــان راح ينـــأى عنهما القمـــرْ**
**عينـــاك حين تبسمـــان تورق الكـــرومْ**
**وترقـــص الأضـــواء كالأقمـــار فـــي نهـــرْ** ■

إعلامي وكاتب صحفي

# رمزية الأشجار في الأدب الإماراتي

حمادة عبد اللطيف

**تحتل الأشجار مكانة خاصة في الأدب الإماراتي، فهي ليست مجرد عناصر طبيعية موجودة في البيئة فقط، بل هي رموز وجماليات استعان بها الأدباء من شعراء وكتّاب في أعمالهم ليعبّروا من خلالها عن أنساق دلالية تجسد العديد من القيم والمفاهيم، وتعكس خصوصية البيئة المكانية للإمارات، وقد وردت الأشجار في الأعمال الأدبية الإماراتية كونها من أكثر الرموز التي يمكن توظيفها بشكل جيد في توصيل فكرة العمل الأدبي ومضمونه للمتلقي، ومن ثم، فقد احتفى الأدب الإماراتي بالأشجار ووظف رمزيتها في معظم الأجناس الأدبية من شعر وقصة ورواية وتأليف مسرحي، حتى في النصوص التراثية الشفاهية كالأهازيج والأناشيد المتوارثة، نجد الحضور القوي للأشجار بوصفها معادلاً موضوعياً لكثير من القضايا والمفاهيم المختلفة.**

نبدأ بالشعر، الذي يعد من أكثر ألوان الأدب الإماراتي الذي تناول الأشجار في موضوعاته، والشعر الإماراتي، قديمه وحديثه، فصيحه والنبطي منه، تناول الأشجار في أشكال مختلفة وفي تكوينات رمزية متعددة، ومن أمثلة الأشجار التي تناولها الشعر الإماراتي، النخيل والغاف والسمر والسدر وغيرها من الأشجار، وتأتي أشجار النخيل في المقدمة، وذلك لما لها من أهمية ومكانة كبيرة في نفوس الإماراتيين، نظراً لما لها من فوائد عديدة، وما تمثله وترمز إليه من قيم أصيلة، تلك الشجرة التي كانت منذ الزمن الماضي هي قوام الحياة، ثمارها مصدر أساسي للغذاء، فلا تجد بيتاً من بيوت الإمارات يخلو من التمر على مدار العام، كما كانت جذوعها وأوراقها تستخدم في بناء المنازل وصناعة الأثاث قديماً، ومن ثم، فإن رمزية النخيل في الشعر الإماراتي ارتبطت بشكل كبير بالعطاء والسخاء والكرم، كما ارتبطت بالفخر والأصالة والانتماء إلى الأرض أيضاً، يقول الشاعر الإماراتي سيف المري في قصيدة عن النخلة:

**هامَتْ / ذَكّرُوا لها أفْضَالَها وسَخاءَها / يا طَالما جَلَبَ/ سُبْحَانَ /كانت على طُولِ/ كانَتْ/من تَمْرِها نَحيا زَماناً/ وثمارُها الرُطبُ/ نَضَجَتْ/عجباً/ هي/هي/أَعلِمْتَ/ وتساقَط الرُطبُ المُباركُ/ نِعْم العَطيةُ/ عِشْنا عليها حِين لَمْ/ وَقَفَتْ/غَرْسٌ/عَهْدٌ/طَبْعُ الكريمِ/فإذا بِقَوْمي/لمْ/بلْ**

تحمل القصيدة العديد من المعاني العميقة والصور الرمزية البليغة التي تركز على الاحتفاء الشديد بالنخلة والاعتراف بفضلها الكبير على المجتمع الإماراتي، ومن ثم السعي للحفاظ عليها.

ومن الشعراء الإماراتيين الذين تناولو النخلة في شعرهم الشاعر الدكتور عارف الشيخ الذي تحدث في شعره عن صفات النخلة وما ترمز إليه من قيّم أصيلة، وكذلك الشاعر محمد صالح القرق الذي تناول النخلة في شعره كونها رمزاً للصمود في مواجهة

المتغيرات، حيث يقول في مطلع قصيدة له عنها:

**وباسقة فرعها في/تقادم عهد لها في/وكم مرّ دهر وكم مرّ جيل/ ونخلتنا في**

وبالطبع تناول شعراء النبط النخلة وتغنوا بها في أشعارهم، فالنخلة مفردة مهمة من مفردات حياة البادية، ومكوّن أصيل من مكوّنات البيئة المحلية، ورمزاً مهماً للعطاء والشموخ، لذا كان لها وجود قوي في أشعارهم، بالإضافة إلى أشجار أخرى كان لها حضورها المشهود في الشعر النبطي الإماراتي مثل أشجار الغاف التي استخدمت بكثرة لترمز إلى العون والحماية والمأوى الوارف والراحة التي تعقب التعب الشديد، هذه الشجرة التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالبيئة المحلية للإمارات.

وعلى صعيد النصوص المسرحية الإماراتية، نلاحظ وجود الأشجار بشكل أو بآخر، وخاصة النصوص ذات الطابع المحلي، إما في تسييج الكتابة، وإما ضمن التوصيف المكاني الذي يكتبه مؤلف النص، وإما من خلال إشارات في حوارات الشخصيات، وإما أن تكون الشجرة هي الموضوع الرئيسي الذي يتناوله النص، مثل النص المسرحي (سمرة وعسل) الذي ألّفه وأخرجه الفنان عبد الله زيد، ويتضح من الاسم أن شجرة السمر هي محور أساسي في النص الذي تدور أحداثه حول أبناء عمومة من قبيلة واحدة ولكنهم منقسمون وبينهم خلاف، يعيشون في منطقة جبلية، تقع منازلهم على جانبي الوادي أسفل الجبل، وفي منتصف المسافة بين بيوت الطرفين تقع شجرة السمر «السمرة»، حيث يوجد بها خلية عسل، فينشب الخلاف بينهما على ملكية هذه السمرة للاستفادة من العسل الموجود عليها، وتتوالى أحداث النص حيث يتسع الخلاف بين الطرفين، ويزيد من مساحة الخلاف شخص غريب دخيل على المنطقة يحاول دائماً أن يؤجج نار الصراع بين الطرفين، ولكن الأطفال من الطرفين يظلون محتفظين بعلاقاتهم بعضهم مع بعض، وينؤون بأنفسهم عن صراعات الكبار ومشكلاتهم، حتى يأتي الحل عن طريقهم، في إشارة إلى أن الأمل في المستقبل وما يحمله الجيل الجديد من تطلعات. وترمز شجرة السمر في النص المسرحي (سمرة وعسل) إلى المعيار الثابت، والمرجع والأصيل الذي ينتمي إليه أهل المنطقة، حيث يربطهم بها بجذور قوية ضاربة في أعماق الأرض مثل جذور السمرة، وجعل الشجرة في منتصف المسافة بين الطرفين لترمز إلى أهمية أن تسود قيم العدل والمساواة، وأن

يصبح التعاون بديلاً عن الحقد والتناحر. أما عن الرواية والقصة القصيرة، فعلى الرغم من كونهما لونين جديدين نسبياً على الأدب الإماراتي، فإنهما تناولتا الأشجار في كثير من موضوعاتهم، وليس بالضرورة أن تكون الأشجار مطروحة بشكل مباشر في العمل الروائي أو القصصي، أحياناً تتم الإشارة اليها أو استخدامها كرمز لفكرة ما أو مفهوم معين يرغب الكاتب في إيصاله إلى القارئ، مثلاً في المجموعة القصصية (عندما تدفن النخيل) للكاتب الإماراتي ناصر الظاهري، يتبنّى المؤلف في تلك المجموعة فكرة الأصالة والارتباط بتراث الأجداد من خلال ثنائية النخلة والجدة، في تأثر واضح بحكايات الجدات اللاتي كن يروينها للصغار، من خلال النموذج التراثي المألوف الذي يصور الجدات وهن يسردن الحكايات على أحفادهن أسفل نخلة أو شجرة عتيقة.

تعتبر الأشجار من الموضوعات المحببة للأطفال، فهي من الموضوعات المهمة في معظم الكتابات الموجهة للأطفال، وخاصة في القصص والحكايات، وهناك الكثير من كتب الأطفال التي تناولت الأشجار من زوايا مختلفة، منها كتاب (شجرة الغاف الصغيرة) للكاتبة الإماراتية هنادي الفهيم، هذا الكتاب الموجه للأطفال الذي يتحدث بأسلوب جذاب ومبسط عن شجرة الغاف، التي أُعلنت كشجرة وطنية لدولة الإمارات العربية المتحدة في عام 2008، ويتناول الكتاب مغامرات شجرة الغاف الصغيرة على اختلاف مراحل نشأتها ونموها وتكوينها لصداقات مع جيرانها في البيئة التي تعيش فيها وتكيّفها مع أجواء الصحراء الصعبة، كما يتناول الكتاب التقاليد السائدة بين سكان الإمارات حول شجرة الغاف.

تمثل الأشجار مكوناً مهماً في الأدب الشعبي الإماراتي بمختلف ألوانه، من شعر شعبي وحكايات تراثية وأهازيج وألغاز، حيث تستخدم في هذا السياق كرموز لمفاهيم وقيم معينة، مثل: أشجار الغاف كرمز للقوة والصمود، وأشجار النخيل كرمز للعزة والكرم والتحدي، وأشجار السدر كرمز للحياة والازدهار، وأشجار السمر كرمز للكرم والجمال، وغيرها من الأشجار التي يزخر بها الأدب الشعبي الإماراتي بمختلف أشكاله، ومن أمثلة الأهازيج الشعبية الإماراتية التي قيلت عن الأشجار هذه الأهزوجة التي تصف شجرة الرمان:

**ياريتني اطويره**
**واطيرويا الدخان**
**واحل برأس الخيمه**
**وآشوف من غرقان**
**غرقان بوكنينه**
**ولد محمد سلطان**
**يدورون منينه**
**بيزرعون الشأن**
**نحلنا هيسه هيسه**
**نخلنا ظيلما**
**فهما عروق الحنا**
**ومشربكه برمان**

وهناك الكثير من الحكايات الشعبية وفنون الأداء التراثية المختلفة التي تتناول الأشجار بصفتها رموزاً لها دلالات عميقة، وهذا ما يعكسه الأدب الإماراتي من تواصل عميق بين الإنسان والطبيعة متمثلة في أشكال الترميز المختلفة التي تناولت الأشجار باعتبارها مفردة مهمة من مفردات البيئة الإماراتية وجزءاً لا يتجزأ من تكوينها الطبيعي، وقد ظهرت الأشجار بأبعادها الرمزية والجمالية كعنصر مهم وغني، وُظّف بشكل جيد في الأدب الإماراتي بمختلف ألوانه ليعبر عن تراث وثقافة هذا البلد ■

كاتب من مصر

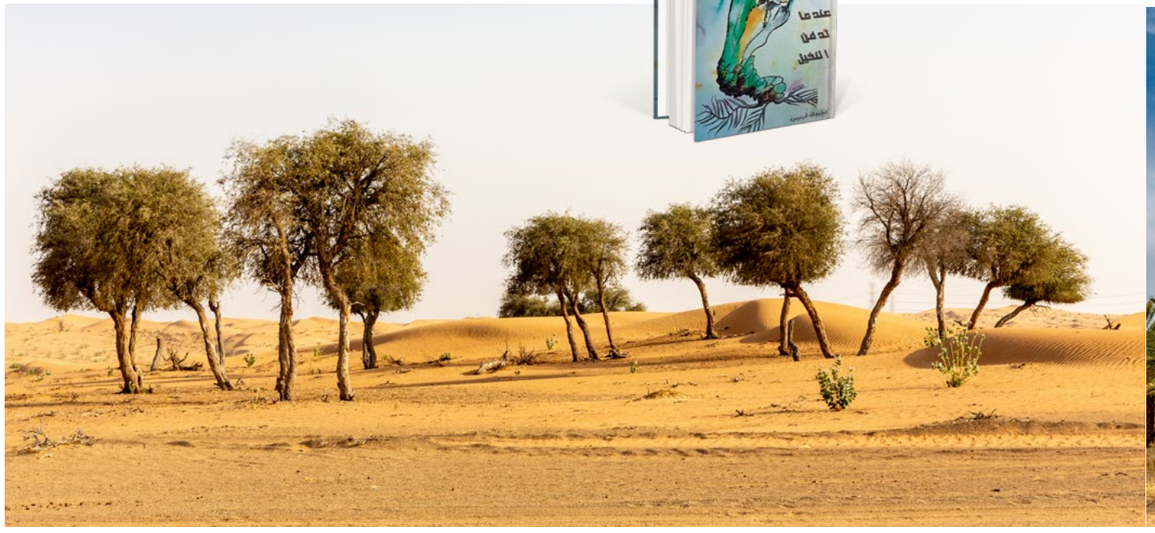

# السدر تراث وحكاية

مريم سلطان المزروعي

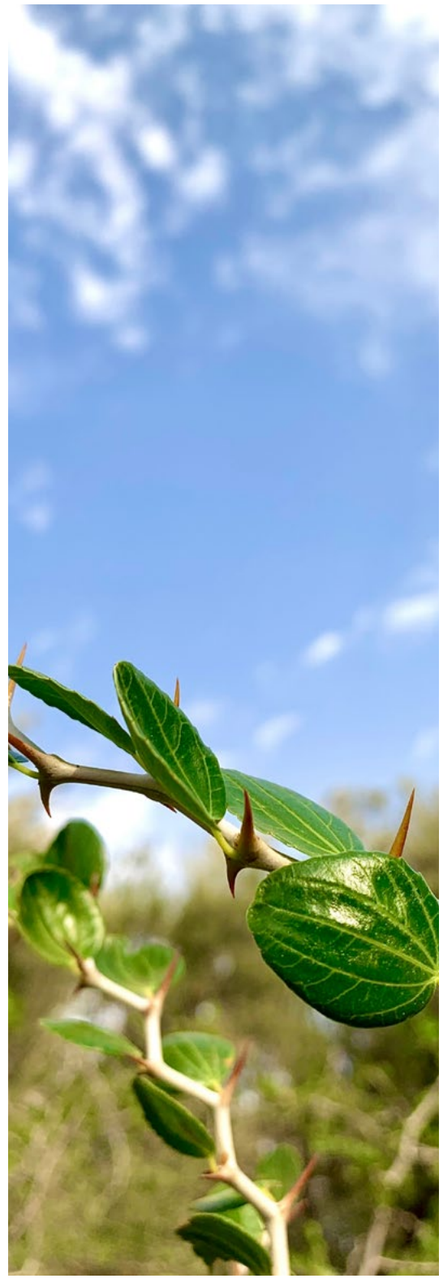

**تزخر دولة الإمارات العربية المتحدة بحياة نباتية متنوعة ومدهشة وباتساع رقعتها وتنوع مناخها بين صحراوات وجبال ووديان وسواحل ما أدى إلى تنوع بيئاتها وتنوع رقعتها الزراعية بنباتاتها النادرة التي تجذب إليها البدو للرعي، وكانت سبباً في تنقلهم من مكان إلى آخر، ومنها النخلة ونباتات الرعي كالرمث والعوسج والإمام والأشخر والأرطي والغافة وبطلة موضوعنا اليوم السدر. شجرة السدر ومفردها سدرة ويطلق عليها باللغة العربية «النبق» ولها مسميات أخرى كثيرة منها: الدوم، والكنار، والتمر الصيني، والعناب، والجوجوبا. ويعتبر السدر من الأشجار الصحراوية التي تنبت في المناطق الجبلية والرملية، وفي القرآن الكريم ذُكرت سدرة المنتهى أكثر أشجار الجنة رفعة ومكانة ومحصورة في السماء السابعة، والآية القرآنية ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾، وقيل إن سيدنا آدم عليه السلام أول ثمرة أكلها كانت ثمار النبق عندما هبط إلى الأرض، وفي قوله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ سورة النجم/ آية 16، وهذه إشارة إلى مكان اختص النبي - ﷺ - فيه بالإفاضة الإلهية، والآلاء الجسيمة، وقيل: إنها الشجرة التي بويع النبي تحتها، كما قيل إن السدرة نزلت من السماء في سورة ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾. ووجدت ثمار النبق المجففة في مقبرة (حماكا) ومقبرة توت عنخ أمون، كان يطلق عليه (نبس).**

## الوصف النباتي والبيئي

السدرة شجرة تمتد جذورها في الأرض دون أن تؤذي الشجيرات التي حولها، وتنشر أوراقها في ظلال وارفة ممتدة، وهي تتحمل الملوحة، وأغصانها خضراء وجذورها عميقة وقوية ومتشابكة، ولها جذع غليظ ذو لحاء خشن، تزهر مرتين في السنة (صيفاً وشتاءً)، إحداهما ما بين سبتمبر ونوفمبر، والثانية ما بين مارس ومايو، وتنمو طبيعياً، وتنفع للمرعى (الماعز والأغنام والأبقار والإبل)، وكل بيت تقريباً لا يخلو منها، بعضها فيه أشواك والقليل منها لا، لها جذع غليظ ذو لحاء خشن، وجذورها عميقة وقوية، في الفترة الصباحية تحلق الطيور فوقها وتقف على أغصانها وتبني أعشاشها، وتجذب النحل صانع العسل. تنتشر في إمارات الدولة كافة وفي البيئات كلها الرملية والسهلية والحصوية والغرينية وفي الوديان. تتحمل الملوحة وتقاوم الجفاف وتتحمل الرعي الجائر، وأشجار

**تزخر** دولة الإمارات العربية المتحدة بحياة نباتية متنوعة ومدهشة وباتساع رقعتها وتنوع مناخها بين صحراوات وجبال ووديان وسواحل ما أدى إلى تنوع بيئاتها وتنوع رقعتها الزراعية بنباتاتها النادرة التي تجذب إليها البدو للرعي، وكانت سبباً في تنقلهم من مكان إلى آخر

السدر منها أنواع عدة تختلف باختلاف المنطقة التي تنمو فيها وبناء على ظروفها الجغرافية والمناخية، منها: شجرة السدر الجبلي أو الزيزف: موطنها الأصلي شبه الجزيرة العربية والهند، يصل ارتفاع الشجرة حتى 10 أمتار، لها لحاء بني داكن، وثمار ذات لون أحمر أو برتقالي لامع، بينما أزهار الشجرة فصفراء مائلة للخضرة، ولها 5 بتلات مثلثة الشكل، وشجرة السدر العبري أو البلدي أو السدر المقدس: التي تكون دائماً خضراء وثمارها حمراء مستديرة ويعد خشبها الأكثر جودة، وشجرة السدر الصيني: تنمو في التربتين الرملية والطينية، إلا أنها تفضل التربة جيدة التصرف، وتنمو في التربة الحمضية والمحايدة والقلوية، وتتحمل العطش والجفاف، ومن شروط نموها أن تتعرض للشمس بشكل جيد لأنها لا تنمو في الظل، وشجرة السدر البري تفضل التربة الرملية وتصل فترة نضج ثمارها حتى فصل الشتاء. وبناء على الروايات الشفاهية لشجرة السدر فإنها شجرة محفوفة بالقداسة والأسرار والعوالم الغيبية، فهي مكان ولادة الجن، ومحط استراحتهم في الليل، وفي النهار ظل للإنس، وثمرتها النبق غذاء لهم، وأوراقها طيب يُغسل به موتاهم ودواء يستحم به مرضاهم إذا سُحروا أو أصابهم مسٌّ من الجن، وأغصانها مكان حسَن لتعليق السحر أو الطب، كما أن السدرة تنبت من تلقاء نفسها في أي مكان دون تدخل من الأنس فهي لا تقلع إلا بعد الرجوع إليهم وأخذ موافقتهم ونادراً ما يوافقون.

## فوائد أشجار السدر

لشجر السدر أهمية كبرى ولها استخدامات عديدة استفاد منها

الإنسان، فمن خشبها كان يصنع الصخام (الفحم)، كما أنها تصلح للوراية أي للاحتطاب (بمعنى أنني لم أسمع أحداً تكلم عنها بعكس الثمام وأشجار الغاف وغيرها)، وصُنع من أخشابها الأثاث والأدوات المنزلية والزراعية، لها علاجات عديدة لعلاج التهاب المعدة بالنسبة إلى القدماء المصريين، فقد كانوا يستفيدون من جميع أجزاء شجرة السدر، ومن الثمر والساق والأوراق للعلاج، واستخدموا مطحون ورق السدر كجبيرة لتجبير كسور العظام، بالإضافة إلى أنها مطهرة للبشرة من البثور والحبوب، كما استفادوا من سيقانها في بناء البيوت التقليدية والعمارة التراثية (خاصة في الفناء أو الحوي)، والمساكن الجبلية التي تُعرف (ببيت القفل)؛ حيث إن سقفه من جذوع السدر أو السمر الذي يعتبر من أفضل أنواع الأشجار المحلية، وكذلك في المنامة (التي هي المظلة التي تقام أمام المساكن للنوم وقت القيظ)، قوائمها من السدر أو السمر أو أشجار النخيل أو بعض من البراميل كانت تستخدم كمصدات للرياح وزينة للشوارع والمنازل، وكذلك يصنع العتاد والشداد من خشب السدر، ومن جذوعها أصباغ لثياب الرجال قديماً ويسمى (المحمار)، واستخدمت النساء عجين أوراقه الخضراء قديماً للاستحمام والنظافة وغسل الشعر، ويقال إن في الكويت كان الإنجليز يوصون الأهالي بزراعة السدر والنخل والأثل بسبب قدرة هذه النباتات على التكيّف، والشجرة الصغيرة يطلق عليها «شكلة»، واستعمل لب الجذع في الصباغة للحصول على اللون الأحمر الداكن. والسدرة ارتبطت باللوزة، فلم يخل بيت من هاتين الشجرتين، فقد كان الأطفال يتسابقون في تجميع ثمار النبق بمختلف ألوانه وأحجامه المختلفة غير مكترثين بحرارة الشمس أو بقرص النحل التي كانت تفضل شجرة السدر أو السمر، التي كان ينتج منها أفضل أنواع العسل الذي يحتوي على عناصر غذائية قيمة وأكثرها طلباً. وللسدرة حكاية ومعتقدات ترسخت في العقول وتوارثت في مختلف الأديان، فقد قيل إنها شجرة تدفع إلى التشاؤم لما تحمله من قصص وحكايات مثيرة للجدل؛ حيث قيل إن ذكر شجرة السدر جاء في التوراة حيث إنها كانت تذكر نبي الله أيوب وسط آلامه بالصبر على المصائب، وكذلك ذكرت في الإنجيل فمنها نسج الرومان واليهود تاجاً من شوك، ليمعنوا في إيلام المسيح ساعة الصلب، وفي القرآن الكريم عُوقب قوم سبأ بأكل خمط وشيء من السدر.

## السدر في الثقافة الإماراتية

أُثيرت حول السدر في الثقافة الإماراتية الكثير من الحكايات التي كانت تجود بها أفواه الأمهات والجدات في أمسيات مقمرة ما زالت باقية في الذاكرة، وتمثلت المشاهد من حولنا، فلها ذكريات في أذهان الكثيرين فقد كانوا يبنون تحتها الأرجوحة أو الدرفانة، واستُخدمت لعلاج مَنْ به مس وسحر، فقد كانوا يستخدمون ورقها أثناء غسل الأطفال حديثي الولادة بعد ولادتهم مباشرة أو بعد أسبوعين من ولادتهم خوفاً عليهم من الحسد خاصة إذا كان المولود ذكراً، ويشترط في الوريقات أن تكون خضراء كاملة ويكون عددهن سبع ورقات نظيفة، تطحن جيداً وتوضع في الماء ويغسل بها الطفل بعد أن يُقرأ عليها آيات قرآنية، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على انعكاس البيئة على الحياة والعادات والتقاليد، وتأثير المطاوعة في الحياة الاجتماعية من هديّ وتوجيه بما يحفظونه من أحاديث نبوية شريفة وآياتٍ من القرآن الكريم، والسدر يحبها الإبل والنحل فهي تصلح للرعي والمرعى، وبقيت راسخة صامدة لم تنقرض بل هي معمرة نجدها في جميع أنحاء إمارات الدولة.

ذكرت إحدى المرويات بأن هناك شجرة في البطين مزروعة منذ عام 1882م. وكذلك في البحرين «سدرة الشيخ» تقع في أقصى الشرق من بني جمرة عمرها 120 سنة نسبة للشيخ عبد الله بن بالأمام الجمري، ويطلق عليها «سدرة الحياة» أو «شجرة الحياة»، وفي الأردن تلك التي عند مقام الصحابي شرحبيل بن حسنة في الأغوار الوسطى، وقيل عن السدرة الكثير من المعتقدات وبأن الجن لا يحبها ولا يحب رائحتها. وبسبب شهرتها وتاريخها العريق، كُتبت الروايات والقصص حولها ونسجت، كرواية «السدرة للكاتبة أسماء بوخمسين» التي تدور أحداث روايتها عن البطل منصور وحوله قط أسود وسدرة في بيت أبيه»، والتي مثلت فيها السدرة دور الأم الحنون على الطفل منصور. ورواية السدرة للكاتبة القطرية نورة المري، التي نسجت حول ثلاث أساطير دمجت العنوان بالثراء الأسطوري وكيف أن شجرة السدر أسطورة، فصحراء شبه الجزيرة العربية هي منبت الأساطير العربية ومنشؤها، الأولى: أسطورة خلق قبيلة من بني مُرة، والثانية: أسطورة الجني دعيدع، والثالثة: أسطورة الجن الذين يحركون رمال الصحراء، فكانت بداية الراوية: «عدت إلى السدرة الوحيدة في الصحراء ما الذي جعلني أسند رأسي على جذعها؟! كيف جاءني النوم على غفلة مني؟ كان بسبب حبات النبق الحمراء»، وقد كانت النخلة التي تقابلها السدرة والرطب وما يقابلها من النبق، والملك يقابله الجني. ومن الروايات الإماراتية ما كتبه الدكتور حمد بن صراي «سدرة السرد الإماراتي» عن الكاتبة مريم جمعة - رحمها الله - وأشهر ما قيل عن شجرة السدر من الشعر، ما قاله مبارك الحديبي في قصيدته:

**«يا سدرة العشاق.. يا حلوة الأوراق»**

وكذلك: اتزخرفي يا سدرة البيت .. وتمايلي عود على عود ■

كاتبة من الإمارات

**السدر** في الثقافة الإماراتية الكثير من الحكايات التي كانت تجود بها أفواه الأمهات والجدات في أمسيات مقمرة ما زالت باقية في الذاكرة، وتمثلت المشاهد من حولنا، فلها ذكريات في أذهان الكثيرين فقد كانوا يبنون تحتها الأرجوحة أو الدرفانة، واستُخدمت لعلاج مَنْ به مس وسحر، فقد كانوا يستخدمون ورقها أثناء غسل الأطفال حديثي الولادة بعد ولادتهم مباشرة أو بعد أسبوعين من ولادتهم خوفاً عليهم من الحسد خاصة إذا كان المولود ذكراً

# أُمّنا الشبهانة.. حكاية عمرها 200 عام

فاطمة سلطان المزروعي

**كان إعلان صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم اختيار شجرة الغاف لتكون شعاراً لعام التسامح في عام 2019، قراراً مهماً نظراً لارتباطها بحياة أهل المنطقة وعلاقتها بمفهوم التسامح والتعايش، لقد كانت شجرة الغاف حلقة من حلقات الوصل بين أفراد المجتمع، وخلقت نوعاً من التوزان بين مختلف عناصر الحياة، فتشابكت تحت ظلالها أواصر المحبة والأخوة للعيش بسلام. وتعتبر شجرة الغاف صديقة للأرض والإنسان الذي يقيم معها ويتغذى من ورقها ويحتطب منها وصديقة للطيور التي تبني أعشاشها بين أغصانها، وصديقة للتربة التي تتغلغل جذورها بحثاً عن الماء، وعابري السبيل من الحيوانات البرية التي تستظل بظلالها، لقد كان قطع شجرة الغافة جناية مجتمعية وبيئية يجرم عليها القانون، وكان هناك قانون الرفجة في الماضي وهو يحمي هذه الشجرة وغيرها من الأشجار في الصحراء من التحطيب والحرق والتقطيع الجائر. ولشجرة الغاف قاموس خاص يضم مجموعة كبيرة من المفردات في اللهجة الإماراتية، وقد ارتبط بالشجرة نفسها ومسمياتها وأجزائها وأنواعها وأحجامها وثمارها منها العود الذي يطلق على شجرة الغاف الكبيرة التي كان الناس يستظلون تحتها أو يسكنون فيها ويطلق على المكان المملوء بأشجار الغاف اسم وادي ويقال غاف عبري أي لا شوك فيه، ويطلق على الغاف الصغيرة اسم حضيبة.**

وتتميز شجرة الغاف بمكانتها التاريخية والاجتماعية والبيئية في المجتمع الإماراتي منذ القدم، وكان يستفاد من أوراقها في صنع المكيكة التي تؤكل مع السحناة أو الأرز، أما الإبل فكانت ترعى من أوراق شجرة الغاف ويستخدم حطبها وقوداً ويستظل بظلها، كما تعتبر الغاف - شجرة المقيل - حيث يفضل المقيل أو القيلولة أي النوم تحتها أثناء السفر وخاصة في فصل الصيف أما في الشتاء فيسكن بقربها، وتعتبر الغاف من الأشجار المعمرة في دولة الإمارات العربية المتحدة، وشكلت معلماً نباتياً يرافق الإنسان في تنقلاته وتحركاته من موقع إلى آخر، كما أصبحت بمثابة دليل استرشادي في أسفاره. وقد أولى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى - اهتماماً كبيراً بشجرة الغاف، وفي ذلك يذكر السيد أحمد بن محمود البلوشي، السكرتير الخاص للشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حادثة جرت مع الشيخ زايد: (ذات مرة عندما كنت مع زايد في رحلة برية في منطقة مزيد، القريبة من جبل حفيت، جلست بقربه تحت شجرة من غاف، وكنا برفقته مجموعة من الرجال، ويومها كانت هذه الشجرة مغبرة وغير مخضرة وارتفاعها نحو خمسة أمتار، خلال الجلسة زل لساني وكنت في العشرينيات من العمر وقلت للشيخ زايد: ما فائدة هذه الشجرة يا صاحب السمو؟ لا نستفيد منها في حياتنا وشظف عيشنا سوى أنها كثيرة الأشواك، وغير مثمرة في هذه الصحراء القاحلة؟ ابتسم الشيخ زايد في وجهي ونظر إليّ بمحبة ثم تكلم: يا أحمد هذه الشجرة في حاجة لنا في هذه المنطقة وأنت تعلم جيداً أننا نستعمل جذوعها في صناعة الفحم وكمراعٍ للإبل والمواشي، إن هذه الشجرة عندما تزهر جيداً تكون أزهارها صفراء وتكون بلا أشواك أي خضراء وتقاوم قسوة الصحراء.

غافة الشهانة»، مدينة السلع - الظفرة

شجرة السدر

## اهتمام الشيخ زايد بشجرة الشبهانة

ولا يزال أهالي منطقة السلع في إمارة أبوظبي يذكرون الاهتمام الذي أولاه الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى - لشجرة الشبهانة التي عُرفت بأنها أقدم وأضخم شجرة في دولة الإمارات العربية المتحدة وهي من نوع شجر الغاف العبري الذي يكون خالياً من الأشواك إذ سمع في يوم من الأيام عن حادثة انكسار أحد الأغصان الرئيسية لهذه الشجرة المعمرة فأمر في اليوم نفسه الذي وصله خبر الشجرة بإرسال وفد لمعاينتها وأمر، بناء على تقرير الوفد، بتشكيل دعائم تساعد الشبكة على الوقوف والحيلولة دون سقوطها، وعن حادثة إنقاذ الشيخ زايد لغافة الشهانة من الوقوع، يقول الشاعر راشد بن سالم بن فطيمة المنصوري من أهالي منطقة السلع: «أتذكر سنة من السنوات هبّ علينا هواء شديد، وأنا أول ما صليت الفجر طلعت على الشهانة، هي الشهانة ما يصيبها أي شيء، أول ما جيت حصّلت فرعاً كبيراً كان في منتصف الشهانة، وكان المعلم الكبير اللي طالع فوق للأسف مكسوراً، وقع بين جذعين، نزل الجذع ماله بين جذعين وظل مكسوراً، بس لاصق في بعض، فاتصلت في المسؤولين ووصل الخبر إلى الشيخ زايد - رحمه الله تعالى - فبعث لي وكيل في الغابات ومجموعة من المهندسين وصلوا عندي في ساعات، فعملنا لها عملية (ترقيد) هكذا يسمونها، طلعنا أكياس رمل وعملناها فوق الجذع المكسور، وما زال الغصن عايشاً لكنه مكسور». تعتبر الشهانة شجرة معمرة تقع في منطقة غابة المرخ في منطقة بعيا في مدينة السلع في المنطقة الغربية، وعلى مسافة من أبوظبي تقارب 320 كيلو متراً، وبعد أن قضى التصحر على غابة المرخ، بقيت «الشهانة» حتى الآن شامخة لأكثر من 200 عام، حيث استعصت وقاومت بشموخها جميع الظروف البيئية من تصحر وجفاف ورياح طوال هذه السنين. تعتبر «الشهانة» مَعلماً بارزاً يحرص السياح والزوار على رؤيتها والجلوس تحتها والاستظلال بظلها، وكانت ملتقى للناس والمسافرين إلى المملكة

شجرة السمر

العربية السعودية أو القادمين منها، حيث يلتقون تحت ظلالها ويتناقلون الأخبار ويرتوون من ماء بئر بعيا أو من بئر السلع ويتزودون من الماء العذب لمواصلة أسفارهم.

إن الشهانة هي العلامة الصحراوية الطبيعية البارزة التي أبدعتها يد الخالق، والتي عرفتها أجيال عدة متتالية من أبناء أرض السلع، ما أكسبها الكثير من الذكريات فظلت شامخة في أذهان المعمرين من الرواة، إنها رمز الشموخ والصبر والتحدي ولسان حال الماضي في قلب جفاف البيئة، السيد المعمر سالم بن فطيمة المنصوري يروي قائلاً: «إن الشهانة معناها أنها بينة في الأرض، وهي منذ البعيد جداً كانت أبرز المعالم البيئية الطبيعية في أرض المجن كلها». إن «الشهانة» هي الغافة الوحيدة بهذا العمر والحجم والمساحة في الأرض، حيث كانت جزءاً من غابة ضخمة يذكر أنها كانت تمتد غرباً إلى منطقة «الخشوم» على حدود دولة الإمارات العربية المتحدة مع المملكة العربية السعودية، والغويفات إلى الجنوب من مدينة السلع، ولكن نظراً لعوامل عدة سواء طبيعية أو من صنع الإنسان بدأت الغابة بالتلاشي رويداً رويداً حتى لم يبق شاهد عليها سوى شجرة «الشهانة».

يذكر أن المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - زار «الشهانة» في عام 1970 كونها رمزاً من رموز المنطقة ودلالة لكل القادمين على المكان، وأمر زايد على الفور بأن تروى الشهانة بواسطة الري الحديث، مع إسناد فروعها المائلة بدعامات معدنية خوفاً من سقوطها، وبإعطائها المزيد من العناية لكي تحافظ على اخضرارها وبقائها، كما أمر بأن تزرع منطقة الشهانة على مساحة 301 هكتار بالأشجار المحلية لتكون محمية للحيوانات البرية. وأطلق عليها اسم غابة «الشهانة» تيمناً بالشجرة التي صمدت هذه السنين كلها، مشيراً إلى أن شجرة «الشهانة» لم تعد وحيدة كما في السابق، فلقد

شجرة المرخ

شجرة الغويف

عادت الغابات التي تلاشت خلال سنوات القرن الماضي وبفضل القيادة الرشيدة أصبحت أشجار الغاف تملأ المكان والطرقات. ويعتقد أن سر بقاء «الشهانة» يكمن في جذورها الضاربة في الأرض وقربها من المياه الجوفية الموجودة في المنطقة، حيث تعتبر شجرة «الشهانة» أحد هذه الموروثات ورمزاً للقوة والبقاء ورمزاً تاريخياً للأجيال القادمة.

## اسم الشهانة

يقال إن اسم الشهانة جاء من مسمى لأصغر عملة مستخدمة في تلك الفترة وهي (أنه)، وذلك لأنهم كانوا يرون الشجرة من مكان بعيد صغيرة جداً، فيقولون: تلك شجرة الغاف الشامخة القريبة من بعيا السلع نراها (شبه أنة) أي كما (الأنة)، وهكذا ترددت كلمة (شبه الأنة) لتصبح الشهانة، لافتاً النظر إلى أن هذه الرواية التي إحدى الروايات عن اسم الشهانة تسمع من الكبار. وكانت شجرة الشهانة تستوطنها العديد من الطيور والحيوانات والزواحف، وظلت الشجرة الوحيدة التي استعصت وقاومت بشموخها جميع الظروف البيئية من تصحرٍ وجفافٍ ورياحٍ منذ مئات السنين، وكانت معلماً يقصده الرحالة والمسافرون وقتها للاستظلال بظلها والنوم تحتها من شدة القيظ، وهي قائمة حتى يومنا هذا. واختلفت الروايات حول سبب تسمية الشجرة بهذا الاسم، وإن ذهبت معظم هذه الروايات إلى أن الاسم يرجع إلى علوها وارتفاعها، حيث كانت معلماً للمسافرين الذين كان يمكن أن يشاهدوها من منطقة براكة التي تبعد 60 كيلومتراً عن المدينة، فمن هنا جاءت الكلمة من الشهة والبيان.

وتتكون «الشهانة» من خمسة فروع كبيرة، يمثل الفرع الواحد منها شجرة قائمة بذاتها، لقد أمر الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - أن تزرع الأشجار الحرجية من الغاف والسدر والسمر والغويف والمرخ وغيرها من الأشجار التي تلائم البيئة الصحراوية في هذه المنطقة ودرجة الحرارة العالية وتتحمل العطش والرطوبة حولها. كانت بداية العمل في إعداد هذه الغابة وتشجيرها في عام 1976م. وقد توافرت للمشروع الإمكانيات الفنية والبشرية والزراعية اللازمة كافة، وعلى الرغم من مشكلات شح المياه وملوحتها التي تعانيها هذه البقاع نسبياً، خاصة في البدايات، فإن مشروع الغابة أصبح أمراً واقعاً نابضاً بالحياة الخضراء لقد غدت ساحة الشهانة الأم روضة غناء تغطيها الأعشاب من مختلف الأطراف، وكذلك بعض أشجار النخيل وغيرها من الأشجار، كما عادت أسراب الطيور تحلق وتغرد بين أحضانها وبنت أعشاشها، وتجمعت مناحل العسل.

## الشبهانة محطة استراحة

لقد كانت الشهانة منطقة، وغافة محطة راحة واستراحة، ومركز جذب مثيراً واستراتيجياً مهماً لأبناء القوافل البدوية المرتحلة في ربوع أرض المجن ماضياً، وغدت اليوم أكثر إثارة وجاذبية للإنسان أفراداً وعائلات كباراً وصغاراً، لم يقتصر الأمر على اتخاذ الشهانة محطة استراحة وعبور استراتيجي على ماضي التنقل والترحال بواسطة الإبل، بل إن غافة الشهانة كانت محطة استراحة نهارية فقط، خاصة في موسم الشتاء والبرد، ذلك أن ارتفاع الغافة عن الأرض لا يحجب البرد ليلاً، وهو الأمر الذي تتكفل به أشجار المرخ المنخفضة والكثيفة، لذلك فإن المستقرين الذين كانوا لا بد لهم من اختيار الشهانة محطة استراحة نهارية، كان أهالي المنطقة سرعان ما يطلقون العنان لحلالهم من الإبل والمواشي – إن وجدت – لتسرح وترعى في أرجاء المنطقة وتتغذى من أشجار المرخ وغيرها، بينما كانوا هم يشعلون (الضو) لإعداد القهوة العربية ذات النكهة، يرتشفون منها فناجين عدة تحت ظلال الغافة، وقد ينطلقون أحياناً للقنص في مواسمه أو الرعي، بينما تقوم النساء في الطرف الآخر من المساحات المترامية لظلال الغابة بإعداد ألذ الوجبات على لحوم الأرانب أو الكروان والحبارى، وهكذا كانت الصورة كل نهار إذا ما دام الاستقرار لأيام عدة، بينما يكون الاحتماء من البرد بين أشجار المرخ عند المبيت ليلاً، ولكن غالباً كانت الراحة في ظل الغافة تستغرق ساعات من اليوم فقط، كما وجدت أشجار الغاف في بعض الأماكن على طول طرق التجارة القديمة التي ترجع إلى عهد ما قبل ظهور الإسلام وطرق الحج في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية. وقد بلغ اهتمام الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بشجرة الغاف وغيرها من الأشجار أن جعل المحافظة عليها في مختلف مناطق إمارة أبوظبي أمراً مهماً بحيث لا يضحي بوجودها في مشاريع العمران وشق الطرقات، وفي رسالة وجهها إلى الشيخ طحنون بن محمد آل نهيان، ممثل حاكم أبوظبي في المنطقة الشرقية، رئيس دائرتي البلديات والزراعة، يقول رحمه الله: (لقد لاحظنا أثناء تجوالنا في أنحاء البلاد أن عدداً من الشركات المنفذة لمشاريع تمديد أو تصليح أو تحويل قنوات الخدمات وكذلك بناء أو توسيع الأرصفة أو القيام بمشاريع بناء مختلفة تقوم بقلع الأشجار بدون ردع أو حساب... ولهذا فإننا نأمركم بإصدار تعليمات صارمة وواضحة لجميع الشركات العاملة في البلاد بعدم جواز اقتلاع الأشجار لأي سبب كان وأن جميع الأعمال التي تتم لتمديد أو تحويل قنوات الخدمات أو أي أعمال ترميم أو إنشاء أو ترصيف أو بناء آخر يجب أن يتحاشى اقتلاع أي شجرة أينما وجدت، حتى ولو كانت هذه الشجرة في طريق تمديد الخدمات يجب تحاشيها وكل من يخالف يتعرض لأشد العقوبات وذلك من تاريخ استلامكم هذا الأمر». لقد كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - لديه الكثير من الوعي بأهمية المحافظ على شجرة الغاف إيماناً بدورها وقيمتها في حياة الإنسان على المستويات جميعها الحياتية والمستقبلية ■

رئيس قسم الأرشيفات التاريخية-الأرشيف الوطني

## من رمضاء الصحراء إلى ظلال القصيدة

# الغاف في وجدان محمد خليفة بن حاضر

عادل نيل

**الإنسان ابن بيئته، تلك حقيقة اجتماعية تنبني عليها قاعدة نقدية في قراءة النص الإبداعي، إذ تتشكل تجربة الأديب من مكونات محيطه البيئي، بالصورة التي تدخل في الحكم على مدى صدق التجربة وعمق انتماء المبدع إلى ما يُنشّأ عليه وجدانه من مشاهد، ومن ثمَّ يشكل الأدب وعاءً ثقافياً ومجتمعياً أميناً.**

**وفي بيئة الشاعر الإماراتي، تمثل الطبيعة حضوراً لافتاً للنظر في معجمه الشعري، مفرداتٍ وتراكيبَ، حيث شكّل البحر والصحراء وما يرتبط بهما من عناصر، الملمح الأبرز في تجاربهم، ساعد في ذلك ارتباطهم بهويتهم وعمق انتمائهم لإرثهم الحضاري، بالإضافة إلى أنهم يرون في هذه البيئة جزءاً من ماضيهم، وما يحيا في ذاكرتهم بين تحولات النهضة الحضارية التي أتت مع تدفق ثروات النفط، وتغير ملامح الواقع الاجتماعي.**

ومن عناصر الطبيعة التي ترتبط بالموروث الثقافي في البيئة الإماراتية شجرة الغاف، التي أعلنت الدولة عام 2008 أنها الشجرة الوطنية لها، وكانت شعاراً رسمياً لعام التسامح 2019، لترسخ مكانتها في وجدان المجتمع، وتأخذ بُعداً جديداً، بوصفها رمزاً إنسانياً يحمل المحبة والتسامح والتآخي الإنساني، يضاف إلى مكانتها الاجتماعية، بوصفها مصدراً مهيئاً لاستقرار الأجداد في الصحراء، ومَجْمعاً تحت فيء أغصانها، ويأتي حضورها في أعمال أدبية امتداداً لذلك، نثراً وشعراً، باعتبارها جزءاً من تاريخهم الجغرافي والحضاري، وهو ما نقرؤه لدى الروائي علي أبو الريش، على سبيل المثال، الذي يقول في إحدى رواياته: «الغاف لا يتحرك حتى لو هبّت الريح العاتية فإنه يغرس سيقانه بصمود وجسارة ليبقى حارساً على الأشجار الأخرى التي تهوي صريعة بسبب العصف السماوي.. الغاف لا يغيّره التاريخ، ولا يُلوّنه طقس، بل هو شاهد كل مجريات الكون المتغيرة والمتحولة، هؤلاء الذين جاؤوا إلى هنا منذ الأزل صمدوا كما الغاف، فلم تثب إلى أذهانهم فكرة التحول»[1].

فشجرة الغاف تتشابه مع الشخصية الإماراتية في العديد من المعاني، كالرسوخ الذي يعكس عمق الانتماء للأرض التي تنغرس فيها بصلابة وقوة، والصمود الذي يُحتمى به مهما كانت العاتيات وعوارض الزمن، والثبات الذي لا يغيره التاريخ ولا يخضع لتحولات الواقع، والشموخ الواعي الذي تقف معه شاهدة على كل ما يمضي، لتقف حارسة على قيم رفيعة المضمون والمستوى تشكل طبيعة الشخصية الإماراتية، وتعكس قيمة شجرة الغاف في وجدان المجتمع، إذ إنهما ينتميان إلى بيئة حضارية واحدة، هي حضارة الصحراء.

ومن بين شعراء الإمارات الذين ارتبطوا بالطبيعة محمد خليفة بن حاضر[2]، حيث شكّلت حضوراً كبيراً في تجربته الشعرية، لا سيما تلك الطبيعة التي ترتبط ببيئته الإماراتية، وقد شهدت قصائده تغنياً بالشواطئ والصحراء، واستدعاء مفردات من البيئة الجغرافية التي يلوذ بها حين يأخذه الحنين إلى ماضيه، كما شدا بالطبيعة التي كان متيّماً بها، وتقع منه موقع الروح

من الجسد، فهي كما يقول في قصيدته (أنا والطبيعة) توأمان، بُعد أحدهما عن الآخر هو نحْرٌ دونما سيف، وعناقهما هو لقاء نابض بالحياة ونغماتها[3]:

**أنـــا والطبيعـــةُ توأمـانِ: فِراقُهـــا**
**وعِناقُهـــا بعدَ الفِراقِ يعيـــدُ لـــي**
**نحْـــــرٌ بلا سيـــــفٍ ولا نحّـــــارِ**
**نبضَ الحيـــاةِ وأنبـــلَ الأوطـــارِ**

ووسط هذه الطبيعة التي تتعلق بها روحه تقف شجرة «الغاف» بخصوصيتها في هذا الاندماج مع بيئته، إذ يرى فيها ظلاً وارفاً تأنس به روحه، وهدأة يستقر فيها بعد غربة الترحُّل التي كان يعيشها بحكم طبيعة حياته الدبلوماسية التي فرضت عليه تنقلاً وغربة عن أرضه، فوجد في تلك الشجرة حضن الوطن الدافئ الذي يتمنى ألا يفارقه، يقول في قصيدة (أرض النخيل)[4]:

**سئِمتُ الرحيلْ**
**عَشِقْتُ النزولَ بظلٍ ظليلْ**
**هُنا حيثُ أسرجتُ يوماً**
**جوادَ السفَرْ**
**أجَلْتُ البصرْ**
**وقلتُ لمهري الأصيلْ**
**توقفْ عن الضَّبْحِ**
**كفكفْ جماحَ الصهيلْ**

وبين هذا الشعور العميق برغبته في أن يستوقف تلك النفس الرحالة، وأن يترجل الفارس عن جواده الذي أراد له أن يكف عن صهيله في حومات الغربة، ليعود إلى حيث موطن عشقه بين الصحراء، فيمد بصره بين رحابتها ليطالع السماء وقد احتضنت القمر حين يغفو بين غيمات السحاب، ويطالع الأرض فإذا بأغصان الغاف والسدر تظلل كل من يأوي إليها من بني البشر، فهي أرض، حين تمنح الجمال والظلال، لا تفرق سماؤها ولا أرضها بين أحد[5]:

**فكفكفَهُ ورمالُ الصحارى تموجْ**
**ونورُ القمرْ**
**يداعبُ أذيالَ غيمٍ ظهرْ**

**وأغصانَ «غافٍ» وسدرٍ**
**تُظلّ البشرْ**

والشاعر في استدعاء شجرة الغاف، سنجده كثيراً ما يربط بينها وبين التعبير عن الأبعاد النفسية التي تتداعى مع الحنين إلى الماضي وما فيه من ذكريات، ليربط بين المشاهد الحسية في تلك الطبيعة التي ارتبط بها والأحاسيس الداخلية لذاته التي لا تجد مؤنساً في وحشة واقعه النفسي، فيقول في قصيدته (عودي) التي يلتمس فيها عودة ماضيه لتعود أمنياته الضائعة وأيام صباه باخضرارها بعد أن ذبلت في شتات ما ضاع[6]:

**كـــــمْ ليلـــــةٍ غنـــيتُ لـــلاَ**
**ريـــــحٌ تـــــئنُّ بحرقـــــةٍ**
**فنضـــــارة «الغـــاف» النضيـــــ**
**والـــوُرْقُ أصبـــــــحَ صوتُهـــــا**
**تـــــي ولـــم أظفـــربآتـــــي**
**ثكـــلى.. تـــئنُّ عـــلى رُفـــــاتِ**
**ـــــرتبـــــددت في الخاليـــــاتِ**
**خِلـــواً من النغـــم المؤاتـــــي**

اشتق الشاعر من مفردات الطبيعة ما يعبر به عن حالته الشعورية، فجعل من تحولات تلك الطبيعة ما يجسد أحاسيس الأسى، جامعاً بين الماضي وموجعات الآتي الذي راح يغني له دون أن يظفر به، وبين ريح تئن بحرقتها كأم ثكلى تعاني مرارة الفقد بنواح الوجع على رفات «الغاف» الذي تبددت نضارته، يبكي ابن حاضر عمراً كانت شجرة الغاف فيه جزءاً منه، وعنواناً للحياة التي يعيش على وقع ذكرياتها[7]:

**يـــا «غافـــةً» حملـــتْ مـــدى**
**وحملتُهـــــــا فـــي خافقـــــي**
**عمـــــري سمـــــاتٍ من سماتـــي**
**عُنـــــوانَ شـــوقٍ للحـــــداةِ**

على امتداد عمره تأخذ شجرة الغاف سماتٍ من شخصيته، فلا عجب إذاً أن يحملها بين خافقيه عنواناً للأمل والشغف بوجوده الإنساني الذي عبّر عنه بشوق الحداة، اشتقاقاً من البيئة الجغرافية التي ترتبط بتلك الشجرة فناسبها حداء الإبل، إذ يرتبطان سويّاً بما ينتمي إليه الشاعر من إرث.

وهذا الذبول الذي يأتي على غير معهود تلك الشجرة التي تتحدى ظروف قاحلات الحياة القاسية، وتتأبى على أن يمسها جفاف الرمضاء، يعكس معه معاناة الشاعر الذي راح يبحث عن ظلال

الحياة مدفوعاً بالأماني في أمس فيه من زاهرات الأمل والشوق ما فيه، فإذا به أمام حقيقة تخالف واقع الأمور لينتهي شعوره باستفهام لا ينتظر عنه إجابة، لأنه خطاب إلى النفس يقرر بتساؤلاته إليها واقعاً نفسيّاً تسمع أسى نبراته في البحث اليائس عن ذلك الأمس الوارف (في ظل غافة) والتي جعلها عنواناً لمقطوعته الشعرية[8]:

**لا تندفـــعْ خلـــفَ الأمانـــي واتّئِـــدْ**
**واحـــلُلْ بذي الأطـــلالِ لا ترحـــلْ إلى**
**للأمـــسِ يشتـــاقُ التلفّـــتَ خافـــقٌ**
**أيـــانَ كان لك الغـــرامُ مؤاتيـــاً**
**عمّن تنقّـــبُ تحـــتَ ظلِّ «غويفـــةٍ»؟**
**أنـــخِ الركـــابَ فما طلـــبتَ بعيـــدُ**
**ذكـــرى الهـــوى، إن الطلولَ شهـــودُ**
**أيانَ عمـــــرُكَ في الحيـــاةِ وجـــودُ**
**حُـــرّاً تنـــــوّه باسمِـــهِ وتُشيـــدُ**
**ذبُلـــتْ وصـــوّحَ زهرُهـــا المعهـــودُ**

تبدأ الأبيات بإنشائية النهي في عدم الاندفاع خلف الأماني، وإنشائية الأمر في استيقاف الركب بين أطلال تشهد بذكريات لم يعد منها ما كان في أمسها، ثم تنتهي الأبيات بإنشائية استفهام استنكاري وكأنه أتى تعليلاً لذلك التحول العميق في واقعه، فما ليس عهده الذبول قد انزوى زهره، فلا جدوى إذاً من البحث عن أشخاص وذكريات تحت ظل «غويفة» غاب نضيرها وذبل اخضرارها، وتشقق زهرها من الذبول، ليكشف لنا الشاعر بهذه الرمزية التي وظف فيها «الغاف» أن تلك الشجرة تشكل معياراً لعمق ذلك التحول الذي أصاب الإنسان والمكان.

والبحث عن هذه الظلال التي يبكيها الشاعر في أسى يجده في تبدلات الطبائع، أو في الشعور بهجير الحياة مع اغتراب ذاته فيها إما بغربة الأسفار وإما باغتراب روحي في واقع يحن معه إلى ماضيه،

كل ذلك قد مثّل دافعاً لتجارب شعرية وشعورية عميقة، وسنجد صراعاً داخلياً جلياً بمتغيرات واسعة المسافات ترتبط بالمكان الذي انتهت به تحولات الواقع إلى حالة اغترابية كانت البيئة بما فيها من غرس، نباتاً وشجراً، جزءاً من التعبير بها والتعبير عنها، يقول الشاعر في قصيدة «ظلال الغاف»[9]:

**لا البَرُّ برّي ولا الشُّطآنُ شطآني**
**و«الراعيُّ» جفلني.. كان يألفُني**
**حتى «الدعاثيرُ» ما عادتْ تَذَكّرني**
**كم لي على رملِها من ذكرياتٍ صِبا**
**وأمنياتٍ رسمنها بلا خططِ**
**إذ لم تعُدْ مثلما عُوّدتُ تلقَاني**
**أيامَ كانت ظلالُ «الغافِ» تهواني**
**وكنتُ ألهو غريراً بينَ أقراني**
**لصحبةٍ من صبياتٍ وصبيانِ**
**حلمَ الفراشاتِ شمَّت ريحَ نيسانِ**

هذا الشعور تتكامل في تعميقه وصدق تمكّنه في ذات الشاعر كلُّ مكونات المكان من حوله، فالبرّ على امتداد صحاريه وفيافيه لم يعد يعرفه، والشطآن التي يألفها وتألفه لم تعد تلقاه مثلما تعوّد، حتى الحمام البري الذي كان يأمن معه، صار يفزع ويخاف في حضوره، ولا عجب في ذلك كله بعد أن انقطعت بين الشاعر وظلال الغاف ألفةُ الود التي عهدها معها، فكل شيء في الوجود صارت تحكمه مشاعر اغتراب، تتنامى معه كلما استدار بعينيه في المكان، سواء أكان إنساناً وطيراً، حجراً وشجراً، كل شيء يخضع لرؤية نفسية واحدة، «فالإحساس بالغربة عند الشاعر إحساس معقد، وهو عبارة عن حلقات من التجارب المتسلسلة النامية التي تنتهي بالحيرة والقلق والحزن، نتيجة الاصطدام والصراع مع المكان الجديد والغريب عن انتمائه وشعوره»[10].

والشاعر في هذا الشعور الاغترابي لا يعبر عن حالة فردية أو عن شعور رومانسي حالم، بقدر ما يحمّل قصيدته بُعداً اجتماعياً، فهو يجسد الواقع بتحولاته العميقة حين يستدعي ماضياً يعكس به ذلك التباين الذي أفضى به إلى اغتراب روحي، وهو ما يجسده عنوان قصيدته (ذكريات الأطلال) التي يعبر فيها عن شوق إلى بساطة العيش التي يفتقدها بين أطلال درستْ معالمها، ولم يعد منها غير ذكريات باهتات الملامح[11]:

**جدتي كانت تمجُّ « الغافَ» والأرْطَى هنا**
**في تُخوم العِدِّ «مِرْغِمْ»**
**ظِلُّه الوارفُ مأوى السَّرْح من دون بطاقةْ**
**ولداتي يتحروّن الدَّبَى كانوا هنا**
**شوقاً إلى العَرْيُونِ والطَّرْثُوتِ**
**لَقْطِ الفَقْعِ ما أشهى مذاقَه**

يحن الشاعر إلى ذكرياته مع جدته التي كانت تقطع أشجار الصحراء «الغاف، والأرطى»، وإلى شواخص المكان وملامحه في «العِد» (البئر أو الماء الجاري)، و«المِرغِم» (مورد مائي بين العين ودبي)، يشتهي تلك الأعشاب البرية اللذيذة الطعم «العريون، الطرثوت»، فالحنين المتقد بين جوانحه يفتقر معه إلى تلك البساطة التي غابت مظاهرها عن بيئته، جاعلاً من تغيرات تلك البيئة معادلاً للتعبير عن موضوع اجتماعي أعمق من كونه مجرد نزوع ذاتي أو حالة شعورية عابرة، ولذلك أقام الشاعر في قصيدته (على مضض) هذا المعنى المجتمعي بإشارات رامزة للأسى الذي يثيره حنينه إلى زمان مفقود يفتش فيه عن ملامح مجتمع تغير ما فيه[12]:

**أجيبي يا إشاراتِ الأسى**
**حقاً سِباخي أنبتتْ ذَهَباً**
**وصار «الغافُ» تفاحاً**
**وصار الهَرْمُ رُماناً**
**وسِدْرَةُ بيتِنا حقاً تَدَلَّى عِنبا؟**

ولعل حضور شجرة الغاف في قصائد ابن حاضر يعود إلى كونها رمزاً جامعاً بين أبناء مجتمعه الذين يخاطبهم بشعره حتى وإن كانت تحمل شعوراً فردياً في ظاهر معانيها، «وهذه المكانة للغافة لدى ابن الإمارات لم تنافسها عليها شجرة أخرى سوى النخلة، مع أخذنا في الاعتبار الخصوصية التي تتمتع بها كل واحدة منهما»[13]،

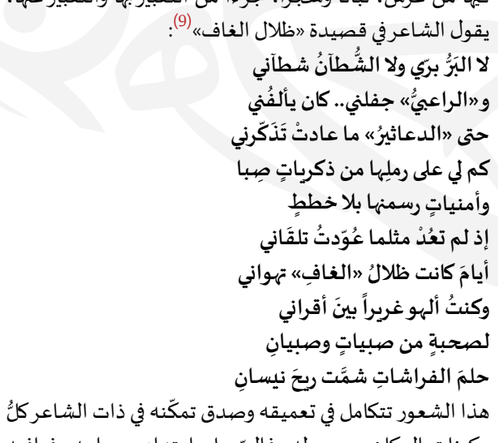

يرسخ ذلك قدرة هذا التوظيف الفني لشجرة الغاف في التعبير عن الوجدان الجمعي، بكل ما تحمله من دلالات ترتبط ارتباطاً عميقاً بتاريخ المنطقة وتراثها الثقافي والمجتمعي ■

كاتب وأكاديمي مصري

**الهوامش والمراجع:**


1. علي أبو الريش، ك- ص: ثلاثية الحب والماء والتراب (رواية)، وزارة الثقافة والشباب وتنمية المجتمع، أبوظبي - اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، ط 1، 2007م، ص 428.
2. محمد بن خليفة بن حاضر آل بومهير (1945م - 2011م): من مواليد دبي، درس إدارة الأعمال في جامعة ليدز البريطانية سنة 1967م، والتحق بالعمل الدبلوماسي إلى أن أصبح قنصل الدولة العام في باكستان، ثم ترك السلك الدبلوماسي عام (1981)، واتجه إلى العمل الاستثماري، وقد عُرف بنزعته القومية التي وضحت جلياً من أعماله الشعرية، وإسهاماته في تأسيس مؤسسات ولجان وطنية عدة تدعم العمل التطوعي لخدمة الوطن العربي، وتعبّر قصائده عن حس وجداني عميق عبّر من خلاله عن كثير من همومه الذاتية والوطنية والقومية (يُنظر: محمد خليفة بن حاضر المهيري: استعادات وامضة لجماليات الراحل المسافرة، إعداد وتقديم: إبراهيم الهاشمي، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ط 1، 2012م، ص 7 وما بعدها).
3. محمد خليفة بن حاضر، ديوان السمر، منشورات غاف، الإمارات العربية المتحدة، 2022م، ص 80.
4. محمد خليفة بن حاضر، توقيعات بأوتار الحداثة، منشورات غاف، الإمارات العربية المتحدة، 2023م، ص 19.
5. المصدرالسابق نفسه، ص 19.
6. محمد خليفة بن حاضر، في موكب الحب والحياة، منشورات غاف، الإمارات العربية المتحدة، 2022م، ص 68.
7. المصدرالسابق نفسه، ص 68.
8. المصدرالسابق نفسه، ص 91.
9. في موكب الحب والحياة، ص 91.
10. د. عائشة علي بالقيزي الفلاسي، المتغير في الرؤية الشعرية الإماراتية، لجنة إدارة المهرجات والبرامج الثقافية والتراثية «أكاديمية الشعر»، أبوظبي، ط 1، 2019م، ص 89.
11. توقيعات على أوتار الحداثة، ص 10.
12. المصدرالسابق نفسه، ص 115.
13. سلطان العميمي، معجم الغاف في دولة الإمارات، لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية «أكاديمية الشعر»، أبوظبي، ط 2، 2020م، ص 29.

# أشجار مريم جمعة فرج

## حكايات .. و .. حياكات

عبد الله محمد السبب

**هل السارد كالشاعر؟ هل صانع القصة كصائغ القصيدة؟ هل كاتب الماضي ككاتب الحاضر أو المستقبل؟ هل زائر البحر، ومؤرخه ومتوخي الحذر من تقلباته، وقوانين عواصفه، وغموض عواطفه.. كمتتبع أثر الشجر، في الصحاري والبراري والسهول، وفي مساكن البشر؛ لاستضافته في نفسيته، وفي صلب مشاريعه، وفي دائرة اهتمامه؟**

**هل، وهل، وهل..؟!**

**أسئلة كثيرة، ومتعددة في معانيها ومرامها، وفي مواضعها وفي موضوعاتها؛ فيما تبقى الأجوبة على، أو بين، أو في سطور مبدعي الروايات والقصص والقصائد؛ من أولئك، تأتي الرائدة القصصية الإماراتية «مريم جمعة فرج» رحمها الله؛ فماذا عن قصصها، وقصص الشجر في عالمها السردي، السوي المفردات والمعاني، عبر الزمان والمكان الكائنين في جغرافيتها القصصية..؟!**

**أشجار تراثية:**

**يموت الشجر واقفاً وظل الشجـــر ما مـــات**
**رياح الدهـــــر تصـرخ وهي تجـرح جنوبـــه**

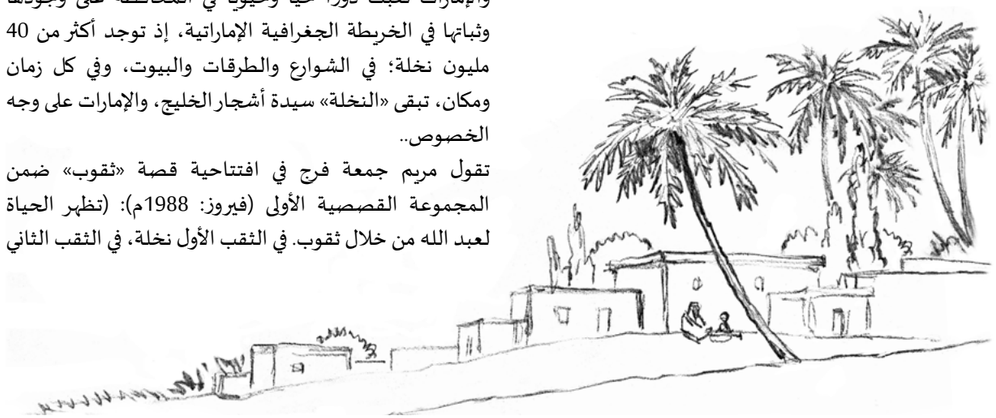

### «الأمير خالد الفيصل»

نقترب قليلاً من العالم القصصي لـ«مريم جمعة فرج»، الممتد زمناً من عام 1988م، حيث باكورتها القصصية (فيروز)، حتى عام 1994م، حيث الإصدار القصصي الثاني (ماء).. لنتقصى أثر «الشجر» في معجمها اللغوي السردي القصصي: (النخل والغاف والسدر والسمر والصبار، والبابونج والخردل، والمانجو، والبرتقال، والشوك والأعشاب، و...).. نحكي حكاياتها، ونتتبع حياكاتها؛ فلـ«أشجار مريم» صلة وثيقة بالتراث النباتي الخليجي الذي يبوح بأسراره ويُسِرُّ البشر:

### شجرة النخيل

قال تعالى: {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} (ق: 10). منذ آلاف السنين والإمارات وشعبها على علاقة وطيدة مع «النخلة»، هذه الشجرة الطيبة المباركة، التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.. وهي مأكولة الثمر رطباً ويابساً، ويستخدم جذعها وأوراقها كمواد للبناء، وتستعمل أوراقها في صناعة السلال والحصير، وألياف النخلة تستخدم في صنع الحبال، ونواتها تستخدم كطعام للبهائم ويمكن أن تستخدم كوقود.. عاش عليها الآباء والأجداد وما زالت الأجيال تعيش على رُطبها في الصيف وتمرها في الشتاء، فالتمر يشكّل أهم مصدر غذائي في المناطق الصحراوية في العالم؛ والإمارات لعبت دوراً حياً وحيوياً في المحافظة على وجودها وثباتها في الخريطة الجغرافية الإماراتية، إذ توجد أكثر من 40 مليون نخلة؛ في الشوارع والطرقات والبيوت، وفي كل زمان ومكان، تبقى «النخلة» سيدة أشجار الخليج، والإمارات على وجه الخصوص..

تقول مريم جمعة فرج في افتتاحية قصة «ثقوب» ضمن المجموعة القصصية الأولى (فيروز: 1988م): (تظهر الحياة لعبد الله من خلال ثقوب. في الثقب الأول نخلة، في الثقب الثاني



ناس، وفي الثقب الثالث مطر. بينما يحتضن عبد الله ثقب الباب بحدقتيه، يبصر شيئاً كنشوز عظامها من الجلد ثم انثناء رقبتها الطويلة ورأسها اليابسة مكومين في القفص الصدري، ضاغطين إياه داخل التجويف العميق للأرض وتنساب استذكارات العجائز عن الإخصاب ويتحلق الصبية حول النخلة النخرة العجوز.

يهمس بعض الصبية: النخلة مثل الآدميين تتنفس من رأسها!

ينظر إلى السماء، يخامره إحساس بتوقف الأشياء، ثم تسقط النخلة العجوز مشيعة بالنكات قبيل المساء): (ص 49).

وتقول: (وضعت جدتي يدها في صفيحة التمر، وملأتها وهرسته.

قالت لي: راقبي النخلة.../ لماذا؟/ عندما تموت النخلة نعرف كل شيء./ كيف/ يتساقط كل الرُّطَب منها، عندما ذبل النخيل، تبدأ الحرب، هكذا يقولون.../ من؟/ كلّ الناس./ إذا ماتت النخلة، ماذا نفعل؟/ نمكث في البيت أو نهرب./ إلى أين؟/ أوه، إلى الصحراء./ إلى البرّ.. قلت: أجل... أجابت.

ملأت جدتي الصفيحة بالتمر وسحبنا الصفيحة التي بها المالح): (ص 11: أعداء في بيت واحد).. (ماء: 1994م).

### شجرة السدر

نشير هنا إلى أنّ شجرة «السدر» ومفردها «سدرة» تنتمي إلى فصيلة النباتات الفصلية «النبقية»، حيث ثمرة السدر تسمى في بعض البيئات «النبق»، وفي بيئات أخرى تسمى «الكنار»؛ وللسدر منزلة كبيرة لدى أهل الخليج من حيث أوراقها وثمرها ومكانتها الدينية. تقول مريم: (وتتخاطفك النماذج المترهلة ويسقط ظل السدرة العجوز على وجهك كثيفاً فيهرب الأولاد و...): (ص 23: درويش).. (فيروز: 1988م).

### شجرة اللوز

هنا؛ حيث شجرة «اللوز»، ومفردها «لوزة»، وتسمى في مناطق أخرى «البيدام»، مثل باكستان؛ وهي شجرة تاريخية منذ عصور طويلة.. موطنها الأصلي الهند ومدغشقر، وقد جُلبت إلى الدولة منذ أزمنة بعيدة، وانتشرت زراعتها وأصبحت من الأشجار التي تأقلمت مع البيئة المحلية الإماراتية، لتصبح من الأشجار المحببة لأهل الخليج عامة، وأهل الإمارات خاصة.. شجرة مريحة للنفس، وهي عروسة فصل الصيف؛ مغذية، ذات ثمار صفراء وحمراء، بطعمها الخليط بين الحلو والحامض.

تقول مريم: (التصق الصغير بأمه، صارا يتهامسان عن مطر الموسم الماضي، وعندما يتربع الوالد والوالدة تحت اللوزة الخضراء يكون الأمر مهماً والهمس كله شجون وربما تشاجرا أيضاً، يدفنان حديثهما تحت اللوزة ولا أحد يدري بعد ذلك ما يفكران فيه، وعلى رأي أم ربيع: كل شيء مدفون تحت التراب!): (ص 93: الريح).. (فيروز: 1988م)..

وتقول: (لم يعد يرى أو يسمع صراخ أم ربيع أو أي آدمي، أحس ساعتها بالموت. ما حدث ذلك المساء لم يُمته ولكن حطّم أعماقه، سقطت الدموع من عينيه الحمراوين ممزوجة بالتراب والماء، وسحبت أسقف الصفيح كما تُسحب الأقنعة، وترنّح مدفوناً في التراب: لا الحُوشْ حُوشْ، ولا الرمل رمل، ولا اللوزة لوزة): (ص 95: الريح).. (فيروز: 1988م).

### شجرة السمر

شجرة معمّرة؛ يصل عمرها نحو 200 سنة وأكثر، ويصل معدل ارتفاعها ما بين 1 متر و5 أمتار، ولا تحتاج إلى الكثير من الماء، تتحمل الجفاف لمدة عام كامل، وتمتد عروقها إلى 50 قدماً في التربة الرملية.. يكثر وجودها في السهول الحصوية، وفي بعض المناطق الرملية القريبة من الأودية بفل السيول، وفوق الجبال العالية الارتفاع.. تسمى «الأكاسيا»، وتوصف بشجرة «المظلة الشائكة».

شجرة كريمة معطاء، متعددة الأغراض والفوائد للإنسان والحيوان معاً؛ يُستظل بها من أشعة الشمس، وتُوقد النار من حطبها وحطب مثيلاتها من الأشجار، ويتغذى النحل على رحيق زهورها.. ليبني خلاياه، ويصنع أجود أنواع العسل، ليكون غذاء للإنسان ودواء له من كل داء.

تقول مريم: (الآن.. تثاءبت الجدران، انتعش السِّمر والصبّار، وعادت لتطبق بيدها على أنسجة الجدار كما لو أنها كانت القابلة وأنّ الحلم هو الجنين): (ص 27: جفول).. (فيروز: 1988م)..

وتقول: (عندما يكبر جسدها سيرحل الشيخ ويغادر، وعندما يتضخم الجدار لن تبكي، السمر والصبار سيحكي وتظهر الجهات ويرفس الحلم ويعبر الحائط وتمر بمرقد الشيخ، تمر بالقبور والمراقد، وتقرأ..: لا شيء غير أنه يخرج الحي من الميت... وعندما تنتهي، تهز الجذوع وترش الماء وتقلب السمر وتحمل السراج وتحتكم إلى جهاته): (ص 29: جفول).. (فيروز: 1988م)..

وتقول: (قالت جدتي وهي تشير إلى التنور: انظري... هناك/ ماذا... هناك؟/ سبع قطّات.../ أين/ معلّقات/ معلّقات أين؟/ في التنور... والتنور يُريد حطباً، والحطب في السِّمرة، والسِّمرة تريد قدّوماً، والقدّوة عند الحطاب...): (ص 13: أعداء في بيت واحد).. (ماء: 1994م)..

وتوضح مريم: السِّمرة: شجرة صحراوية كانت تُستخدم أغصانها كوقود للطبخ.

### شجرة الغاف

اسمها المحلي «غافة»، وجمعها «غاف»، واسمها العالمي «البرسوبس» «Prosopis cineraria»؛ وتوجد بكثرة في غرب آسيا، وشبه الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية، حيث تُعرف في الهند وباكستان باسم «جهند»، وهي شجرة صبورة لها القدرة على تحمّل الجفاف، وبإمكانها البقاء خضراء حتى في البيئات الصحراوية القاسية، إذ تمتلك قدرة عجيبة على التأقلم المثالي مع البيئة الصحراوية القاحلة، ويمكن لأشجار الغاف أن تعيش لمدة تصل إلى 120 عاماً في المتوسط، وتتميز بسهولة تكاثرها وسرعة نموها، فهي تتكيف مع الأجواء البيئية المحيطة به بشكلٍ لا مثيل له، حيث تتعمّق جذور شجرة الغاف في التربة لمسافات عميقة يمكن أن تصل إلى 50 متراً، وهي توجد في السهول والكثبان الرملية، كما قد يصل ارتفاعها إلى 12 متراً.. وتمتد أهميتها للأنواع الحيوانية والنباتية على حدٍّ سواء.. إذ تُستخدم أوراقها وقرونها مصدراً للغذاء، كما تستخدم فروعها لتغذية الماشية، وتستخدم تقليدياً لخصائصها الطبية. ونظراً لأهميتها الثقافية والبيئية؛ أعلنت شجرة الغاف الشجرة الوطنية لدولة الإمارات العربية المتحدة في عام 2008م، وفي عام 2019م تم اختيارها شعاراً لعام التسامح باعتبارها رمزاً ثقافياً للاستقرار والسلام في بيئة الإمارات الصحراوية.

وعلى صعيد الإبداع الأدبي للكاتبة مريم جمعة فرج «رحمها الله»؛ فقد أنجزت قصة بعنوان (الغافة) التي وصفتها بأنها شجرة صحراوية قوية، وذلك عبر المجموعة القصصية (ماء) الصادرة في عام 1994م.

تبدأ القصة هكذا: (تشبه الغافة: هي، جسدُ الغافة الذي يمتلىء قوّةً رغم جفافه، جلد ينمو على العظم، ولونٌ باهت ورأس ناشرة الشعر الأجعد بلا انتظام أسفل الغطاء الكالح...

قال صهرها، وهو يُعاين قطعَ الأثاث البسيط الذي امتلأت به الخيمة المرمّمة حديثاً لاستقبالها.

صغيرة ذات رائحة ياسمين، جامدة الوجه، امرأة غافة.

كلهم اندفعوا لرؤيتها وبقي المجنون واقفاً مهوراً...): (ص 61: الغافة).. (ماء: 1994م)..

وعلى جانب أدبي آخر، وتحت عنوان (رمز من ثقافتنا يتجاوز الحواجز)؛ كتبت الأديبة مريم جمعة فرج «رحمها الله»، قبل رحيلها بنحو عشرة أشهر، مقالاً في صحيفة «البيان» الإماراتية بتاريخ الإثنين 18 فبراير 2019م.. تقول فيه:

(هذا التكريم الذي حظيت به في عام التسامح، يليق بها، لم يزرعها الناس في أفنيتهم أو مزارعهم، ولم يسقوها بالماء لكي تنبت كما تنبت الغالبية العظمى من الأشجار التي تزرع في بلادنا، لكن ما إن يُذكر اسمها، حتى تتداعى العديد من الصور المرتبطة بها، وبثقافتنا الصحراوية، ولعل أول صورة تتبادر إلى ذهنك، ما إن يأتي ذكر شجرة «الغاف»، هي صورة الحياة.

في ظروف قاسية، تشكل بيئتها الطبيعية، تستقر «الغافة» وسط صحراء الإمارات، بعيدة عن كل أشكال الحياة العادية، لتقاوم الفناء بكل أشكاله بالصبر والتسامح، لا ينال منها العطش، ولا تحرقها حرارة الشمس، ولا تقتلع جذورها الرياح، تراها في كل موسم مجنونة خضراء، تنمو وتتراقص أغصانها الرطبة المفعمة بالحياة. وعلى الرغم من هذه المسافة التي تفصل اليوم عن الأمس، تفصل بين أولادنا و«المجيجة» (طبق السلطة الشعبي المعد من أوراق الغاف الخضراء الطرية)، الذي كنا نتلذذ بطعمه، قبل أن نتذوق أطباقاً لا حصر لها من السلطات الوافدة إلينا من خارج الإمارات، وتلك المسافة التي زرعتها المدنية فينا، إلا أننا قد نتذكر حكاية البدوي الذي أناخ ركابه تحت شجرة غاف، متفيئاً ظلها، مستريحاً من عناء رحلة طويلة ممتدة، لتعانق روحه روحها، فيشدو.

قصص كثيرة عرفها الناس، فأصبحت أسلوب حياة، من قصة الحطب الذي كان يستعمل كوقود، إلى حكاية العطاء الذي لا يتوقف. تلك هي قصة الغافة، التي لا تزال هذا الكائن الذي يجبرنا على التماهي معه في طيبته وعطائه وقوته وشموخه وتسامحه، وكل ذلك يحدث في عالم أبوابه مشرعة على بعضها، يعج بالاختلافات والصراعات، ليمتد غصنها رمزاً للتسامح، ولم لا يكون كذلك، فالغافة رمز من ثقافتنا، يتجاوز الحواجز).

### خلاصة البحث

إنّ الكائنات النباتية لدى الأديبة مريم جمعة فرج «رحمها الله»؛ ليست ترفاً لغوياً، أو وجاهة شكلية في مشروعها السردي القصصي؛ بل هي شخصيات رئيسية في قصصها.. محكية بتلقائية وتقنية لغوية عالية، ومحاكة بفنية سردية خبيرة.. أكدت خلالها أنّ الشخصيات النباتية الماثلة في النصوص القصصية؛ سواء كونها كائنات نباتية بطبيعتها، كالسدر والسمر وغيرهما.. أم نماذج بشرية بتسميات أو صفات نباتية، كالغافة والنخلة وغيرهما.. إنما هي شخصيات لها أهميتها في النصوص، ولها مهامها الموكلة إليها لتؤدي أدوارها الحكائية على أكمل وجه ■

أديب وكاتب وإعلامي إماراتي

# الأيقونة الثقافية للأشجار في الإمارات

محمد نجيب قدورة

## 1 - أشجار الخير

**شبّه المرحوم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - الخير بأنه كالأشجار الباسقة الوارفة الظلال، وهو بطبعه يدرك ما للشجرة من أهمية في المعمار الحياتي، وليس هذا أمراً عجباً، وهو الملقب (بطل الأرض) وكان قد سمع من آخرين أن أرضنا لا تصلح للعيش، قال لهم: دعونا نجرّب، فكان المرحوم وفياً بالوعد والعهد، وكانت الشجرة أول اهتمامات القائد المعلم زايد لوعيه أن الشجرة لها رمزيتها في الوجود والاستقرار، وكونها آية من آيات الله، فذكرها الله في سور كثيرة منها سورة يس الآية (17) كعناوين للجنات والروضات في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾.. أجل في الإمارات الدلائل على أن الأشجار ثمرات وزينات ومفاتيح بداية الحياة الجديدة في نهضة العمران الزراعي للأرض، فبالشجرة تجسّدت معاني الخير في صير بني ياس وسائر أنحاء الإمارات، ثم كان ما كان من المعمارات الأخرى، وترسيخ الإحياء في الحدائق والمحميات والتنسيق الشجري في تخطيط المنازل والشوارع في المدن وخوارجها، ثم لا ننسى تتويج ذلك بمهرجانات الرطب والتمور وبرامج الإكثار والتشجير المستدامة. لتظل الشجرة أيقونة في الهوية الثقافية الحيوية التي تغنى بها الشعراء والحكماء وضرب الله بها الأمثال كفكرة ونظرة وزاد ومظهر سيادي.**

## 2 - عمتنا النخلة

منذ وعينا على وجودنا كانت عمتنا النخلة تحدثنا عن ظل ممدود وعذوق من لآلئ البر المنضود، فاستلهمنا منها رمزية البقاء والخلود والخير اللامتناهي.. كأنها البحر في جوده، أجل أيها الأعزاء، إنها أميرة الصحراء في الحسن والجمال، فكم كان سعفها وجريدها أعشاش طير ومحطة طيور وعماد بيت، قالت نفسي: بل قل لها يا عمتي كم كنت كريمة في الأسفار والواحات، وها أنت تتوجين شوارعنا وحدائقنا بزينة الخضرة والشموخ والبقاء.

لا أعتقد أن أي فنان في العالم إذا رآك لم يرسمك، ولو لم يكن يعرفك، فأنت عالم من الدهشة التي تتفاءل بالخير البيئي كأيقونة ثقافية للاستقرار الوطني، فكم فيك من معانٍ في التراث الزراعي والاقتصادي! ونحن من جيل إلى جيل نزداد بك تعلقاً يا محبوبة المحبين، ويا تصميم المعمار ونحت الإزميل على الجدار، نحن نعرف أنك كلما ذُكرت أنت ذُكرنا، فأنت عنواننا هوية وثقافة وكلمة طيبة مستخلصة من معانيك، قالت لي نفسي: أليس لديك سوى النخلة؟ أين التين والزيتون والقرط والرمان والبرتقال واللوز؟ أليسوا على الرأس والعين؟ .. قلت: ما قل دلّ، ففي رأس الخيمة حي النخيل وفي الشارقة حي النخيل وفي دبي شارع المرقبات كان حي النخيل، وفي العين مدينة النخيل.. قالت نفسي أنسيت شيئاً مهماً؟ قلت أشياء...

## 3 - أمنا الغافة

البينونة في المعنى، فالأشجار لا تختصر إلا برموزها كشواهد على استقرار في الوطن، فالسدر طبيب، والسمر حبيب والغافة أم.

وكم أكون سعيداً وأنا جالس تحت ظلال غافة!

قالت نفسي: ذلك عنوان كتاب للدكتور يوسف الحسن وقد تحدّث فيه عن رمزية الغافة في التراث الإماراتي كأيقونة للتسامح الإنساني، قلت: وأزيدك من الوصف توصيفاً لشجرة الغاف في جمالياتها والإبل تمشطها لتفسح لنفسها وللناس أوسع الظلال وأورفها، يا للروعة في أغصان متسامحة مع الضيوف، فهي لا تطلب منهم أجراً، الغافة كشجرة الزيتون رمز لسلامٍ إنساني فيه استدامة الخضرة والأمان والاستقرار، فكم من شاعر أعجب برسوخ جذور الأشجار ومعانقتها السماء كأنها صهوة المجد، بل ما أروع الشاعر مهير الكتبي الذي التصق بمسقط رأسه!

حيث كشف ذات مرة أنه ولد في ظل غافة، وقد تردد الباحث عمار السنجري على خيمة الشاعر في قرية (الهير) ولعلّ هذا ما حفزني لأقول في الغافة شعراً نبطياً فقد زرت الهير، وأعجبني منظر عرائس الغاف فقلت:

**يـــــا غافـــــة الهـــير ضلـــــي**
**رمـــــز الزمـــــان بجمـــالـــــه**
**امهـــــــير تحتـــــك مصلـــــي**
**ومعلّـــــي رايـــــة عيالـــــه**
**وقـــت السمـــــر قـــــال خلّـــــي**
**الغـــاف مـــا ازهـــى خيالـــــه**
**حـــــتى ولو غـــــاب ظلـــــــي**
**مـــــا تنـــس ظلـــــي رمالـــــه**

ما زلنا مع السيرة الغافية، فلا أحد يعرف كم عمر (غافة الشهانة) التي كان المرحوم الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - يستظل بها والحجاج في طريقهم السلع، وقد منع الشيخ زايد قطعها، وأعجب من ذلك غافة المويجعي التي شهدت أمام قصر المويجعي في العين مقابلة المرحوم الشيخ زايد مع (لولفرد ثيسجر) عامي 1945 و 1952 م ومثلها عود التوبة، فقد ذكرت الباحثة غاية الظاهري حكاية عود التوبة على حدود مدينة البريمي أنه كان يزرع فيه بعض أنواع من شجر الغاف التي ما زالت موجودة حتى الآن، وكان الشيخ زايد يجمع الأعواد من تلك الأشجار لتأديب الخارجين عن النظام، فسميت أغصان الغاف بـ (عود التوبة) حتى تحول الاسم للمكان بحد ذاته. وفي رأس الخيمة غافة المناعي في جلفار التي حملت اسمها مدرسة غافة المناعي ومثلها غافات سدروة وغافة الشارقة. ثم لا ننسى أهمية الغافة العلاجية من عصيره وأوراقه ضد لسعات العقارب والروماتيزم والأمراض الجلدية حسب قول مريم الحضرمي، وقد حدثتني الوالدة فاطمة المغني أن أوراق الغاف تستخدم غذاء مع (التبولة) أما غاية الظاهري فقد ذكرت سلطة (المجيجة) كألذ الأطباق (مؤلفة من الأوراق واللبن والروب والسمك المجفف) وهنا تكمن الرمزية الثقافية لغاف الإمارات، حيث ظلال الشجرة مكيف هوائي ومستراح للناس وطعام وحظائر للماشية، وهي في بقائها أشجار زينة، فإن ماتت فهي وقود للشواء أو التسقيف والتحظير. وكما ذكرت هي عنوان من عناوين التكيّف مع الحياة الصحراوية وفي رمزيتها للتشبث بالأرض حيث جذورها تصل إلى عمق 30 متراً لتصل إلى المياه الجوفية، وقد ترتفع إلى ذات القياس، قالت عصفورة فكرتي: غافتنا صبور تقاوم الجفاف والملوحة وأروع من ذلك أنها دائمة الخضرة ومن أسمائها العمرية (الحضيب - ثم نشوة ثم العود ثم الغاف) والمعجم اللغوي يتسع لأم غافة وغافان وغويفة وأعواد الشويهي، ولأن هذه الشجرة معلم وطني فقد أطلق اسمها على المدارس والشوارع والأماكن كما ذكرت آنفاً، ولا ننسى أن زهرتها تسمى (خرطاً) وثمارها تسمى (حتيلاً) وهي كقرون البازلاء التي تصنع منها عصيدة الحيتل..

### 4 - جدّنا القرم

قالت عصفورة فكرتي: أين حديثك عن غابات السواحل البحرية أنسيت شجرة البحر حيث مساكن الطيور ومرابي العسل على أغصانها، ومراعي الأسماك والكائنات البحرية على جذورها؟ قلت تقصدين شجرة (القرم) فهي شجرة وطنية في السواحل على الأخوار لها فوائد كالمعجزات في مصدات الأمواج وهي شريان حياة.. وتسمى شجرة (المانجروف) أوراقها مثل ورق اللوز والأراك، وثمره مثل ثمر الصومر، والبحر عدو كل شيء من الشجر إلا القرم والكندلي، تأكل الأبقار والإبل أوراقه، ومنه الحطب طيب الرائحة والمنفعة، والأشجار دائمة الخضرة تفرز من غدد أوراقها إفرازات الأملاح الزائدة فهي تتحمل الحرارة والمد والجزر، ولها أزهار بريقالية زاهية أو صفر، ولها أهمية في تخزين الغازات داخل الجذور، والحديث يطول، إلا أن ما لابدّ منه أن دولة الإمارات العربية المتحدة وضعت في خططها إعادة التشجير لأشجار القرم، فهي تقلل من تكاثر الكثبان الرملية، وتخفف صدمات طوفانات البحر المفاجئة، وتؤمن فرص عمل، ولا ينسى دورها الدفاعي في سالف الأزمان، ولا رمزيتها الثقافية ولا كونها محمية مرجانية وواحة بحرية للأمن والسلام والجمال والغذاء والدواء والسياحة واستدامة الحياة البحرية، قالت نفسي: ألديك ملاحظة؟ قلت معنى القرم عند العرب في معاجمنا يقول: القرم هو شجرة، والقرم من الرجال هو السيد العظيم. صاحب التجربة والرأي السديد، النشمي طيب الأفعال ومنه قرم العيال والجمع قروم. ولا دخل لنا بجزيرة القرم المختلف عليها بين روسيا وأوكرانيا، أما القرم عند البدو فهو صغار الإبل والجداء أو الفحل الذي يترك عند الركوب والعمل وفي المثل الشعري:

**صُبـــــــة قرم مـــا يهـاب الخســـاره**
**العاقـــــل الكامـــــل بعيد المراميـــس**
**وطـــيبٍ بالطـــــيب تراهـــو تجـــاره**
**الخاســـر اللي يبدّل الطيـــب بالهيـــس**

### 5 - في الأمثال الشجرية

هنا خلاصة القول والفعل، عن حكم لا خرافات وتهيؤات، ولأن القيمة المضافة للشجرة أيقونة، فالحق لا يقابل إلا بالوفاء لهوية المكان، وإلينا بعض من الأمثال الشجرية للاستدلال على هذه القيمة ثقافياً، وقد كان لأمثالنا أثر في التنمية الثقافية وهذا غيض من فيض:

- كرمى للتوت ينسقي العليق.
- يعله في طرف العوي ولا في طرف اللسان، (العوج) من شجرة الغافة طرفها.
- الطول طول نخله وعقله عقل سخلة.
- مثل العوانة حتاتها بعيد (العوانة النخلة الطويلة المعمرة).
- يوم يبلغ الكنار يتساوى الليل والنهار (والكنار هو شجرة السدر).
- احضر عند النبات وغيب عند اليداد.
- لو كل من يا نجّر ما تم في الوادي شجر.
- التمر خزفة الصايم.
- شبابك افسل به أو انسل به.
- يقطع الله شيره ما تظل عرجها.
- كل أرض بها نخل بشارة.
- الخير عند عمتي النخلة والناقه تحت الغافة.

هذه غصون من شجرة الفكرة، وفالكم طيب، وإنا باقون على العهد ■

أديب وباحث سوري

عندما تستريح الغافة تحت ظلال القصيدة

# حضور شجرة الغاف في الشعر النبطي

## كرمز من رموز الهوية الوطنية الإماراتية

أحمد عبد القادر الرفاعي

لشجرة الغاف مميزاتها ومكانتها التاريخية والاجتماعية والبيئية في المجتمع الإماراتي منذ القدم، فقد كوّنت حلقة من حلقات الوصل في حياة أهل الإمارات على امتداد القرون الماضية، لخلق حالة من التوازن بين مختلف عناصر الحياة، فالغافة صديقة للأرض، وصديقة للإنسان المقيم الذي يتغذى على أوراقها ويحتطب منها دون إسراف، وصديقة للمسافر الذي يستريح تحت ظلالها ويقيد ناقته بقربها أو تحتها، وصديقة للطيور التي تبني أعشاشها بين أغصانها، وصديقة للتربة التي تتغلغل جذورها فيها بحثاً عن الماء، وصديقة للهواء الذي نتنفسه من خلال الأكسجين الناتج عنها.

وحماية أشجار الغاف قديمة في التاريخ الإماراتي فقد كان قطع الغافة يشكل جناية مجتمعية وبيئية، ويُجرّم من يقدم عليها، وكان هناك قانون «الرفجة» الذي كان يطلقه الحكام وشيوخ القبائل في الماضي، ويمنع التحطيب الجائر، كما كان يحوّل مناطق البادية إلى محميات يحافظ فيها الجميع على الغطاء النباتي فيها، وإن هذا التعايش بين الإنسان والحيوان والنبات في المنطقة يظهر لها جوانب حضارية مجتمعية مهمة، نابعة من رؤية بعيدة المدى لحاضر مختلف الأجيال ومستقبلها، وإدراك عميق بأهمية المحافظة على التوازن البيئي في المنطقة، ولا شك أن هذا التعايش جزءاً من منظومة التسامح والتعايش بين أهل المنطقة وبقية عناصر الحياة، لذلك كان للأشجار بشكل عام ولشجرة الغاف بشكل خاص حضور جغرافي وتاريخي واجتماعي وجيولوجي وأدبي في مكونات الهوية الإماراتية والتراث الإماراتي.

وقد حضرت شجرة الغاف في القصيدة العربية منذ أقدم العصور، فقال امرؤ القيس:

**يقطع الغـــاف بالخصـــــين ويشلـي**
**قد علمنـــا بمن يديـــر الربابـــا**

وقال ذو الرُّمّة:

**إلى ابن أبـــي العاصي هشـــم تعسّفـــت**
**بنا العيس من حيث التقى الغاف والرمـــل**

وقال أحد الشعراء:

**حتى أنـــاخ بذات الغـــاف من شـــغف**
**وفي البـــلاد لهم وســـع ومضطـــرب**

هذا وقد احتلت شجرة الغاف مساحة مرموقة في الشعر النبطي في دولة الإمارات العربية المتحدة، إذ إنها تعتبر، إلى جانب النخلة، إحدى أكثر شجرتين تطرق إليهما الشعراء في قصائدهم. بل ونظموا قصائد كاملة عنهما، وتاريخ ورود شجرة الغاف في الشعر النبطي في الإمارات قديم، ويعود بحسب الرواة إلى أكثر من ثلاثمئة سنة، إذ يرتبط بأقدم شاعر نبطي وصلنا إنتاجه الشعري في الإمارت، وهو الماجدي بن ظاهر «توفي مطلع القرن الثامن عشر»، ويروي الرواة تغرودة له في شجرة الغاف، نصها:

**الغـــاف لو ينفع نفـــع الإختيلـــه**
**مـــاتت وهوه لهـــا يخـــرط الكيله**

وفي رواية ثانية للتغرودة:

**الغـــاف لو ينفع نفـــع الإختيلـــه**
**مـــاتت وهيه تخـــرط من هالكيلـــه**

ويبدو أن الشاعر لجأ إلى شجرة الغاف، في محاولة لإنقاذ ناقته من الموت، إلا أن ذلك لم يمنع الموت عنها.

ولا يمكن أن نتحدث عن شجرة الغاف دون أن نتحدث عن حضورها وتمثلها في ذاكرة الشعر النبطي وذاكرة شعرائه الذين اعتبروها عنواناً لتراث حافل بالمفردات والمعاني والأفكار الحاضرة بقوة في وجدانهم وأذهانهم، لأنها ترتبط بالأصالة الإماراتية وتعتبر شاهداً على الصمود ورمزاً من رموز الحياة فوق هذه الأرض، والشاعر علي بن بخيت العميمي يستعيد ذكرياته مع شجرة الغاف، والحال التي آلت إليه في هذا العصر، فيقول مخاطباً شجرة غاف:

**أذكـــر زمـــان الوقـــت لـــي طـــاف**
**تراثنـــا لـــه رمـــــزعنـــــوان**

**اتمتّعي يا قورة القاف**
**ياك الفضل من صاحب الشان**
**لك مِ الفضل ع العالم اضعاف**
**فضلك على حضروبدوان**
**ظلّك برز به زين لاوصاف**
**ترف الصبا بوعود رويان**
**يزهي يلوما يلبس شناف**
**موز ربى في وسط بستان**
**إنت المكيف وقت لاصياف**
**وقت الشتا للبيت عمدان**
**إنتي ذرا لي ما له لحاف**
**وقت الشدا لي عاد بردان**

ويخاطب الشاعر محمد بن علي الخيّال شجرة الغاف مستحضراً ذكريات تحفظها ذاكرته عن فتاة كانت تسكن قرب ذلك العود، ثم رحلت عنه مع أهلها:

**يا العود بدّت حالك امحان**
**يوم انتقل من قربك الزين**
**يوم اعزموا وانووا بمظعان**
**وامسى الوطن من عقبهم شين**
**والصبح شدوا له مسيّان**
**واتوبلوا مِ الدارمجفين**
**ليته بطى في الدارسكّان**
**وسويف ما جزى له الهين**

وفي السياق ذاته قدمت لنا الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري هذه القصيدة التي تعبر من خلالها عن علاقة جيرة وطيدة ومودة وحسن عشرة ربطت بينها وشرف كواكب «شرف غاف» ومن كان يقيم بقربه، فقالت تدعو لذلك الشرف وأهله قائلة:

**يْعِل ذاك الشرف سحّاب**
**ومن السما يا رب هلّه**
**لي ساكنينه عرب انياب**
**متحذّر عن كل خلّه**
**ودلالهم من صنع لاذهاب**
**والبن فيهن ينعمل له**
**وان يبت معهم ضيف لا تهاب**
**يدّيرونك في المحلّه**
**ناس يثنّون التّرحّاب**
**يبرون روحٍ مستعلّه**

وهناك قصيدة للشاعرة هداية الساكوب قالتها بعد أن رأت مجموعة من الأسر الكريمة في منطقة الخبيصي بإمارة دبي، تستمتع بجمال الطبيعة والمكان تحت أشجار الغاف فيها، فقالت:

**محروزيا غاف «الخبيصي»**
**واليوم ترتع فيك غزلان**
**ريم لقيته في فريجي**
**جملة عرب وشيوخ مِ الخان**
**والزين عدنا مستفيجِ**
**ولباسهم من غالي اثمان**

ومن القصائد التي تُعبّر عن ارتباط القصيدة بشجرة الغاف وأهمية الحفاظ عليها قصيدة «يا ليت لي ماضي يرد محلّه» للشاعر الإماراتي سالم بن سويف الكتبي، عندما وجد أن عود غاف كان في منطقة الصجعة قد قطعه أحدهم، فقال هذه التغرودة غاضباً وموجهاً حديثه إلى من قطعه:

**يا ليت لي ماضي يرد محلّه**
**باحكم عليه يوجّره ويشلّه**

**يرقى في راس العود ويغزّر له**
**ويسجي عروقه لين يثمر كلّه**

وتتوالى نسائم الإبداع الشعري في وصف العلاقة بين الشاعر والغافة ومدى التأثر بتعرضها لأي أذى، ويتجلى ذلك عندما يتخيل الشاعر سالم بن سويف الكتبي حواراً بينه وبين حمامة برية من نوع الراعبي، تشتكي إليه بسبب كثرة قطع أشجار الغاف، مما يؤثر في حياتها ووجودها، فقال:

**يا الراعبي غثّيتي البال**
**من كثر ما بتّي تنوحين**

فقالت:

**في الدار ما خلّوا لي ظلال**
**الغاف طاحوا به بخصّين**

قال:

**لوفي «علي» واشكي له الحال**
**وامّا بدا بك لا تغبيّن**
**وان قال لك مامونة الدار**
**ابني عشيشك وين تبغين**
**في الدار حطّوا شرطي «هلال»**
**وانتي امّره لا تخافين**

قالت:

**ما حد ياخذ عَ البدو حال**
**واخاف من أهل السكاتين**

قال:

**من عقب هذي ما لك مجال**
**إلا ان بغينا باتمّين**
**لا اتّابعين اشواريهّال**
**اتشلك الوزفة وتجفين**
**اتراك ما لك عندهم كار**
**بدون «ويزه» ما تخطفين**
**بتعذّبين عيالك صغار**
**منّيه ليّن هناك تمشين**

ومن أمثلة هذا الإبداع المرتبط بالغافة والحزن على قطعها أو قطع أغصانها يقول الشاعر مجرين الكتبي، في عود غاف قطعه أحدهم في منطقة العوير بإمارة دبي:

**يا اللي قطع عود الوراريد**
**لي ببرزن فيه الحمام**
**لاوّل ينابن كل قصّيد**
**واليوم في بحر التهامي**

**إن روّحن سوّن عناجيد**
**وردّن على العوف السلام**

وإن ما أوردناه من أمثلة على استحضار شجرة الغاف في الشعر النبطي في دولة الإمارات العربية المتحدة ما هو إلا غيض من فيض، فقد نظم الكثير من الشعراء الإماراتيين القصائد الطوال عن هذه الشجرة المميزة في قلوب الإماراتيين فهي الشجرة التي أحبها الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - وعمل على العناية بها بتوجيهاته الرشيدة وأوصى بالحفاظ عليها ما ضاعف من مكانتها في قلوب الإماراتيين بشكل عام والشعراء بشكل خاص فنظموا لأجلها قصائد تعبّر عن مقامها في قلوبهم وارتباط جذورها بتراث هذا البلد الأصيل المعطاء ■

كاتب سوري

المصادر والمراجع:

1. معجم الغاف في دولة الإمارات، سلطان العميمي، دائرة الثقافة والسياحة، لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية، أكاديمية الشعر، ط 2، 2020.
2. تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد المرتضى الحسيني الزبيدي، سلسلة التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001.

# النباتات في التراث العربي موارد الموروث ومنابع الفكر

منّي بو نعامة

**للنبات والشجر أهمية خاصة في حياة العرب قديماً، وحياة أنعامهم وخيلهم ودوابهم، والبيئة التي يقطنونها؛ لذلك كانوا يستبشرون خيراً مع الطوالع المبشرة، والسماء المنهمرة بالخير والمطر، حيث تعمّ حياتهم النعمى، وتخصب الأرض، وينبت الشجر ويُورق، ويدرّ الضرع، وتسيح الأنعام والمواشي في مراعيها، وتسمن وتتناسل وتتكاثر، وإذا احتبس المطر جفّ القطر ويبس الشجر وجفّ الضرع ونزر العشب، وآذنت الحياة بالجوع والفقر والمَحل والمرض والجفاف، واشتعلت الفتن، وانتشر الهرج والمرج؛ لذلك كانت حياة العربي مرتبطة بحياة أنعامه وإبله وخيله.**

وإذا أسنت العرب اضطرت إلى أكل البقول والأعشاب، وعصارة الأشجار، والثمار البرية التي ترعاها الظباء والحمر والنعام، كالحوذان والثمام وغيرهما من نباتات البادية. وعندما يسفعهم الصراد ورياح الشمال يستدفئون بوقود الشيح والعَرْفَج والعَفَار والمرخ والغَرْقَد. كما صنعوا مراكبهم وأوانيهم وأقداحهم وأوتادهم وبعض بيوتهم وأعمدتها وسقفها وأدوات الحياكة، ومكانسهم وأرشيتهم ومتاعهم من أشجار الأثل والميس والنبع والسَّاسَم والعَرْعَ. ومن الأعشاب صنعوا أدوية تدفع عنهم المرض، واستخلصوا الأدباغ والأصباغ. وكان طيبهم بالأس والبان والرند والأقحوان والجَادِي والحِنْوَة والحَوْذَان والزعفران والكافور والقرنفل والياسمين والخزامى، وصنعوا منها عطراً وقلائد وأسماطاً. وجلوا أسنانهم بالأرَاك والإسْحَل والعُتُم والضرو.

وكانت الأشجار وسيلتهم للدفاع عن أنفسهم، فصنعوا من الأسل والنيل والخلاف والسدر والسمر والسراء، والشوحط والضال والنبع والنشم والوشيج أسلحة تدفع عنهم الأخطار، ويصطادون بها الطرائد، كالقي والهام والرماح. ولقد حفلت المدوّنة الشعرية الجاهلية بمفردات هائلة من أصناف النباتات الصحراوية والرملية والجبلية، التي لم يألفها المجتمع العربي، بعد انتقاله من البداوة إلى الحضر في مطلع القرن الثاني الهجري، ما شحذ همم علماء اللغة، وحدا بهم إلى جمع مفردات اللغة وتوثيقها وتصنيفها في معاجم متخصصة، نحو كتب «الإبل»، و«الخيل»، و«النَّخْل»، و«الأنْوَاء» وغيرها من الكتب التي تختص بموضوع بعينه، يذكر فيها ما يتعلق به من ألفاظ اللغة. وكان للنباتات مبحث خاص ومحور أساس في ذلك الجمع والتوثيق، فذكروا أسماءها وصفاتها واستعمالاتها وأماكن نموها، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، حتى قال ابن الفقيه: «وقد قيل: فرق ما بين الحجاز ونجد أنه ليس بالحجاز غضاً، فما أثبت الغضا فهو نجد، وما أنبت الطلح والسمر والأسل فهو حجاز»، تعبيراً عن مدى أهمية النبات في تحديد الإقليم المتصل به. لذلك كله تنبّه اللغويون والأدباء منذ وقت مبكر إلى أهمية النبات في حياة العرب ولغتهم وشعرهم، فخصوه بصحف كثيرة تُعنى بضبط مفرداته، وتفسير معانيه، وتبيان أحواله، وأماكن تكاثره، وصفاته وألوانه وأشكاله، إلى غير ذلك من موضوعات تتصل به، كفوائد للنعم والشاء والخيل، وما يُسمن منه، وما يُؤذي الإنسان والحيوان، وقد عصفت يد الزمان بأكثر مؤلفاتهم، ولم يبق منها إلا كتب قليلة تكشف عن قيمة هذا العلم الذي ضاع أكثره واندثر. ومن هذه المؤلفات مؤلفات مستقلة أفردت خصيصاً للنبات مثل: كتاب النبات لأبي سعيد

الأصمعي (128 - 216)، وكتاب الزرع لأبي عبيدة معمر بن المثنى (114 - 210)، والنبات والشجر لأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (122 - 215)، وهناك كتب اشتملت على فصول ومباحث عن النبات مثل: كتاب الصفات للنَّضر بن شميل (122 - 104)، وثمة معاجم متخصصة في النبات كالمخصص لابن سيده، وربما كانت معاجم النبات حافزاً لتطوير هذا العلم؛ إذ تحول فيما بعد من الغاية اللغوية إلى علم خاص بالنباتات وفوائدها الغذائية، وطرق استنباتها، وريّها، وتلقيحها، وتشذيبها، وقطفها، وميزاتها الطبية إلى غير ذلك من الموضوعات التي نجدها في كتاب الفلاحة لابن وحشية الكلداني، وكتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلي، وغيرها من كتب الأدوية والنبات، التي تدخل في باب العلم التجريبي، بالإضافة إلى كتب ومعاجم حديثة وضعت في هذا البحث، وتناولته باستفاضة وإسهاب.

ويمكننا أن نقف سريعاً عند أبرز أمهات كتب النبات في التراث العربي التي شكّلت علامات فارقة في الموروث العربي المرتبط بالنباتات والأشجار، والتي يعدّ من أبرزها: كتاب النبات والشَّجر لعبد الملك بن قُريب المعروف بالأصمعي (ت: 215 هـ)، وكتاب الشّجر والكلأ لأبي زيد الأنصاري (ت: 215 هـ)، وكتاب النّخلة لسهل بن محمد السجستاني (ت: 255 هـ)، وكتاب النّبات لأحمد بن داود، أبي حنيفة الدينوري (ت: 282 هـ)، وكتاب المخصّص أشهر المعاجم التي تناولت النبات كتاب المخصص لابن سيده الأندلسي، علي بن إسماعيل (ت: 458 هـ).

## الشجر والكلأ

تمثّل مصادر النباتات والأشجار واحدة من الكتب المهمة التي وثّقت لنا تاريخ النبات وتراثه وصلة الإنسان العربي به وعلاقته بوجوده، ومن تلك المصادر كتبٌ اختلف في تسميتها كما هي الحال مع كتاب أبي زيد سعيد الأنصاري (ت: 215 هـ)، الموسوم: «كتاب النبات والشجر».

وإذا رجعنا إلى آثار أبي زيد في المصادر المتعددة القديمة، فسنجد أن لهذا الكتاب أسماء متقاربة في دلالاتها، لكنها لم تتفق على اسم واحد، فقد سمّاه أبو الطيب اللغوي (ت 351 هـ) في «مراتب النحويين واللغويين»: الشجر والكلأ، وسمّاه ابن النديم (ت 285 هـ) في «الفهرست»: كتاب النبات والشجر. وكان كتاب أبي زيد من مصادر ابن سيده (ت 458 هـ) في «المخصص»، وأشار إليه باسم: كتاب النبات. وقرظه ابن خلكان (ت 181 هـ) في «وفيات الأعيان» دون سائر كتبه، وقال: وله كتاب في النبات حسن. وسماه ابن منظور (ت 711 هـ) في «لسان العرب»: كتاب الكلأ والشجر، ووافق السيوطي (ت 911 هـ) أبا الطيب اللغوي، فسماه في «المزهر»: كتاب الشجر والكلأ.

وإذا أثبتنا الأسماء المختلفة لهذا الكتاب في المصادر القديمة، فسنجدها تدور في فلك الأسماء الآتية: الشجر والكلأ - الكلأ والشجر - النبات - النبات والشجر - الشجر، وعليه فقد أثبتنا العنوان الأكثر تداولاً، والأقرب إلى الصحة بحسب الأدلّة والقرائن. والكتاب غزير المادة، جمّ الفائدة، قسّمه مؤلفه إلى قسمين، تناول في أولهما الشجر، وما يتصل بها من أسماء وصفات ومعانٍ، وتحدث في الثاني عن الكلأ، وما يرتبط به من عشب وورق وغيرهما مما ترعى فيه الإبل والأنعام وسائر الدواب على اختلاف أنواعها.

## النخلة .. عمتنا

تكمن أهمية كتاب النخلة لأبي حاتم سهل بن عثمان السجستاني، المتوفى عام 255هـ، في كونه من أقدم المؤلفات في هذا الموضوع، وفيه كثير من النقول عن العلماء المشهورين،

وكثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة في تفضيل النخل، كما امتاز بانفراده بكثير من الأخبار عن مواطن وجود النخل، وبتأكيده على أن النخل لا ينبت إلا في بلاد الإسلام والمسلمين، وذلك لقداسة هذه البلاد وعلوّ شأنها. وقد انفرد المؤلف بذلك، إذ لم يهم أحد اللغويين بالإشارة إلى ما أشار إليه أبو حاتم في كتابه. كما اهتم المؤلف بذكر نوى التمر، وأوصافه وأجزائه ومنافعه، وطريقة زرعه وزمنه، واهتم بالحديث عن حياة النخلة ومراحل نموها المختلفة أيضاً. ونضج البسر وأمراضه وأنواع التمر ومراحل جنيه ومرابده، وجماعات النخل، ثم ذكر في آخر كتابه قسماً من الأخبار عن الأراضي التي تنبت فيها أشجار النخل.

لكل هذا يعدّ كتاب النخلة منهلاً للعلماء الذين جاؤوا بعده، كأبي محمد الأنباري في شرح المفضليات، وابن سيده في المخصص، والفيومي في المصباح المنير، وغيرهم. وإجمالاً، فقد قسّم المؤلف كتابه إلى قسمين، تناول في الأول مكانة النخلة، وتعرض فيه للعرب وأنسابها، وعلاقتها بالنخلة، فهي عمّتنا كما جاء في الأثر، والثاني: ذكر فيه النخل وأوصافه وأجزاءه ومنافعه، واستشهد على ذلك بالأشعار.

## علم النبات

يعدّ الدينوري مؤسس علم النبات عند العرب والمسلمين، واشتغل بعلوم كثيرة، وكان واسع الأفق موسوعي الثقافة، ويعتمد في مؤلفاته على مصادر عربية أصيلة، وكان يعرف بـ«العشاب»، وتميز أسلوبه بالسهولة والبلاغة في وقت واحد. ويعدّ كتابه النبات أشهر مؤلفاته التي تربو على العشرين، حيث تضمّن الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس معلومات قيمة عن الحيوان. وبقي هذا الكتاب مرجعاً لعلماء النبات في العالم أجمع، فترة طويلة، واهتم بكل ما قيل عن النباتات ورتبه على حروف المعجم. بالإضافة إلى ذلك، فقد كان الدينوري أول عالم نباتي مسلم يشير إلى طريقة التهجين في النباتات في كتابه «النبات»، والمؤلف من 6 مجلدات. وللأسف، لم يبق من الكتاب سوى المجلدين الثالث والخامس، بينما أُعيدت أجزاء من المجلد السادس بناء على توثيقات جمعت من أعمال لاحقة.

ويعدّ هذا الكتاب من أنفس الكتب العربية وأشهرها في بابه، ذكر فيه مؤلفه أسماء الأدوية والأغذية من نبات وحيوان وجماد، حسب ترتيب حروفها الهجائية، ويعدُّ موسوعة في الصيدلة تحتوي على أوصاف وأصناف من الأعشاب والأطعمة والعقاقير الطبية، وتبيّن قيمها العلاجية واستخداماتها الدوائية أيضاً.

ولم يترك المؤلف شاردة ولا واردة عن النبات إلا ضمنها كتابه؛ حتى فاق مصنَّفه من تقدُّمه من علماء اللغة والباحثين في علم النبات. وصار الكتاب من بعده حجة اللغويين وعمدة الأطباء والعشّابين، فلا يتخرج طبيب أو يبرز عشّاب إلا بعد أن يهضم كتاب النبات للدِّينوري وأن يتمثَّله! والنسخة الأصلية للكتاب مفقودة. ولكن مادتها محفوظة بشكلٍ متفرقٍ ومتناثر، بين دفَّات كتب فقهاء اللغة، وبخاصة ابن سيده وعلماء العلوم، وبالذات ابن البيطار. يبدأ الكتاب بوصف تفصيلي لأنواع تربة بلاد العرب، وتركيبها، ومناخها، وتوزيع مائها والأحوال العامة اللازمة لنمو النباتات فيها. ثم يتناول تصنيف النباتات بصفةٍ عامة وترتيب كل نبات منها على حدة، مقسماً إيَّاها إلى أنواعٍ ثلاثة: نباتات تزرع ليقتات بها الناس، وأخرى برية، وثالثة تُثمر ما يؤكل. ويتناول الكتاب النوع الثاني من النباتات وفقاً لأماكن وجودها، وطبيعتها، وقيمتها الاقتصادية.

وإجمالاً، فكتاب النبات للدِّينوري، ذو أهمية عظمى لدى علماء العرب وعلماء الغرب الذين اعتمدوا عليه في مؤلَّفاتهم زمناً، واعتبروه دائرة معارف نباتية عربية على جانب كبير من الكفاية والوضوح.

## التأصيل اللغوي المعجمي

يعدّ كتاب المخصّص لابن سيده (المتوفى 1066 م) من أضخم المعاجم العربية التي تعنى بجميع ألفاظ اللغة وتكوينها بحسب معانيها، بحيث تنضوي تحت موضوع واحد. وقد قسّمه المؤلف إلى أبواب، فبدأ بالإنسان، ثم الحيوان، ثم الطبيعة، وتوسع في النبات والزرع والحبوب، فذكر أعيان النبات والشجر، وصفة الزرع، وآفات الزرع، وأجناس البر والشعير، وأجناس العنب والنخل وأجوده وعيوبه وآفاته وطوائفه، وأجناس وأشجار الجبال وغير ذلك. ويشتمل الكتاب على أبحاث زراعية تدل على شمول المعرفة عند ابن سيدة، وعقليته العلمية في التحري والتتبع والاستقراء. وقد تناولت هذه الأبحاث موضوعات الأرض، ونعومتها وما يتعلق بها من خصب وجدب، ومن صحة ووبال، وحرث وإنبات، وما يتعلق بها من جهة العشب والكلأ. وهناك أبواب في الشجر من حيث أوصافها وتوريقها وتنويرها... إلى غير ذلك مما يتعلق بأمور الأشجار والأوراق والثمار وما قد يلحق فيها من عيوب وأمراض ■

باحث أكاديمي موريتاني





# بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح

## (ألفاظ النباتات)

محمد فاتح زغل
أكاديمي وباحث في التراث

لكل منطقة أو بقعة من بقاع هذه الأرض نباتاتها التي تتميز بها وتتوافق مع مناخها، ولذلك تختلف بين بيئة وأخرى.

ودولة الإمارات العربية المتحدة في امتدادها الجغرافي متنوعة المناخ والبيئات وتضم النباتات المعمرة التي تعيش أكثر من عامين كالنباتات المزهرة الصغيرة التي تنمو وتزهر خلال فصلي الربيع والصيف ويتساقط زهرها وورقها كل خريف وشتاء، ثم تعود في الربيع، وهي متنوعة منها الساحلية والجبلية والصحراوية والحصباوية، وفيها النباتات المعمرة القادرة على العيش سنوات طويلة أيضاً، ومنها البريَّة، والطبيَّة، والصِّناعيَّة، والتَّزينيَّة. وسنتوقف عند بعض هذه النباتات التي وردت في معجم ألفاظ الإمارات فيما طابق الفصيح اللغوي، ومنها:

حَرْشاءُ (حَرْشا): الحَرْشاءُ في هذه اللَّهْجَة: نَباتٌ سهْلِيٌّ، وهو خَرْدَلُ البَرّ، كما في قَوْلِهم : فُلان طاحْ بالحَرْشا يحشّه يِتْحَسَّب الحَرْشا رْوِيد، والقَوْلُ نَفسُه في العربيَّة. ويُطْلَقُ عليه في هذه اللَّهْجَةِ أيْضاً: لِسانُ الكَلْب.

ثانُوْن: تُطْلَقُ هذه اللَّفْظَةُ في هذه اللَّهْجَةِ على نَباتٍ صَحْراوِيٍّ طَويلٍ في أعْلاهُ نَبْتٌ أصْفَرُ صَغِيْرٌ، تَأْكُلُهُ الجِمالُ، وغيرُها مِنَ الحيواناتِ الصَّحْراوِيَّة. والثَّنُّ في العربيَّة : يَبِيْسُ الحَلِيّ، والبُهْمى، والحَمْضِ الَّذي يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضاً، أو ما اسْوَدَّ مِنْ جميعِ العِيْدانِ، أو حُطامُ اليَبِيْسِ، وقِيْل إنَّ اليَبِيْسَ هو الحُطامُ، وإنَّ ما يَرْكَبُ بَعْضُه بَعْضاً هو الثَّنُّ، وإنَّ ما يَسْوَدُّ مِنَ القِدَمِ هو الدَّنْدَنُ. والثَّنانُ: النَّباتُ الكَثِيْرُ المُلْتَفُّ.

مُخَشَّعٌ (مْخَشَّع): المُخَشَّعُ في هذه اللَّهْجَة: المُكَسَّرُ، والمُهَدَّمُ، والخاشِعُ في العربيَّة: المَكانُ المُغْبَرُّ لا مَنْزِلَ به، والَّذي لا يُهْتَدَى له، والخاشِعُ مِنَ الأَرْض: الَّذي تُثِيْرُهُ الرِّياحُ لِسُهولَتِهِ، فتَمْحُو آثارَه، أو المُتَغَيِّرَةُ، المُتَهَشِّمَةُ النَّباتِ، والجِدارُ الخاشِعُ: الَّذي تَداعَى، واسْتَوَى مع الأَرْضِ. وسَمِعْتُ مِنْ بَعْضِ الطالِبات: مْجشَّعاً، على أنَّ الأَصْلَ : مُقَشَّعٌ، والقَشْعُ ما تَقْشَعُ، أوْ تَقْلَعُ مِنْ وجْهِ الأَرْضِ بيدك، وتَرْمِي به.

عَراجِيْنُ (عَراِيِنْ): العَراجِيْنُ (العَرايِنْ) في هذه اللَّهْجَةِ : نَباتاتٌ صَحْراوِيَّةٌ، لَوْنُها أَبْيَضُ، تُشْبِهُ الفِطْرَ، وهو القَفْعُ، أو الكَمْأَةُ، وواحِدُ هذا الجَمْعِ : عُرْجُوْنٌ). والعُرْجُوْن في العربيَّةِ كما في هذه اللَّهْجَةِ، وهو نَبْتٌ أَبْيَضُ، وضَرْبٌ مِنَ الكَمْأَةِ، وهو كالفِطْرِ.

والعَراهِيْنُ كذلك.

غَضَفٌ (غَضِفٌ): الغَضِفُ في هذه اللَّهْجَةِ : خَوْصٌ غَلِيْظٌ تُصْنَعُ مِنْه السِّلالُ، أو سَعَفُ النَّخِيْلِ، وفي العربيَّة: نَباتٌ يُشْبِهُ نَباتَ النَّخْل، لا يَطُوْلُ، وله سَعَفٌ كَثِيْرٌ وشَوْكٌ، وخُوْصٌ صُلْبٌ، يُحْمَلُ فيها المَتاعِ برّاً، وبَحْراً، وحُصُرٌ كالبُسُطِ، وتُفْتَرَش الواحِدَةُ عِشْرِيْنَ سَنَةً.

وَرْسٌ: الوَرْسُ في هذه اللَّهْجَة : مَسْحُوْقٌ ذُو رائِحَةٍ عَطِرَةٍ، لَوْنُهُ أَصْفَرُ، تَسْتَخْدِمُهُ النِّساء للزِّيْنَة، وفَرْك أَجسامِهِنَّ به، والرِّجال لِصَبْغ مَلابِسِهِمْ، أو صِباغِها، كما في قَوْلِهِمْ: الحُرْمه بالوَرْس، والنَّخْل بالدَّرْس. والوَرْسُ في العربيَّةِ: نَباتٌ كالسِّمْسِمِ يُصْبَغُ به، لا يُوْجَدُ إلاَّ في اليَمَن، كما قِيْل، أو شَيْءٌ أَصْفَرُ كالفُطْ، مُفِيْدٌ للكَلَفِ طِلاءً، ومِن ذلك قَوْلُ العَرَب: ثَوْبٌ وَرِسٌ، ووارِسٌ، ومُوْرِسٌ، ووَرِيْسٌ (مَصْبُوْغٌ بالوَرْس).

دِقْداقَةٌ (دِكْداكَة): تُسْتَعْمَلُ هذه اللَّفْظَة في هذه اللَّهْجَة للدَّلالَة على الأَرْضِ ذات النَّبات الطَّيِّب، وعلى مَدِيْنَةٍ في إمارَة رَأْسِ الخيمة. ويَظْهَرُ لي أنَّ دَلالَتها تُتَبَيَّنُ مِن جَذْرِها، وهو: دَقَّ (صارَ دَقِيْقاً، رَقِيْقاً)، ومِنْ ذلك الدَّقِيْقُ، وهو الطَّحِيْنُ، والدَّقوقُ: دَواءٌ يُدَقُّ للعَيْن، والدُّقَّةُ: التُّرابُ اللَّيِّنُ، وهو القِطْعَةُ مِنَ الرَّمْلِ تَنْقادُ مُخْدَوْدِبةً.

عَكارِيْش (عِكارِيْش): يَظْهَرُ لي أنَّ العَكارِيْشَ في قَوْلِ الشاعِرِ :

«يا بو مَيادِيْل عِكارِيْش»

جَمْعُ عِكْرِشٍ، على أنَّ العِكْرِشَ نَباتٌ مِنَ الحَمْضِ كَثِيْرُ الالْتِفافِ في مَنابِته، وهو مَعْنًى يُمْكِنُ مِنْهُ تَبَيُّنُ ما يُجْدَلُ مِنَ الشَّعَرِ. ويُقالُ في لَهْجَة فِلَسْطِيْنَ، والأُرْدُنِّ: فُلان مْعَرْكَش (لا يَهْتَمُّ بِلِباسِهِ) ■

# فخامة الباب

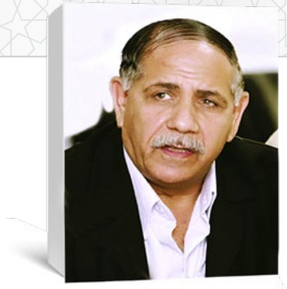

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

**الباب** الذي هو المدخل الرئيسي للدار أو البناية والحارس الأول وخط الدفاع الأول عن الدار والبناية نفسها يمتلك مهابته من حجم الدار أو المنزل أو من نوعية البناء وغرض الاستخدام للبناء .. فمهابة باب المخزن ليس كمهابة باب القصر مثلاً.. أو مهابة باب قسم الشرطة أو باب القصر الرئاسي، الأبنية الكبيرة التي تعد ركائز للحكم والوزارات ومقار للشرطة وإدارات الحكم المحلية في المدن الكبيرة والصغيرة، والتي تعد منها دواوين للإدارات الفرعية للوزارات والمؤسسات الضخمة التي تؤدي دوراً عظيماً في المجتمع.. كل هذه الأبنية الفخمة تتميز أبوابها أيضاً بالمهابة والفخامة والاتساع والعلو الذي ينبئ عن قدر الدار وحجمها وأهميتها وعلو شأنها لذلك سنرى الأبواب الضخمة تتصدر بمهابة وإجلال وعظمة صدر البناية ويصبح الباب عنواناً لعلو البناية ومهابتها أيضاً. ولك أن تتخيل إن لم تكن قد رأيت أو اطلعت على القصور الملكية أو قصور الرئاسة في وطنك أو في وطن آخر.. القصر المنيف الكبير المتسع الذي يشغل بكتلته العظيمة مساحة شاسعة ومتسعة من فضاءات المكان لا يليق به إلا باب منيف عظيم واسع وعريض وطويل يتناسب وإطلالة المبنى وحجمه وهيمنة هذا الحجم على الفراغ ويتحول الباب إلى تحفة فنية راقية تليق بالمبنى الرمز الذي يحيل إلى السلطة والجاه والعظمة وصولجان الحكم ورمز الدولة العظيم الذي يليق بها ملك أو رئيس .

ولذلك فإن قصص التراث أسهبت في فخامة القصور وفي شكلها وعلو أساسها من حرير وديباج وأثاث ومحتويات وكذلك أبرزت الأبواب الفخمة الكبيرة المزهوة بالذهب والفضة والمفروضات وبالرسوم وبالأشكال والحشوات والمقابض اللامعة وفخامة تتناسب وفخامة المحتوى بالداخل أو بالجوار إذا كان الباب داخل القصر وليس الباب الخارجي الرئيسي الذي يضم في شكله وحجمه فخامة وجمال وجلال المكان .

ومثل باب القصر لو أمعنا النظر في باب راعي الشرطة في المدينة في عصرنا مثلاً باب مديرية الأمن في أي مدينة عربية أو باب لمبنى الأمن الوطني أو الأمن العام فالباب يعلو مع المبنى ويتألق بتألق المبنى الكبير الذي يعبّر عن مهابة الدولة وقوتها وسيطرتها كي توفر الأمن والأمان للمواطنين والمكان فتمعن هذه الأبنية بفخامتها وهيبتها في مواجهة هؤلاء المارقين أو الذين يحاولون تعكير صفو السلم والأمن الاجتماعي والوطني فتظل مهابة المبنى من مهابة السلطة وقدرتها وتمكّنها وبالتالي يشكّل الباب العظيم الفخم لهذا المبنى الرمز مفتاحاً للمهابة، وأداة للسلطة والسيطرة وهو متمركز في صدر المكان بعظمة وفخامةٍ محتلاً متسعاً ومساحة غير بسيطة من المبنى ما يجعله مؤهلاً لأن يكون رادعاً نفسياً للراني ومفتاحاً مهماً لجلال مهابة المبنى الذي يزخر بأدوات التمكن وبسط السلم والأمان.

الباب العظيم يتخذ ماهيته من أهمية المبنى ودرجة عظمته وجلاله.. لننظر معاً إلى أبواب المساجد والكنائس والأديرة ودور العبادة .. المسجد الكبير في بنائه والعظيم في مهابته ورمزه كدار للعبادة وبيت من بيوت الله يذكر فيها اسمه.. لابد وأن يتحلى بالجلال والمهابة والخضوع للمشيئة لأنه رمز للدين والعبادة للواحد القهار.. المسجد الذي يتطاول بالعلو بمئذنته العظيمة ويتفاخر بحجمه المهيب يمتلك أبواباً عظيمة هي جزء من المهابة وجزء من الفخامة وتتزين الأبواب بكل ألوان النقوش التي تحيل إلى الروحانية مثل المبنى بقبابه وأعمدته ومآذنه - الآيات القرآنية تعلوه، والأشكال المحفورة التي تزينه هي جزء من دفء الروحانية التي تحيل إلى الإيمان العميق وأن النقوش لها معانٍ روحانية ومكانة من المعتقدات الدينية العميقة ... مثل المثمنات والمثلثات والمسدسات والأشكال النباتية التزينية المرتبطة بالتوحيد والإيمان.

والباب نفسه الذى يتوسد مبنى الكنيسة العظيمة هل رأيت مثلاً كنيسة القيامة في فلسطين الحبيبة أو هل رأيت حتى صورة كنيسة نوتردام التاريخية ولا تذهب بعيداً تأمل أبواب أي كنيسة حديثة كبيرة في أي مدينة عربية لترى عظمة ومهابة البناء ومن ثم عظمة الباب الذي تطل منه مهابته المرتبطة بالمذهب الذي تعبّر عنه الكنيسة أو الدين المسيحي وتلك الرسومات البديعة المنقوشة والمرسومة التي أبدعتها يد الفنان تعبيراً عن روحانية الدين وعمق الارتباط والتوحد فيه ومعاني الإيمان المستشفة من إبداعات مرتبطة بالدين وروحانياته العميقة. الباب معبر أساسي نحو الداخل يحمل المؤمنين ليدخلوا إلى عمق الأماكن الطاهرة على جناح من مهابة المبنى وفخامته وروحانياته وتجلياته الدينية العميقة.

شاءت الأقدار أن أزور أحد الأديرة في صحراء مصر الشرقية الواقعة بين النيل والبحر الأحمر.. دير الأنبا «أنطونيوس» الدير الذي يقع في بهاء وجلال على مساحة 17 فداناً فوق ربوة قدر له الإله ينبوع ماء في أعلى التلة تروي ظمأ سكان الدير المحاط بسور ضخم عالٍ جداً مبني من عصور قديمة، يتوسطه باب لا يقل فخامة عن الدير في جلاله أو السور في عظمته.. باب لو فتح على مصراعيه لاتسع لدخول أرتال من البشر أو حتى سيارات وكأنه شارع متفتح باتساع. إنها مهابة الباب العظيم وجلاله الذي يفضي إلى ديريسكنه عبُاد الله المنقطعون بإراداتهم لهذه العبادة ولكنْ هناك مكان يليق وباب عظيم يحرس عبُاد الله بالداخل.

الباب الضخم نفسه الذي يقضي إلى مكان العبادة تراه في المعابد القديمة وكمثال على ذلك معابد الفراعنة التي تركوها لنا منذ آلاف السنين، هل رأيت مدخل معبد الأقصر في مصر ومدى اتساعه وعلوه وفخامته وقدر المعبد الضخم.. وكيف هي عمارته التي توحي بالاقتدار والتمكن وكيف هندست وكيف هو مدخله الذي يوحي بالمهابة والتأمل والتفكر والعظمة الموجبة المقضية إلى الإعجاب بهذا القدر من الاتساع وهوة الدخول إلى معالم العبادة بالداخل، ولو رأينا كيف هو مدخل الدير البحري للملكة حتشبسوت.. أو مدخل معبد أبو سمبل أيضاً وبالقدر نفسه من المهابة والفخامة والاهتمام بالأبواب والمداخل لكل المعابد، لكل الديانات السماوية أو الأرضية هناك اهتمام بالباب بوصفه عنواناً ومدخلاً لمبنى منيف وعظيم وجدير بالاحترام والتقديس لأن الباب جزء من هذه القداسة ومن هذا المبنى.

وإذا ما تأملت أبواب المدن العربية العتيقة ومنها أبواب القاهرة القديمة أو تطوان بالمغرب أو صفاقس في تونس أو القيروان أو أي مدينة عربية قديمة ستجد التقنية نفسها المدينة محاطة بسور عظيم ضخم يمنع الأعداء والمغيرين من الدخول .. ويمنع غير المرغوب فيهم، وهناك في السور الضخم المتين تفتح أبواب عدة شرق المدينة وغربها. وسيدهشك حجم الباب.. أكيد سيكون عظيماً لأنه يسمح بدخول أرتال الجيوش وخروجها وكذلك أرتال الباعة والتجار وعامة الناس. الباب الضخم يوحي بالعظمة والمكانة والمهابة ويستخدم استخدامات أخرى للحماية والدفاع.

الباب كلما أبحرنا في مادته وفصوله سيفاجئنا أنه بلا نهاية وأنه متسع الجغرافيا المادية والمعنوية وأنه لا نهاية لفوائده ووظائفه وأنه تم الاهتمام به عبر التاريخ وفي الحضارات كلها و الديانات كلها لأنه عظيم الشأن رفيع القدر، له ألف سبب وسبب، وله ألف فائدة وفائدة ■

الباب الرئيسي لكنيسة القيامة في البلدة القديمة - القدس

# مدينة الأحلام (براغ)

ضياء الدين الحفناوي

مدينة الأحلام ومصدر إلهام للكتّاب والفنانين على مرّ العصور في أوروبا، وكما يطلق عليها بعضهم مدينة المئذنة الفضية، ومدينة الجسور وباريس الشرق الأوروبي ومدينة الأضواء أيضاً، والعديد والعديد من الأسماء لهذه المدينة الساحرة التي عندما تجوب في ضواحيها تشعر بأنك حقاً في حلم أسطوري أو فيلم تاريخي.. إنها (براغ) عاصمة جمهورية التشيك ومركزها الفني والثقافي. لآلاف السنين، كان هذا الجزء من أوروبا تعبره طرق التجارة التي تربط شمال أوروبا وجنوبها وهذه المنطقة مملوءة بآثار العصر الحجري القديم ما يدل على قدمها في التاريخ البشري وقد سكن مزارعو العصر الحجري الحديث المنطقة من نحو 5000 إلى 2700 قبل الميلاد. كان لدى (السلتيين) مستوطنات في المنطقة من نحو 500 إلى 200 قبل الميلاد، بما في ذلك مدينة زافيست المحصنة جنوب براغ. ويعود تاريخ أول مستوطنة فيما يعرف الآن ببراغ إلى النصف الثاني من القرن التاسع، وأقدم مبنى كان في هذه المنطقة هي (قلعة فيسهراد) وتقع على تل يطل على الضفة اليُمنى من النهر، وتنسب الأسطورة تأسيس مدينة براغ للأمير(ليبوسي) مؤسس سلالة (بريميسلد). على الرغم من هذه الأسطورة فإن عائلة (بريميسلد) التي حكمت من نحو 800 إلى 1306 ميلادي عززت قاعدة سياسية تركزت في براغ، وكانت بمثابة نواة الدولة البوهيمية التي مكّنت المزايا التجارية الطبيعية لموقع المدينة من التطور والحماية الدفاعية للمدينة وضمت العائلة القديس (فينتسلاف) الذي قُتل على يد شقيقه (بوليسلاف) نحو عام 939م، والذي يطل تمثاله الآن على الساحة التي تحمل اسمه و(بوليسلو الأول) أيضاً الذي شهد عهده (نحو 936 - 967م) توطيد السلطة ضد التهديد الألماني وازدهر المجتمع الصغير مع السنين.

## التوسع الاقتصادي

في عام 973 للميلاد تأسست أسقفية براغ وانعكس التوسع الاقتصادي للمجتمع على تضاريس المدينة وتطور مركز السوق على الضفة اليمنى من النهر حتى المدينة القديمة (ستاري ميستو) وخاصة بعد بناء أول جسر حجري فوق النهر في عام 1170م وهو (جسر جوديث) وبحلول عام 1230 تم منح المدينة القديمة منطقة إدارية وتم الدفاع عنها بنظام الجدران والتحصينات على الضفة المقابلة وهناك تأسس المجتمع المعروف باسم (مالا ستارانا) أو «الجانب الصغير» في عام 1257م، وبعد ذلك وصلت عائلة لوكسمبورغ إلى السلطة عندما كان جون لوكسمبورغ الابن قد أصبح الإمبراطور وإثرها توج هنري السابع ملكاً على (بوهيميا) وابنه تشارلز الرابع أيضاً من بعده وكانت عاصمته في

براغ من عام 1346 إلى عام 1378م وأبدى اهتماماً شخصياً كبيراً بتطوير المدينة. وفي عام 1348 أسس جامعة تشارلزوهي الأولى في أوروبا الوسطى التي كانت فيما بعد تجتذب العلماء والطلاب من جميع أنحاء القارة وشهد عهده نمو المدينة الجديدة المخططة (نوفي ميستو) المجاورة للمدينة القديمة أيضاً، وتم بناء جسر تشارلز عام 1357 وأعيد بناؤه مره أخرى لاحقاً في عام 1970 والذي يربط المدينة القديمة ومدينة (ومالا ستارانا) وفي بداية عام 1344 بُدئ ببناء كاتدرائية القديس فيتوس العظيمة التي لم تكتمل حتى عام 1929م وشملت المباني الأخرى كارولينوم (القاعة المركزية للجامعة) وقاعة المدينة التي دمرت لاحقاً في عام 1945 والعديد من الكنائس والأديرة في المدينة الجديدة كما تم تطوير الحي اليهودي وتم رفع الأسقفية إلى رئيس أساقفة في عام 1344م.

بحلول القرن الرابع عشر ميلادي أصبحت براغ مدينة رئيسية في أوروبا الوسطى، حيث كانت العملة التشيكية المسكوكة بمثابة العملة الصعبة للمنطقة بأكملها وأصبح التجار الأجانب ولا سيما الألمان والإيطاليون أقوياء اقتصادياً وسياسياً في تحالف غير مستقر مع الملوك ومع ذلك أصبح النظام الاجتماعي أقل استقراراً بسبب ظهور نقابات الحرفيين التي غالباً ما تمزقها الصراعات الداخلية وأضاف فقراء البلدة عنصراً آخر متقلباً للطبقة الحاكمة في ذلك الوقت.

وتميزت عودة الظروف الأكثر استقراراً في أوروبا الوسطى بتجدد النمو الاقتصادي ونما عدد سكان براغ من 40.000 نسمة عام 1705 إلى أكثر من 80.000 بحلول عام 1771 وفي عام 1784 تم تدمير البلدة القديمة والمدينة الجديدة ومالا سترانا ومجمع هرادكاني وجعلها موحدة إدارياً في مدينة واحدة وكان للتجار والنبلاء الألمان والإسبان والإيطاليين الذين نشطوا في براغ وما حولها في هذه الفترة تأثير هائل على كل من الهندسة المعمارية والحياة الثقافية وقام المهندسون المعماريون المتميزون بإنشاء قصور وحدائق رائعة وظهرت الكنائس في نسخة براغ الجديدة من الطراز الباروكي في جميع أنحاء المدينة.

## الثورة الصناعية

وكان لبداية الثورة الصناعية آثار كبيرة في براغ وتأسست الضاحية الأولى (كارلين) في عام 1817 وفي السنوات العشرين التالية ظهرت العديد من المصانع غالباً بالاشتراك مع مناجم الفحم ومصانع الحديد وتجاوز عدد السكان 100.000 نسمة بحلول عام 1837. واستمر التوسع بعد أن استقبلت المدينة

أول خط سكة حديد لها بعد ثماني سنوات وكان لصعود الطبقة العاملة والمشاعر القومية القوية تأثير عميق على المدينة، وخرج الطلاب والحرفيون والعمال ضد حكم النمساويين عندما اندلعت الثورة لفترة وجيزة في عام 1848. وفي غضون عشرين عاماً فاز التشيكيون بالأغلبية في مجلس المدينة وكانت الحياة الثقافية التشيكية تشهد نهضة تتمحور حول براغ، ويُعد المبنى الكلاسيكي الجديد للمتحف الوطني والمسرح الوطني مثالين فقط على المبنى الذي تم تشييده في هذه الفترة، وبحلول تسعينيات القرن التاسع عشر كانت أول عربات الترام الكهربائية تعمل في المدينة وتم إعادة تنظيم الخدمات الحضرية وكانت نسخة طبق الأصل من برج إيفل تطل على المدينة من تل (بترين).

## براغ العاصمة

في عام 1918 أصبحت براغ عاصمة جمهورية تشيكوسلوفاكيا المستقلة وبحلول عام 1930 وصل عدد السكان إلى 850.000 نسمة، وعانت المدينة من انتكاسة بعد استسلام أجزاء كبيرة من بوهيميا وموارفيا لألمانيا بموجب اتفاقية ميونيخ عام 1938 وثار المواطنون في 5 مايو 1945 وسيطروا على المدينة حتى وصول الجيش الأحمر بعد أربعة أيام وبعد بدء إعادة البناء الاقتصادي في الحرب العالمية الثانية كان التخطيط الدقيق ضرورياً لترميم المعالم التاريخية في وسط المدينة والحفاظ عليها. ومنذ السبعينيات كان هناك تركيز متزايد على تطوير مجتمعات المدينة الجديدة واستمرت المدينة في النمو، وعلى الرغم من أن معظم نموها السكاني يُعزى إلى الضم تم إنهاء ما يسمى بربيع براغ عام 1968 وهو رحلة قصيرة الأمد نحو الضوابط الاجتماعية والحكومية الليبرالية التي حولتها حكومة ألكسندر دوبتشيكد من خلال العمل العسكري السوفييتي في أغسطس من ذلك العام في نوفمبر 1989 أصبحت ساحة فاتسلافسكي في براغ مهد الحركة التي أنهت بسرعة أربعة عقود من الحكم الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا وأدت مسيرة مرخصة رسمياً في المدينة لإحياء ذكرى وفاة طالب على يد النازيين في عام 1939 إلى عنف الشرطة والاضطراب العام وأدى السخط على النظام الحالي إلى تأجيج المزيد من الاضطرابات، وفي النصف الثاني من شهر نوفمبر من العام نفسه تظاهر الطلاب والمثقفون الشباب ثم كبار السن فيما بعد الذين بلغ مجموعهم نحو نصف مليون شخص في شوارع العاصمة وأدت هذه الضغوط إلى استقالة قيادة الحزب الشيوعي بأكملها وتشكيل حكومة ائتلافية برئاسة غير الشيوعيين، وعندما تم حل تشيكوسلوفاكيا نفسها إلى الجمهوريات المكونة لها في 1 يناير 1993 حافظت براغ على مكانتها الدولية البارزة كعاصمة لجمهورية التشيك.

وطوال التسعينيات من القرن الماضي شهدت براغ تحولاً ثقافياً واقتصادياً وسياسياً وتم افتتاح سوق الأوراق المالية لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية وتم تحديث المدينة وأصبحت وجهة سياحية رئيسية وتتويجاً لولادة براغ الجديدة تم تصنيفها مدينة الثقافة الأوروبية في عام 2000. ومن أجمل الأماكن في المدينة أيضاً وبما يلقب بـ(القلب) ساحة المدينة القديمة والمركز التاريخي لمدينة براغ والمعروف بساعته الفلكية ومبانيه الملونة ومنطقة (مالا سترانا) أيضاً، وهي المدينة الصغرى بشوارعها الضيقة ومبانيها الجميلة التي تعكس تراث المدينة وساحة (فاتسلاف) التي تضم الكثير من المحلات التجارية والمطاعم والمتحف الوطني أيضاً، الذي يضم مجموعة رائعة من التاريخ الطبيعي ويوفر إطلالة رائعة على المدينة و(فيسهراد) أيضاً، وهو حصن تاريخي يضم حديقة جميلة وكنيسة القديس بطرس والقديس بولس وكل ذلك يعتبر أمثلة قليلة من المعالم البارزة، حيث تضم براغ العديد من المواقع التاريخية والمتاحف

والعجائب المعمارية التي يمكنك استكشافها فهي مدينة تمزج بشكل جميل بين الماضي والحاضر ما يجعلها وجهة مفضلة للسياح وعشاق التاريخ.

## عادات شعبية

من العادات الشعبية التراثية في مدينة براغ أسواق بيض عيد الفصح ففي وقت عيد الفصح تقريباً تستضيف ساحة البلدة القديمة في براغ والمناطق الأخرى أسواق عيد الفصح الملونة حيث يمكنك العثور على مصنوعات عيد الفصح التشيكية التقليدية المزينة بشكل جميل والأطعمة الاحتفالية وأسواق عيد الميلاد أيضاً التي تشتهر في براغ وخاصة في ساحة البلدة القديمة وساحة فاتسلاف بأجوائها الاحتفالية حيث توجد أكشاك تبيع هدايا العيد والحرف اليدوية والهدايا.

الموسيقى والرقص الشعبي التشيكي جزء لا يتجزأ من الثقافة التشكية، والرقص الشعبي التشيكي التقليدي جزء مهم وأصيل من التراث الثقافي للبلاد ويمكنك غالباً العثور على عروض الموسيقى والرقص الشعبي في المناسبات والمهرجانات الثقافية في أنحاء المدينة وتستضيف براغ على مدار العام العديد من المهرجانات الشعبية التي تحتفل بالتقاليد التشيكية أيضاً، بما في ذلك الموسيقى الشعبية والرقص والطعام وأيام براغ الفولكلورية هي واحدة هذه الأحداث ويوم القديس نيكولاس (ميكولاش)، حيث يتم الاحتفال بيوم القديس نيكولاس في السادس من ديسمبر وهو تقليد محبوب في براغ حيث يزور القديس نيكولاس والشيطان والملاك المنازل لمكافأة الأطفال أو توبيخهم بناءً على سلوكهم بالاتفاق مع الأهل بالطبع. ومعركة المياه في عيد الفصح (بوملازكا) أيضاً، ففي اليوم الثاني من عيد الفصح يقوم الأولاد الصغار تقليدياً بزيارة المنازل لضرب الفتيات بخفة باستخدام سوط مزين خاص يسمى «بوملازكا» ويهدف هذا إلى تحقيق الصحة والخصوبة في موروثهم الشعبي وتعد الأطباق التشيكية التقليدية، مثل: الجولاش، ولحم الخنزير المشوي، والزلابية، والمعجنات الحلوة، جزءاً أساسياً من تراث الطهي في براغ ومن الأحداث المميزة في المدينة كرنفال براغ (ماسوبوست) ويتضمن هذا الاحتفال الذي يسبق الصوم المسيرات الملونة والأزياء والكثير من الأطعمة اللذيذة قبل فترة الصيام وتتمتع براغ بتاريخ طويل من ثقافة التخمير والبيرة ويعد تذوق البيرة التشيكية وخاصة في الحانات التاريخية تجربة تقليدية. وتضيف هذه التقاليد عمقاً إلى هوية براغ الثقافية وتوفر للزوار فرصة الانغماس في فولكلور المدينة وعاداتها على مدار العام ■

كاتب مصري

# كان ياما كان

شعر: غابرييل أوكارا
ترجمة: د. شهاب غانم

ذات مرّة، يا بنيّ
كانوا يضحكون بقلوبهم
وتضحك أعينهم
لكنهم الآن يضحكون فقط من فوق أسنانهم
بينما عيونهم تظلّ باردة ككتلة جليد
وهي تبحث خلفي ووراء ظلي

كانوا في الماضي
يتصافحون بقلوبهم
لكن كلّ ذلك ذهب يا بني
فهم الآن يتصافحون بلا قلوب
بينما تفتش أيديهم اليسرى
جيوبي الفارغة

«اشعروكأنك في بيتك!»، «تعال مرّة أخرى»
يقولون ذلك ولكن عندما أعود
مرّة أخرى وأشعر
بأنني في بيتي، مرّة أو حتى مرّتين
لا تكون هناك مرّة ثالثة
لأنني عندئذ أجد الأبواب مغلقة في وجهي

لقد تعلمت أشياء كثيرة يا بني
لقد تعلمت ارتداء العديد من الوجوه
كأنّها فساتين:
وجه للبيت... وجه للمكتب
وجه للشارع، وجه للمُضيف
وجه للكوكتيل

كلّها مع ابتساماتها المناسبة
مثل الابتسامات الثابتة للّوحات

وقد تعلمت أيضاً
أن أضحك بأسناني فقط
وأن أصافح بدون قلبي
وقد تعلمت أيضاً أن أقول: «وداعاً»
عندما أعني «حمداً للخلاص منك»
وتعلمت أن أقول: «مسرور بلقائك»
دون أن أكون سعيداً أبداً
وأن أقول «لقد استمتعت بالحديث معك»
على الرغم من أنني كنت أشعر بالملل

لكن صدقني يا بني
أريد أن أكون كما اعتدت أن أكون
عندما كنت طفلاً مثلك
أريد أن أمحو من ذاكرتي كل ماتعلمته من هذه الأمور
الكاتمة
وفوق كل شيء أريد أن أتعلم كيف أضحك من جديد
لأن ضحكتي في المرآة
تظهر فقط أسناني
وكأنها أنياب ثعبان عارية!

لذا أرني يا بنيّ،
كيف تضحك
أرني كيف كنت أضحك وأبتسم
ذات مرة
عندما كنت مثلك

**ولد** غابرييل أدكارا في 24 إبريل 1921 في بومودي في نيجيريا وتوفي في 25 مارس 2019. وهو شاعر وروائي ومسرحي ومترجم للأدب حصل على العديد من الجوائز الأدبية. وكان يكتب بلغتي الإيجو النيجيرية والإنجليزية. ومن أشهر أعماله قصيدة «البيانو والطبول» والقصيدة أعلاه ورواية «الصوت».



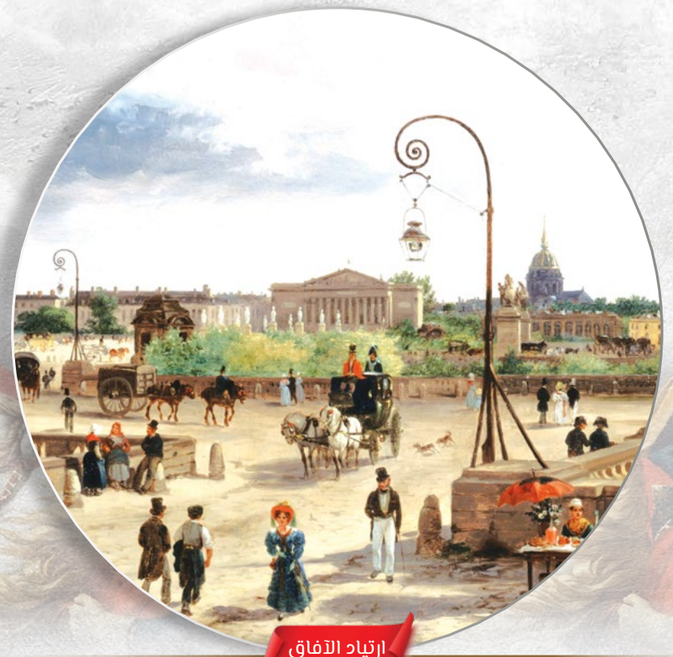

ارتياد الآفاق

الديوان النفيس في إيوان باريس أو تخليص الإبريز في تلخيص باريز

# رحلة إمام التنوير إلى عاصمة الاستنارة الأوروبية

محمد عبد العزيز السقا

الديوان النفيس في إيوان باريس أو تخليص الإبريز في تلخيص باريز

# رحلة إمام التنوير إلى عاصمة الاستنارة الأوروبية

محمد عبد العزيز السقا

**اهتزّت مصر لموته، واحتشدت الألوف المؤلفة من العلماء والأمراء والنبلاء وتلاميذ المدارس لتشييع جنازته، وازدحمت الشوارع بالخلق عرفاناً بفضله، يدعوه الأزهريون ابنهم، ويذكره المتعلمون المدنيون على أنه أبوهم، وتنعاه الجالية الفرنسية على أنه أخوهم، والمصريون جميعاً على أنه مؤسس نهضتهم وإمام التنوير في بلادهم، بدأت شهرته عندما أدرك «محمد علي باشا» والي مصر (1770 - 1849م) حاجة مصر الماسة إلى نهضة تستلزم الإلمام بعلوم العصر، وكان أحد المقربين منه هو الشيخ حسن العطّار (1766 - 1835م)، أهم الداعين إلى ضرورة الأخذ بالمعارف الحديثة في جامعة الأزهر الذي استغل قربه من محمد علي وأوعز إليه بضرورة إرسال البعثات إلى مراكز الاستنارة في أوروبا لتحصيل علمها، وأوصى بتعيين تلميذه «رفاعة رافع الطهطاوي» إماماً لأعضاء أولى البعثات العلمية إلى باريس عام 1826م، وكانت مكونة من 44 عضواً، وأوصى العطار تلميذه أن يفتح عينيه وعقله، وأن يدوّن يوميات رحلته، ويسجل ملاحظاته بدقة، ونصح المدير الفرنسي لهذه الرحلة رفاعة بأن يتعلم اللغة الفرنسية، وأن يترجم مدوناته في كتاب، وهذه اليوميات التي استمرت خمس سنوات تدويناً وترجمةً، هي التي نشرها الطهطاوي بعد ذلك في كتاب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) والتي يُعد أهم سجلٍ لها، وشاهداً على أثرها، فجاءت عملاً بديعاً، يوضح ما كانت عليه أحوال العلوم التاريخية والجغرافية والسياسية والاجتماعية في كل من مصروفرنسا، ليبقى واحداً من أهم الكتب العربية التي وضعت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. يقول الشيخ حسن العطار* عن تلك الرحلة: «.. قد أودع في هذه الرحلة مؤلفها الأديب الأريب، والفاضل الذكي اللبيب، ما شاهده من عجائب تلك البلاد، وأحوال هذه البلاد، وأحوال هؤلاء العباد، ما يحرّض العاقل على الأسفار، والتنقل في الأمصار، حتى يزداد بذلك علماً يقيناً، ويفوق بالإحاطة بأحوال عباده في الزمن اليسير بما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئينا».**

## الإطار العام وسياق الرحلة

بعد حملة نابليون بونابرت على مصر، أصيب العالم العربي والإسلامي بصدمة لم يستفق من شدتها، حيث وقف المسلمون، آنذاك، على البون الشاسع بين العتاد العسكري والتقني عند الغازي الغربي وما نحن عليه من تراجع.

في سياق موازٍ تحولت كتابات الرحلة في العصر الحديث إلى مادة أصلية لعلم الإثنوجرافيا الذي يعنى بوصف أسلوب الحياة، والعادات والتقاليد، والمأثورات الشعبية والثقافية لدى الشعوب، ثم بيان وجهة نظر الرحالة بما يمثله من ثقافة وأمة، في ثقافة أخرى وأمة مغايرة. وهنا تكمن أهمية هذه الرحلة التي بين أيدينا اليوم.

الإبريز، في اللغة هو الذهب الخالص، ويقال: ذهب إبريز، والقطعة منه إبريزة، وإلى رفاعة يعود الفضل في ترميز هذه المفردة حين عنونها في رحلته الشهيرة: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، التي يمكن أن نعدها أول مسبار عربي إلى الفكر الأوروبي الحديث، وأحد أهم الكتب المؤسسة لفكر النهضة العربية، والتي قادت رفاعة إلى اكتشاف أسرار باريس، في زيارة تاريخية وقف من خلالها الطهطاوي على عوامل نجاح وتقدم فرنسا ثقافياً وحضارياً وعلمياً، دفعه شغفه بالمعرفة وحب الاكتشاف إلى تعلم أبجديات اللغة الفرنسية وهو لا يزال على ظهر السفينة الحربية المتوجهة نحو فرنسا رفقة الطلاب المصريين، لم يكن الرجل يعلم بأن تماديه في مدح الحضارة الغربية سيجعل منتقديه يتهمونه بالانسلاخ عن الدين والانبهار ببلاد الغرب، فرد عليهم بأنه يجب التمييز بين الغرب الحضاري والثقافي والغرب السياسي والديني. وقد تناسى منتقدو رفاعة أن الحضارة الإسلامية تطورت علمياً بفضل ترجمة كتب ومجلدات الحضارة اليونانية ما جعلها ترقى بعلوم الفلك والطب والفلسفة، ثم بعد تخلفنا أخذ الغرب من الحضارة الإسلامية ما أراد من العلوم وطوروها ووصلوا إلى ما هم عليه اليوم.

بمجرد أن دخل رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا لم يخفِ الرجل انبهاره بهندسة العمران، وطريقة تعامل الرجال مع النساء، كما تفاجأ بالمساواة بين الأغنياء والفقراء أمام القانون، وبخطاب الذات كان يتأسف على ما وصل إليه حال المسلمين من تقهقر،

وأعلن أنه يجب التمييز بين الغرب الحضاري والثقافي والغرب السياسي والديني، ولا عيب لو نقل المسلمون علوم الغربيين إلى بلادهم. وانكب الطهطاوي على الدرس والتحصيل والقراءة والترجمة، وتحول الإمام الفقيه إلى متعلم وباحث، ولما رجع إلى الوطن أدرك ما يحتاجه البعث والنهوض فتبنّى حركة الترجمة المنظمة، وبعث في مصر حياة جديدة في التعليم والصحافة.

## منهج الجدية والحياد

لقد انعكس الغرض من الرحلة، على الرحلة نفسها، فقصرها على أنشطة محددة، ثم انعكس كذلك على بناء الرحلة، فجاءت مملوءة بالمعلومات الوافرة (في جوانب مختلفة من الحياة).

مرحلة أولى من مراحل التماس الحضاري، والتحول في العالم العربي من التخلف إلى الإبصار، الرغبة في المعرفة هي الحافز للرحلة، لذا فقد انصرف الطهطاوي عن كل شيء يعطل الهدف (كالصداقات، والعلاقات الاجتماعية...)، ويرنو إلى جمع المعرفة بأنواعها، ينكب على الدرس، ويقصر أيام خروجه ولهوه على يوم واحد في الأسبوع يملؤه بالتعرف على عادات الناس وطبائعهم.

أما عن منهج الحياد فيقول الطهطاوي: .. هذا الكتاب إنه في مدة السفر من مصر إلى باريس وما رأيناه من الغرائب في الطريق، أو مدة الإقامة في هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية، والفنون والعدل العجيب، والإنصاف الغريب، الذي يحق أن يكون من باب أولى في ديار الإسلام، وبلاد شريعة النبي (صلى الله عليه وسلم)، .. بل إنه وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على أن لا أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال».

ربما كان هذا أحد أسباب هذه الشهرة التي لقيتها الرحلة والتي لم تواكب بشهرة أخرى، وغالباً ما تشير كتب تاريخ الأدب إلى مضمون تلك الرحلة، أو إلى ما تميز به نص رفاعة ذاك من خصائص جعلته نصاً يستحق الخلود.

## البناء السردي للرحلة

الطهطاوي في حديثه عن البلاد وأحوالها، لا يتجاهل المادة التاريخية، المرتبطة بالمدن، فكأنما رسم خطين متقاطعين رأسياً وأفقياً، المكان والزمان، فما إن يصف لنا المكان حتى يضرب في الزمن فيستدعي تاريخه. اتبع تقنية المزج بين الوصفي والسردي، مع التدقيق الشديد في التفاصيل الصغيرة، بطريقة

توصيفية لا وصفية فقط، وهذا من وجهة نظري أخطر ما في الرحلة، فالرجل هنا لا يدون مشاهداته إنما هو رجل جاء لينقل أسلوب حياة إلى قومه فهو يوثق الكيفية ليتعلمها من كان وراءه – إن أرادوا - فهو يقطر ما تراه عينه في كيسه ويحكم وثاقه في دفترة حتى إذا ما عاد إلى قومه نثر بين أيديهم ما رآه وفتح الباب لمن أراد أن يحاكي التجربة أن يفعل.

يقول رفاعة: «.. ثم مدوا السفرة للفطور، ثم جاؤوا بطبليات عالية، ثم رصوه من الصحون البيضاء الشبيهة بالعجمية، وجعلوا قدام كل صحن قدحاً من: القزاز، وسكيناً، وشوكة، وملعقة. وفي كل طبلية: إناء فيه ملح، وآخر فيه نحو قزازتين من الماء، وفلفل، ثم رصوا حول الطبلية كراسي لكل واحد كرسي، ثم جاؤوا بالطبيخ، فوضعوا في كل طبلية صحناً كبيراً وصحنين ليغرف أحد أهل الطبلية ويقسم على الجميع، فيعطي كل إنسان في صحنه شيئاً يقطعه بالسكين التي قدامه، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة، لا بيده. فلا يأكل الإنسان بيده أصلاً، ولا بشوكة غيره،

أوسكينه، أويشرب من قدحه أبداً...» وعندما يتحدث الطهطاوي عن أنواع الفنون في فرنسا، فإنه يربط هذه الفنون بجوانب متعددة كالعادات الاجتماعية، ونظرة الناس لها، فالرقص عند الفرنسيين نوع من المهارة، لا من الفسق. فهو ليس مثل الرقص في مصر.

كما أن المؤلف يعتمد في ذكر أجزاء الرحلة على الترتيب الزمني. وهو عمل يشبه - إلى حد كبير- عمل المؤرخين العرب الكلاسيكي، (إن جاز التعبير)، معتمداً في ذلك على تقنية التلخيص.

## الكتاب

يقول المؤلف: كان خروجنا من مصر، عصر يوم الجمعة، الذي هو ثامن يوم من شعبان سنة إحدى وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة المحمدية، على صاحبها، أفضل الصلاة والسلام.

ويبدأ الكتاب بأولى حلقات الحضارة، ثم ينتقل إلى المرحلة الأخرى متحدثاً عن مراتب الناس حيث يجعلهم في ثلاث مراتب: مرتبة الهمل المتوحشين، ثم البدو بما عندهم من طبيعة الاجتماع الإنساني، ثم مرتبة المتحضرين من أهل الصناعات والمعارف. ثم يأتي - بعد ذلك - إلى الحديث عن أنواع المعارف، والعلوم، ومراتبها، (وهي الغاية التي تكتمل بها الحضارة). ويتبع ذلك بحديثٍ عن بلاد الإفرنج، ومنزلتها من بلاد العالم. وهناك تعريف بالقائمين على رحلته، وبيان مراتبهم، والتفصيل في مهامهم، ثم مدة إقامته في مدينة مرسيلية وما شاهده فيها. وحين بلغت الرحلة باريس أفاض القول فيها، فخصها بثلاثة عشر فصلاً من فصول الرحلة تناول فيها ما يتصل بأهلها من المعاش، والعادات في المأكل والملبس والمتنزه، والتعارف، وفي أيام الإجازات.

## من الرحلة

«.. وقد امتطينا سفينة حرب فرنساوية، تجذب قلب الراكب حتى يصير في وسطها صباً، محتوية على سائر ما يحتاج إليه من الحرف والصنائع، مشتملة على آلات الحروب والحربجية، ومحصنة بثمانية عشر من المدافع، وكان مجراها يوم الخميس سادس يوم من شهر رمضان المبارك وكان هبوب الريح وقتئذ خفيفاً فسرنا من غير إشعار بالسير، فتوسمنا في وجهها الخير... وما زلنا نسير من غير شدة ... نحو أربعة أيام، وبعدها عصفت الرياح، وتموج ماء البحر، وتلاعب بذات الألواح تلاعب الأشباح بالأرواح، فلازم أكثرنا الأرض، وتوسل جميعنا بالشفيع يوم العرض..».

«.. اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى: بذكاء العقل، ودقة الفهم، وغوص ذهنهم في العويصات. وليسوا مثل النصارى القبطة، في أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة. وليسوا أسراء التقليد أصلاً؛ بل يحبون دائماً معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم يعرفون القراءة والكتابة أيضاً، ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة.

... ومن الأمور المستحسنة في طباعهم (الشبيهة حقيقة بطباع العرب) عدم ميلهم إلى الأحداث والتشبيب فيهم أصلاً. فهذا أمر منسي الذكر عندهم، تأباه طبيعتهم وأخلاقهم. فمن محاسن لسانهم وأشعارهم أنها تأبى تغزل الجنس في جنسه. فلا يحسن في اللغة الفرنساوية قول الرجل: عشقت غلاماً، فإن هذا يكون من الكلام المنبوذ المشكل.

وهذا المقصد يتضمن مقالات عدة، تشتمل على عدد من الفصول: المقالة الأولى: الخروج من مصر، المقالة الثانية: دخول «مرسيليا»، والمقالة الثالثة: «باريس»، وهذه المقالة: هي الغرض الأصلي من وضعنا هذه الرحلة؛ فلذلك أطنبنا فيها غاية الإطناب، وإن كان جميع هذا لا يفي بحق هذه المدينة، بل هو تقريبي... والمقالة الرابعة: في ذكر نبذ من العلوم والفنون، وذكر الصنائع المطلوبة، وهذه الفنون إما واهية في مصر، وإما مفقودة بالكلية. وهي قسمان: قسم عام للتلامذة، وهو: الحساب، والهندسة، والجغرافيا، والتاريخ، والرسم، وقسم خاص متوزع عليهم، وهو مؤلف من علوم عدة. العلم الأول: علم تدبير الأمور الملكية، ويتشعب عنه فروع عدة: الحقوق الثلاثة التي يعتبرها الإفرنج، وتسمى بالنواميس، وهي الحقوق الطبيعية، والحقوق البشرية، والحقوق الوضعية، وعلم أحوال البلدان مصالحها وما يليق بها، وعلم الاقتصاد في المصاريف وعلم تدبير المعاملات والمحاسبات، والخازندارية وحفظ بيت المال. والعلم الثاني: علم تدبير العسكرية. والعلم الثالث: علم القبطانية، والأمور البحرية. والعلم الرابع: فن معرفة المشي في مصالح الدول، ويعني علم السفارة، ومنه (الإيلجية)، وهي رسالة البلدان. وفروعه: معرفة الألسن، والحقوق، والاصطلاحات. والعلم الخامس: فن المياه وهو صناعة القناطر، والجسور، والأرصفة، والفساقي، ونحو ذلك. والعلم السادس: الميكانيكا، وهي آلات الهندسة، وجر الأثقال. والعلم السابع: الهندسة الحربية. والعلم الثامن: فن الرمي بالمدافع وترتيبها، وهي فن (الطوبجية). والعلم التاسع: فن سبك المعادن، لصناعة المدافع والأسلحة وغيرها. والعلم العاشر: علم الكيميا، وصناعة الورق، والمراد بالكيميا معرفة تحليل الأجزاء وتركيبها، ويدخل تحتها الكثير من الأمور؛ كصناعة البارود والسكر وليس المراد بالكيميا حجر الفلاسفة، كما يظنه بعض الناس، فإن هذا لا تعرفه الإفرنج، ولا تعتقده أصلاً. والعلم الحادي عشر: فن الطب، وفروعه: فن التشريح، والجراحة، وتدبير الصحة، وفن معرفة مزاج المريض، وفن البيطرة؛ أي معالجة الخيل وغيرها. والعلم الثاني عشر: علم الفلاحة، وفروعها: معرفة أنواع الزروع وتدبير الخلا بالبناء اللائق به، وغيرها، ومعرفة ما يخصه من آلات الحراثة المدبر للمصاريف. والعلم الثالث عشر: علم تاريخ الطبيعيات، وفروعه: الحيوانات، ومرتبة النباتات، ومرتبة المعادن، والعلم الرابع عشر: صناعة النقاشة، وفروعها، فن الطباعة، وفن حفر الأحجار ونقشها، ونحوها. العلم الخامس عشر: فن الترجمة، يعنى ترجمة الكتب، وهو من الفنون الصعبة، خصوصاً ترجمة الكتب العلمية، فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلم المراد ترجمتها، فهو عبارة عن معرفة اللسان المترجم عنه وإليه، والفن المترجم فيه. فإذا نظرت بين الحقيقة رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا، ومن جهل شيئاً فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء، وكلما تكبر الإنسان عن تعلمه شيئاً مات بحسرته ■

باحث في أدب الرحلات

**الهوامش:**

- الشيخ حسن العطار 1766 - 1835م، الشيخ السادس عشر للجامع الأزهر في مصر، وأحد قادة حركة الإصلاح والتقريب بين الثقافة العربية والغربية، أسهم بأمر من محمد علي في تأسيس مدرسة الألسن والطب وغيرها.

**المصادر:**

1. الديوان النفيس في إيوان باريس: أو تخليص الإبريز في تلخيص باريز، رفاعة رافع الطهطاوي، طبعة دار السويدي للنشر 2002م.

2. أدب الرحلات، حسين محمد فهيم، عالم المعرفة 138 الطبعة الأولى، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1989م.

3. تاريخ البعثات المصرية إلى أوروبا في عصر محمد علي، عبد الحكيم قاسم، مكتبة مدبولي 2010م.

# المرأة الأخرى
## في قصص الكاتبة أسماء الزرعوني

أحمد حسين حميدان

**في قصص مجموعتها «الشواطئ الفارغة»[1] تعطي القاصة أسماء الزرعوني معظم مساحتها السردية للأنثى وهمومها ومتاعبها إلى حدّ بدت فيه على متن قصص هذه المجموعة عنوان المعاناة المفتوحة على الذات والموضوع في آن واحد، فظهرت في أتون الحدث القصصي حاملة لهذه المعاناة ومحمولة فيها ولا يمكن القول إنّ تجسيد ذلك قد تمّ إنجازه بفعل شخصية أنثوية متمتعة بدرجة معرفية واحدة كما لا يمكن القول إن الهموم التي كانت تشغل بال هذه الشخصية الأنثوية هي هموم المرأة التقليدية على الدوام، فهي كما تقدّمها في قصتها الأولى «احتضار كلمة» أنثى غير عادية ملقاة في مكان غير طبيعي مساحته صغيرة ومغمورة بالرطوبة والعتمة من هذا المكان الذي سنكتشفه قبل الختام بقليل بأنه مكان اعتقلت فيه بطلة القصة، ومنه من السجن انطلقت بطلة القصة لتقاوم سلطة القمع وحين ينفتح الباب عليها بيد رجل يرتدي ثياباً عسكرية تتّضح المسألة أكثر وهو يسألها باستغراب:**

**(- ولكن لماذا أنتِ هنا؟.. لقد اعتدنا رؤيتك عبر صفحات الجرائد والمجلات وأزقّةُ الكتب.. ضحكة عالية أطلقتها:**

**- أتعرف لماذا أنا هنا..؟**

**سكت برهة من الوقت وعمّ الصمت ظلمة المكان وكأنّ الرجل كان توّاقاً إلى ما ستقوله.. انتظروانتظروأخيراً انطلقت كلماتها:**

**- أنا هنا.. لأنني أبدعتُ في رسم الكلمات!..)[2].**

من خلال هذا الحوار تأخذ أسماء الزرعوني المرأة من بيت الطاعة إلى بيت العصيان، وتنقلها من دار العطور والأزياء إلى خندق المواجهة السياسية، فهي أنثى الاستثناء المعروفة بسعتها الثقافية وليست النكرة، حتّى سجّانها كان يعرفها من صورتها وكتاباتها المنشورة في الكتب والصحف والمجلات.. إنها سليلة شهرزاد الراوية والمروي عنها التي زيّنت ليل الملك رغم محاولاته الدؤوبة لمصادرة صوتها وكلمتها وحريتها فراحت إلى محاربة سلطته القمعية ومجابهة زنزانته الطافحة بالعتمة والتعذيب في خندق بقي معظم الوقت مخصصاً للرجل لتبقى كلمتها حاضرة في قلمها ولسانها عصيّة على الكبت والغياب وهو ما يبدو متنافياً مع العنوان الذي اختارته الكاتبة بعبارة لم تفِ بالغرض ولم تؤدِّ دورها التلميحي إلى ما ستذهب إليه القصة بشكل لا تتعارض فيه مع الفكرة التي قامت من أجلها وفق معانيها المحمولة في جسد النص وروحه، فبينما يقول العنوان عن القصة: احتضار كلمة.. أي تباشير موت لصوت الكلمة وتباشير انطفاء لوجود صاحبتها يعبّر النص عن شيء مغاير تماماً يتجلّى بمجابهة ومقاومة صامدة تهتف صاحبة الكلمة في ذروتها: (لا لن أستسلم فأنا لم أرتكب جرماً.. سأواجه مصيري ولن أركع) وتعلّق الكاتبة على هذا الموقف قائلة:

(كان الفجر ثقيلاً.. فجر نهض من بقايا دمعة تركت في المكان بصمتها المكتنزة كل أهوال العذاب النفسي التي عاشتها ليلاً.. رغم ذلك أعلنت الصمود..)[3] من خلال ذلك تتباين المعاني وتتعارض بين عنوان النص القصصي ومقدّماته التي تفصح عنها عناوين سياقه ونتائجه التي أرساها عبر النشاط الإنساني المصاحب لهذا السياق ذاته ما جعل القصة – رغم جودتها - عرضة للمفارقة القائمة على التعارض بين عنوان القصة وسياقها من جهة ولغة كاتبة القصة ولغة الكاتبة بطلتها ومعهما لغة رجل الأمن أيضاً - السجّان - وإذا كان هناك ما يلغي الفارق بين الكاتبة وبطلتها باعتبارهما وجهين لشخصية واحدة فإن الفارق ماثل بقوة بين سويّة رجل الأمن الثقافية وسوية الكاتبة المعرفية، فلا يبدو عنصر الأمن على درجة من الوعي والثقافة تؤهّله لمخاطبة بطلة القصة بالقول لها لماذا أنتِ هنا في السجن لقد اعتدنا رؤيتكِ عبر أزقّة الكتب!..[4].

وإذا كانت المرأة هنا تختلف عن سوية النساء العامة في ممارساتها الفكرية، فإن المرأة في قصة «بدون اسم» تختلف عن سوية المرأة التقليدية باهتماماتها التي تتعدّى الزينة والعطور إلى الآثار أيضاً، فتكون هاجسها وشغلها الشاغل في رحلتها المفتوحة على المدن والأزمنة وحين تهمّ لربط الصورة بين عدسة الحاضر ومنجزات الماضي يحاصرها صوت أحد رجال الحكومة بالمنع

أسماء الزرعوني

وهو يصرخ: (توقّفي يا امرأة هل لديكِ تصريح؟.. فأحاط بها جدار من الكآبة والإحباط..)[5].

عبر هذا الخط الفاصل بين الحركة والمنع تضع أسماء الزرعوني نقطة النهاية للمرأة النخبوية غير التقليدية وتصوّر فاجعتها بما تمارسه السلطة السياسية القمعية على نشاطها الذي ظلّ في قصة «احتضار كلمة» حبيساً خلف قضبان الزنزانة والذي بقي مكبلاً وممنوعاً وفق القوانين والأنظمة اللا معقولة في قصة «بدون اسم» أما فيما يتعلق بالمرأة الأخرى غير النخبوية فهي لم تكن بنشاطها العادي وبُعدها عن قمع السلطة السياسية أحسن حالاً من سابقتها من جرّاء ما تعرّضت له من ممارسات السلطة الاجتماعية، فقد ذاقت الأمرّين من عاداتها وتقاليدها الذكورية التي تسعى للقصاص منها وتغريمها بثمن كل مخالفة تتجاوز أعراف هذه العادات حتى لو كان وقوعها فيها بسبب الرجل الذي لا يطاله أي حساب وهو ما هجست به القصة الإماراتية القصيرة منذ خطواتها الأولى وقامت بنقله وبيان آثاره وما سببه من خلل على الصعيد الأسري عبر موضوعات متعددة جعلت المرأة في مقدّمتها شكواها من الرجل المتهم بسوء معاملتها وخيانتها والانصراف عنها إلى الارتباط والزواج من أجنبيات وقد ترجمت الكاتبات الإماراتيات هذه الشكوى النسائية بما قدّمنه من صور غير إيجابية وغير إنسانية للرجل الحبيب، وللرجل الزوج على وجه الخصوص، وهو ما ذهبت إلى تكراره وإعادة إنتاجه أسماء الزرعوني في معظم قصص مجموعتها، فكما كانت بطلة شيخة الناخي[6] تنتظر على جمر النار ابن عمّها المسافر حتى فجعها بزواجه من فتاة أجنبية، كانت بطلة أسماء الزرعوني في قصة «الشواطئ الفارغة»[7] تنتظر ابن عمّها الذاهب لإكمال دراسته خارج الوطن وحين تذهب مع عمّها لاستقباله في المطار مغمورة بشعور فيّاض وعواطف جارفة تحصل لها ذات الفجيعة والصدمة وهو يعرّفها على زوجته الأجنبية وابنه الذي أنجبه منها.. وكما ذاقت بطلة باسمة يونس في مجموعة «رجولة غير معلنة» [8] مرارة ارتباط زوجها بامرأة ثانية إلى حدّ تمنّت فيه الرحيل إلى عالم الغياب والنسيان تذوق بطلتها المرارة نفسها في قصة «عندما يموت الفرح»[9] حين تكتشف ارتباط زوجها الذي أحبّته إلى درجة الجنون بزوجة ثانية تمّ افتضاح أمرها إثر مكالمة هاتفية قلبت حياتها معه رأساً على عقب، وسادت الكراهية بينهما وكادت تترك البيت له بلا رجعة لولا ضغوط أهلها عليها

ولولا أطفالها الصغار، وهي بذلك لم تبلغ نقطة اللاعودة التي وصلت إليها المرأة العاقر في قصة «لحظة من عمر الزمن» عندما غادرت البيت ولم تعد إليه وبقيت مصرّة على طلب الطلاق من زوجها الذي قرّر الزواج من امرأة ثانية لإنجاب طفل قائلة له: (أرجوك إن كنتَ تسعى ليكون لك أولاد فلن أحرمهم منك، تزوّج، ولكن قبل ذلك طلّقني..)[10]، ولكنها بهذا الطلاق تبتعد عن أزمة لتقع في مأزق أشدّ تدفع فيه الشابة الحسناء «مريم» في قصتها مع زوجها الثري ثمناً باهظاً يتعارض من الخطاب الديني الذي استوصى بها خيراً ولا يتّفق مع ما قدّمته لها نصوص اللغة من مكانة. وإذا كانت الملحمة والأسطورة قد أكّدت في إطار سياقها التاريخي المثيولوجي على لقاء الرجل الأغنى بالمرأة الأجمل في علاقة حميمة تشتعل حباً بعدما أصاب سهم إله الحب أيروس كيوبيد قلب كل منهما، فإن ما جرى بين المعلمة الجميلة بطلة قصة مريم وزوجها الغني يمضي باتجاه معاكس تماماً لجهة الحب التي كانت تجمعها بابن خالتها قبل رفض والدها له حين تقدم لخطبتها بسبب فقره وإصراره على تزويجها من الآخر الثري قائلاً لها: (سلمتك لرجل يستطيع أن يحميكِ من جور الزمان..)[11] فقبلت مرغمة بهذا الزواج من رجل انقلب هو والزمان عليها فاستولى على راتبها الوظيفي رغم غناه ومنعها من زيارة أمها ثم انصرف لاهياً عنها بليل أصدقاء السوء والخمرة فتضاعفت عليها فصول مأساتها التي تنقلها الكاتبة من دواخل الذات إلى الساحات المفتوحة على نطاق مجتمع بطلتها المدرسي المحدود بزميلاتها وعلى نطاق مجتمعي أوسع يشمل الأهل والأقارب والمعارف الذين يتعاملون مع سطح الأزمة وليس مع أعماقها وهو

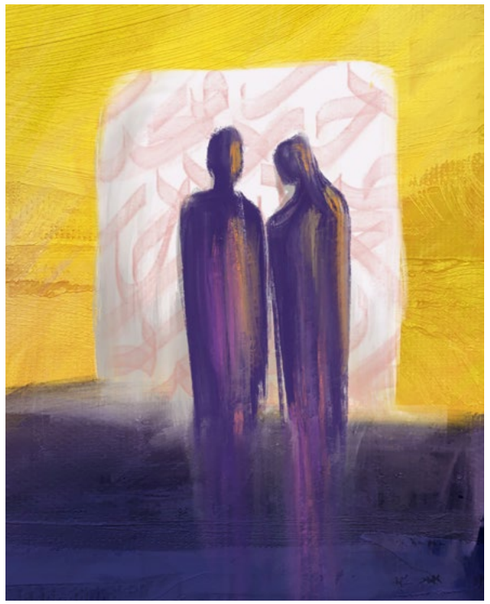

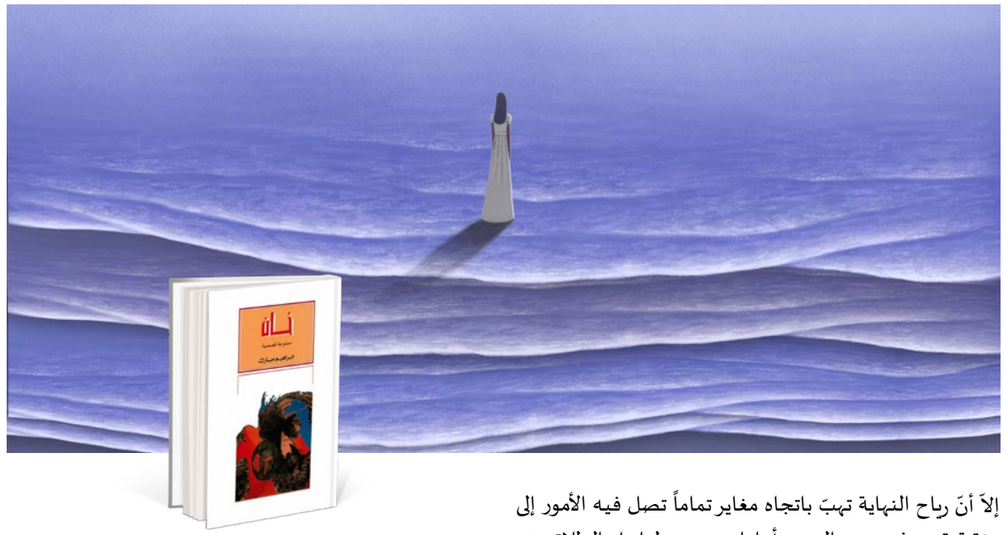

ما سيطرح أزمة الوعي إضافة إلى أزمة الإرادة التي تعانيها المرأة والمجتمع على حدّ سواء والمرأة التي تطرحها أسماء الزرعوني في قصتها من المفترض أنها تتمتع بقدر ما من الإرادة ومن المفترض أن تكون قد تخلّصت من أميتها التعليمية على الأقل باعتبارها من المدرّسات العاملات في ميدان التربية والتعليم ومع ذلك فُرض عليها شريك حياتها فرضاً وحين بانت فظاظته وأصبحت الحياة معه شبه مستحيلة نقلت مشكلتها إلى الوسط المدرسي وراحت تشكو لزميلاتها ما تعانيه منه ومن سوء معاملته ومن ردّهن عليها يتكشّف لنا مدى السذاجة والسطحية التي مازالت تُجابه بها المرأة العربية المتعلمة قضاياها ومشكلاتها الرئيسية بطريقة بعيدة عن روح الثقافة والوعي، فقد قالت لها الأولى ناصحة: (.. أقصر الطريق إلى قلب زوجكِ معدته.. عليك بما لذّ وطاب من الأطباق وستجدينه طوع يديكِ.. فردّت الثانية: الدلال والجمال يا ابنتي هما المصيدة التي توقع أغلظ الرجال وأعتاهم. ويبقى الرجل إلى جانبك متربعاً لا يقوى على الفراق.. املكيه بعينيك الساحرتين.. اشعليه بغنجكِ ودلالكِ.. وقالت لها الثالثة: اربطيه يا حبيبتي بالعيال.. الأولاد وحدهم يقصّون أجنحة والدهم.. وشدّتها الرابعة وهمست في أذنها: سآخذك إلى مطوع يعمل لكِ عملاً..)[12].

إلاّ أنّ رياح النهاية تهبّ باتجاه مغاير تماماً تصل فيه الأمور إلى مفترق تعود فيه مريم إلى بيت أهلها بعد حصولها على الطلاق وهي تصرخ لأمها بفرح عارم بأنها تخلّصت من زوجها المستبدّ ومن كوابيسه وأصبحت حرّة وانتهى كل شيء.. لكنّ أمّها لا تشاركها هذا الفرح وتؤكّد لابنتها بأسى بأن الأمور ابتدأت ولم تنته وتذكّرها بأن كلام الناس لا يرحم.. فترفض مريم ذلك عاكسة اختلافاً في الرؤية بين جيلين ولم يدم هذا الاختلاف طويلاً بينها وبين أمّها بعدما وجدت أن لا سبيل إلى تجاهل اللسان الاجتماعي فتتراجع وتحاول التواري والاختباء إلاّ أنّ الصوت يستمرّ في اختراق أذنيها: مطلّقة، مطلّقة.. كتوكيد على تخلّصها من رحى زوجها المستبدّ ووقوعها في أتون معاناة المرأة المطلقة والنظرة الاجتماعية لها وما يُحاك من أحاديث هامسة تمسّ بشرفها وسمعتها.. ضمن هذا السياق تحاول الكاتبة تجسيد معاناة شخصياتها القصصية عبر مكنون داخلي رحب كما يعبر بيتروف في الواقعية النقدية[13] فهي تقدم المرأة التي تشكو الدونية وانعدام الحرية والإرادة وتقدم الرجل الذي يشكو تدني درجة الوعي لديه والذي كان من مؤداه الزواج من الأجنبيات الذي استأثر باهتمام القصة الإماراتية نظراً لما أحدثه من خلل في أداء المهام التربوية الأسرية وفي تركيبة البنيان الاجتماعي ولغته الثقافية وعلاقاته بعضه ببعض لم يضرّ بالمرأة وحدها كما صوّرت شيخة الناخي في قصصها بل أضرّ بالرجل أيضاً وجعله يشارك ابنة جلدته في دفع الثمن، وما قدّمه إبراهيم مبارك في مجموعته «خان»[14] حين كتب عن تخلّي الزوجة الإنكليزية عن زوجها الشاب الإماراتي وعودتها لبلدها لعجزها عن مقاسمته ظروف حياته الجديدة في وطنه إلاّ جزءاً من هذا الثمن.. وأسماء الزرعوني في الوقت الذي تعاني فيه بطلاتها من الزوج سواءٌ كان مرتبطاً بأجنبية أم غير مرتبط بأجنبية فإنها تترك مساحة من قصص الشواطئ الفارغة لتؤكّد في سطورها معاناة الرجل من هذا الزواج الذي ارتبط بموجبه بامرأة أخرى ليست من بنات وطنه وليست من بنات جلدته ■

كاتب وأديب سوري

**الهوامش والمراجع:**


1. مجموعة الشواطئ الفارغة، قصص أسماء الزرعوني، طبعة خاصة، مطابع البيان التجارية، دبي، عام 2001.
2. المرجع السابق نفسه، قصة احتضار كلمة ص 10.
3. المرجع السابق نفسه، ص 7 - 9.
4. المرجع السابق نفسه، ص 10.
5. المرجع السابق نفسه، قصة بدون اسم، ص 48 - 49.
6. مجموعة الرحيل، قصص شيخة الناخي، اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات عام 1992.
7. مجموعة الشواطئ الفارغة، قصص أسماء الزرعوني، قصة الشواطئ الفارغة، ص 7.
8. مجموعة رجولة غير معلنة، قصص باسمة يونس، إصدار اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات عام 2000.
9. مجموعة الشواطئ الفارغة، أسماء الزرعوني، قصة عندما يموت الفرح، ص 37.
10. المرجع السابق نفسه، قصة لحظة عمر من الزمن، ص 72.
11. المرجع السابق نفسه، قصة مريم، ص 54.
12. المرجع السابق نفسه، ص 61 - 62.
13. الواقعية النقدية، بيتروف، وزارة الثقافة السورية، دمشق 1984.
14. مجموعة خان، قصص إبراهيم مبارك، إصدار اتحاد كتّاب وأدباء الإمارات عام 1998.

ذكريات زمن البدايات (19)

# عبد الله بن أحمد العتيبة ...

## ديوان شفهي للمتنبي وعنترة

خليل عيلبوني

**بعض الرجال يبقون أحياء برغم الموت الذي يغيبهم عنا، ولا يستطيع الزمن أن يمسحهم من ذاكرة الوطن، ولا يمكنه أن يدفن ذكراهم تحت ركام السنين والأيام.**

**من هؤلاء الرجال، عبد الله بن أحمد العتيبة، أكبر أولاد أحمد بن خلف العتيبة الذي وقَّع شاهداً على أول اتفاقية أعطيت بموجبها شركة تطوير بترول الساحل المتهادن امتيازاً للنفط في المناطق البرية إلى جانب توقيع الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان، حاكم إمارة أبوظبي، في الحادي عشر من يناير 1939، وكان الرجل من كبار تُجّار الإمارة قبل النفط، ومن المقربين إلى الحاكم بسبب الدعم المالي الذي كان يقدمه من جهة، وكونه والد زوجة الحاكم من جهة أخرى.**

أول لقاء بيني وبين عبد الله بن أحمد العتيبة يعود إلى مايو 1971 في مجلس المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه. فقد كان عبد الله بن أحمد - رحمه الله - مرافقاً شبه دائم للقائد زايد. رحمه الله. على مر السنوات التي سبقت وفاته. أثار الرجل اهتمامي لسببين. الأول: قربه من القائد. والثاني: ثقافته الواسعة، وحفظه الشعر العربي الفصيح خاصةً شعر المتنبي، وشعر عنترة بن شداد.

وحينما كان الشيخ زايد . رحمه الله . يريد أن يتحقق من بيت قديم من الشعر، كان ينظر إلى عبد الله بن أحمد الذي يسرع بذكر البيت، وما يليه، بإلقاء واثق ودون أي لحن.. ما يؤكد مدى ما وصل إليه من ثقافة ومن حفظ. وحينما بدأت ألتقي به في مجلس ابن أخيه الدكتور مانع سعيد العتيبة توثقت الصداقة بيننا حيث كنا نعزف معاً على آلة واحدة هي ربابة الشعر.

فوجئت وأنا أستمع إلى إجاباته عن أسئلتي بأنه بمنزلة ديوان شفهي للمتنبي وعنترة، فلا أبدأ بذكر البيت الأول من أي قصيدة للشاعرين إلا وأجده يكمل الأبيات التي تليها بمنتهى الثقة بالنفس، ودون تأتأة أو تعثر، أو حتى محاولة تذكر بسبب النسيان. حدثني . رحمه الله . عن أيام ما قبل النفط، عن زمن الغوص حيث كان طوّاشاً، يتاجر باللؤلؤ، ويشرف على إدارة أعمال والده أحمد بن خلف. من كلماته التي لا ولن أنساها عن تلك المرحلة قوله: «كنا نعيش جميعاً كأننا أسرة واحدة، لا فرق بين الحاكم والرعية، مجلس الحاكم كان عامّاً للجميع، وكذلك كان مجلس الوالد أحمد بن خلف.. أي مواطن يستطيع أن يأتي إلى مجلس الحاكم أو الوالد أحمد.. يأكل ويشرب وكأنه في بيته، وإن كان

بحاجة للمساعدة وجدها؛ فالتكافل الاجتماعي كان الخيمة التي جمعت جميع المواطنين تحت سقفها وفي ظلالها، ولذلك كنا سعداء برغم عدم توافر وسائل الراحة التي نجدها الآن، كان الماء الذي نشربه يميل إلى الملوحة، ولكننا كنا نتلذذ بطعمه، ونشكر الله على توافره، وكان طعامنا بسيطاً ولكنه كان طيباً وكافياً للجميع. وبرغم توافر فرصٍ للعمل وحياةٍ أفضل في دول خليجية أخرى سبقتنا إلى اكتشاف النفط فإننا بقينا في أرضنا، وتمسكنا برمالنا الصفراء، وحافظنا على الوطن بالصبر على الحرمان، والمحبة التي جمعتنا كلنا في وطن الحب والوفاء. لم نكن نعرف المكيّفات التي تصنع البرد، ولكننا لم نكن نضيق بحرّ الصيف، كنا في الصيف نقيظ في المنطقة الشرقية (العين)، ونقيظ يعني نقضي فترة الصيف، وأحياناً نقيظ في واحات «ليوا» حيث النخيل، والمياه العذبة، والزراعة الطيبة».

لم يكن عبد الله بن أحمد العتيبة يحب الجلوس في القاعات المكيّفة، وكان يلتقي في ذلك مع الشيخ زايد. رحمه الله. فقد كانا من أعداء المكيّفات، ويعتقدان أن الجلوس في ذلك الجو المبرد اصطناعياً يؤدي بالجالس إلى مختلف أنواع المرض. وبالفعل، لم أكن ألاحظ أنه يضيق بالجو الحار أو الرطوبة، بل العكس من ذلك كان يتحاشى الجلوس في الأماكن المكيفة. تابعت بشغف الحوارات التي كانت تدور بينه وبين ابن أخيه الدكتور مانع العتيبة. في تلك الحوارات كان عبد الله بن أحمد يتناول قصائد ابن أخيه بالنقد والتحليل، ويقارن بينها وبين قصائد المتنبي الذي اشترك الاثنان في حبه وتقديره والاهتمام بقصائده. وكان الدكتور مانع يحب عمه عبد الله كثيراً، وكانت صور هذا الحب تتجلى في الترحيب والاهتمام والاحترام الذي كان الدكتور مانع يستقبل فيه عمه عبد الله.

### تقدير العلم

اهتم عبد الله بن أحمد العتيبة بتعليم أبنائه، وحرص على أن يكملوا جميعاً تعليمهم العالي، ولم يخيب أولاده وبناته رجاءه فيهم؛ فأكبر أولاده عتيبة. رحمه الله. وصل إلى درجة وزير، وابنته حصة عبد الله العتيبة هي سفيرة الدولة في إسبانيا، وابنته الأخرى مريم طبيبة متميزة، وولده محمد بن عبد الله العتيبة من كبار رجال الأعمال في الدولة، وصل إلى درجة عالية في التعليم.

وقد سمعته في كثير من المرات يردد بيت الشعر:

**العلـــم يبـــني بيوتـــاً لا أســاس لهـــا**

**والجهـــل يهـدم بـيت العـــز والكـرم**

كان عبد الله بن أحمد العتيبة يرى أن خير ما فعله القائد زايد - رحمه الله - هو فتح المدارس والجامعات، وفرض التعليم على أبناء دولة الإمارات العربية المتحدة وبناتها؛ فالعمارات يمكن أن تهدم، والمال يمكن أن ينفد، ولكن لا يمكن للزمن أن يقهر من تسلّح بالعلم، وارتكز على الإيمان بالله، وتمسك بتعاليم الإسلام. وكان عبد الله بن أحمد العتيبة - رحمه الله - مرحاً، ابتسامته تسبق كلماته، يحترم الكبير والصغير، ويرحب بالضيف في مجلسه، ويسارع إلى كل عمل فيه الخير والصلاح. كانت يده تعطي بسخاء، وتنجد المحتاج، وتسعف المصاب، محافظاً بذلك على

تراث آبائه وأجداده. ولذلك عاش عبد الله بن أحمد العتيبة مغموراً بالحب والاحترام من جميع أبناء وطنه، وخاصة من المرحوم الشيخ زايد، ومن ولي عهده الأمين في ذلك الزمان سمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان - رحمه الله.

أما الدكتور مانع سعيد العتيبة، فقد كان يجله ويحترمه ويحبه إلى درجة أنه إذا تأخر عن مجلسه أسرع هو إلى زيارته في بيته، يصغي إليه، ويسترشد بآرائه، وينفذ نصائحه التي كانت دائماً نصائح عمٍّ محب لابن أخيه، ومجرب: حنكته الأيام، وأعطته السنون الحكمة والخبرة والشجاعة.

من ذلك الرجل عرفنا الكثير عن الزمن الذي عاش فيه الآباء والأجداد قبل اكتشاف النفط، ومنه حصلنا على تفاصيل مهمّة عن تاريخ الإمارات أيضاً. ومازلت أذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه نبأ وفاة ذلك الرجل الطيب المميز.

كنا مع معالي الدكتور مانع في لندن، وبالتحديد يوم العاشر من يونيو 1981، وفي فندق «بريتانيا» في «جروفنرسكوير». وبعد مكالمة تليفونية قصيرة، تغير وجه الدكتور مانع، فأدركت أنه تلقى نبأً محزناً.. شعرت أن الدموع تتوهج في عينيه دون أن تسيل، كان يبكي بغير دموع، وهذا أمرّ أنواع البكاء: رحل العم عبد الله، انتقل إلى رحمة الله.. قال ذلك، وتركنا في صالون جناحه، لا نعرف ماذا نقول، ولا ما نفعل؛ فنحن نعرف مدى حبه لعمه.

في المساء تمت ولادة أول قصيدة رثائية نظمها الدكتور مانع، وكانت في عمّه عبد الله بن أحمد العتيبة، يقول فيها:

**رحلـــت فلـــبيت داعـــي السمـــاء**
**رثيتـــك والقلـــب فيـــه اعتـــلال**
**بكيتـــك بالقلـــب لا بالعيـــون**
**فكـــم ربطتنـــا إليـــك صـــلات**
**عرفتـــك يـــا عـــمّ ذاك الأديـــب**
**مضـــيت وكـــنت الســـراج المـــضيء**
**وكـــنت قريبـــاً كحبـــل الوريـــد**
**يعـــز عليّ غـــداً أن أنـــادي**
**أيـــا عـــمّ صعـــب علـــي الفـــراق**
**بعينيـــك كانـــت تنـــام بـــلادي**
**وكـــنت تقـــول لجيـــل جديـــد**
**تمســـك بتاريـــخ شعـــبك واعلـــم**
**وكـــنت تـــردد شعـــار التـــراث**
**لتربـــط حاضـــرشـــعبي بمـــاضٍ**
**إلـــى الخلـــد حيـــث يطـــيب البقـــاء**
**فقـــد يفـــرج الهـــم بعـــض الرثـــاء**
**وهـــذا لعمـــري أمـــرّ البكـــاء**
**تفـــوق التراحـــم فـــي الأقربـــاء**
**وفيـــك الـــوداد وصـــدق الوفـــاء**
**ولكـــن ذكـــراك تبقـــى الضيـــاء**
**إذا مســـــني ذات يـــوم شقـــاء**
**فـــلا تســـتجيب لـــذاك النـــداء**
**ومـــا لـــي بفقـــدك هـــذا عـــزاء**
**وكـــنت الوســـاد وكـــنت الغطـــاء**
**يشيـــد الحضـــارة يعلـــي البنـــاء**
**بـــأن الغنيمـــة للأوفيـــاء**
**وتعطـــي ويحلـــو لديـــك العطـــاء**
**وتـــروي القلـــوب بصافـــي الدمـــاء** ■

إعلامي وشاعر

# أن تتأمل نهراً في قلبك

**حمزة قناوي**
شاعر وناقد مصري

قديماً قال الفيلسوف هيراقليطيس: «إنك لا تنزل النهر نفسه مرتين»، في إشارته إلى الديمومة المتغيرة للوجود وأحوال الإنسان، وتجاربه وحياته التي لا تكرر نفسها بحال، لأن الحياة نفسها تقوم على الثبات والتبدل والانتقال، في مساراتٍ متلاحقةٍ تتغير فيها طبيعة الأشياء.

من هنا يتأمل الإنسان نهر الحياة وتياره المتلاحق دوماً من حوله وهو يحاول مجاراة هذا التيار والسباحة في أمواجه المتقلبة بين الشدة والهدوء، أملاً في مسايرة تياراته وأن يصل بنفسه إلى بر أمانٍ.

غير أن الإنسان، وهو يمضي مع تيار نهار الحياة، لا يتأمل نهراً آخر أكثر عمقاً ودفئاً وهدوءاً، لا ينتبه له، رغم أنه أقرب ما يكون له، هذا النهر يجري في قلبه، نابعاً من أعماقه، وراكضاً بلا مصبٍّ ولا ضفاف.

من منا تأمل هذا النهر الشفيف العميق في قلبه يوماً؟ هذا النهر الذي يغتسل فيه قلبه من آثام العالم ومتاعبه وأخطائه، وهو ينهل منه ويسبح فيه بين تيارات الرحمة وأمواج المسامحة والغفران والعطف على الآخرين وإسعاد المحزونين والرفق بالضعفاء والفقراء ومن لا يملكون من الأيام سوى رؤيتها وهي تذهب للآخرين؟

هل تأملتم هذا النهر يوماً؟

في خضم صراع الحياة ومدافعة الأيام، والبحث عن مكتسباتها العابرة، وكل ما تمحوه ذاكرة البقاء لاحقاً، يمضي هذا النهر الهادئ في صمتٍ ورهبةٍ، مدركاً أن قليلاً من البشر هم من سيتأملونه، وسيغفل عنه معظم الناس في انشدادهم إلى العالم وبريقه وأشيائه ومتغيراته ومادياته وعلاقاته التي تحركها المكاسب والمنافع، هذه القلة من الناس، هم من يعيدون النظر وتأمل الحياة وطبيعة الأشياء والمواقف، فلا يندفعون إلى كل بريقٍ يومض في طريقهم دون أن يعرفوا جوهره، ولا تخدعهم الظواهر العابرة وما يغري الآخرين وهو في حقيقته زبدٌ وهباءٌ ونثارٌ ومحوٌ وصدى وسراب.

إن من يتأمل هذا النهر في قلبه، وهو يرى العالم على حقيقته، ويندفع بمائهِ الصافي ليروي في روحه العطشى التوق إلى تقديم الخير ومد يد العون، ومساعدة الآخرين، والرحمة، أنبل شعورٍ خُلق في نفس الإنسان، الرفق بالضعفاء والرحمة، وتقديمهما لمن يحتاج إليهما، من يتأمل هذا النهر العذب الذي يغسل أدران الروح ويصفو بالإنسان ويرده إلى طبيعته الأولى وفطرته النقية، حيثُ الخير هو الفعل الأسمى، والحب جوهر وجود الإنسان، وما ينفع الناس هو الحقيقة الوحيدة الباقية.

كم يغفل الإنسان عن حياته وعن حقيقتها وجوهرها ومعنى وجوده وغايته الأسمى حين لا ينتبه إلى هذا النهر الراكض في روحه؟ وحين يظن أن نهر الحياة الوحيد هو ذلك العابر من حوله في ديمومة الليل والنهار ومدافعة الأيام وتكرار متطلبات الحياة ما يعيشه ويواجهه يومياً، في تفاصيل الحياة المرئية وتتابع فصولها، لا فيما يمضي في صمتٍ وخفوتٍ ومهابةٍ داخل روحه، حيثُ عوالم أخرى كاملة وحيّة، بها وجوه بشرٍ أبرياء وذكريات مثلت عمراً وحياةً كاملة، وأحلام نبيلة، وسعي دؤوب لتحقيقها، وقيم تختزل معنى الإنسانية والوفاء والشعور بالآخرين، والروح النابضة بالحس.

إن تأمل هذا النهر والاقتراب منه والنزول إليه، تَردُّ الإنسان إلى روحه المنسية في صراعه مع العالم ومدافعته الأيام، تعيده إلى إنسانيته التي جبلت فطرته النقية عليها، وهو ينشد الحق والخير والجمال باعتبارها الجوهر الأسمى والهدف من الحياة، هذا النهر الراكض في قلبِ كل منا، وهو يغسل روحه ويصفيها إلى أن تشف بمائه السحري وترتقي إلى ذرى الإنسانية بينما يكمل جريانه منساباً إلى عوالمه البعيدة، حيثُ كل شيء مكتملٍ، وبلا ضفاف ■

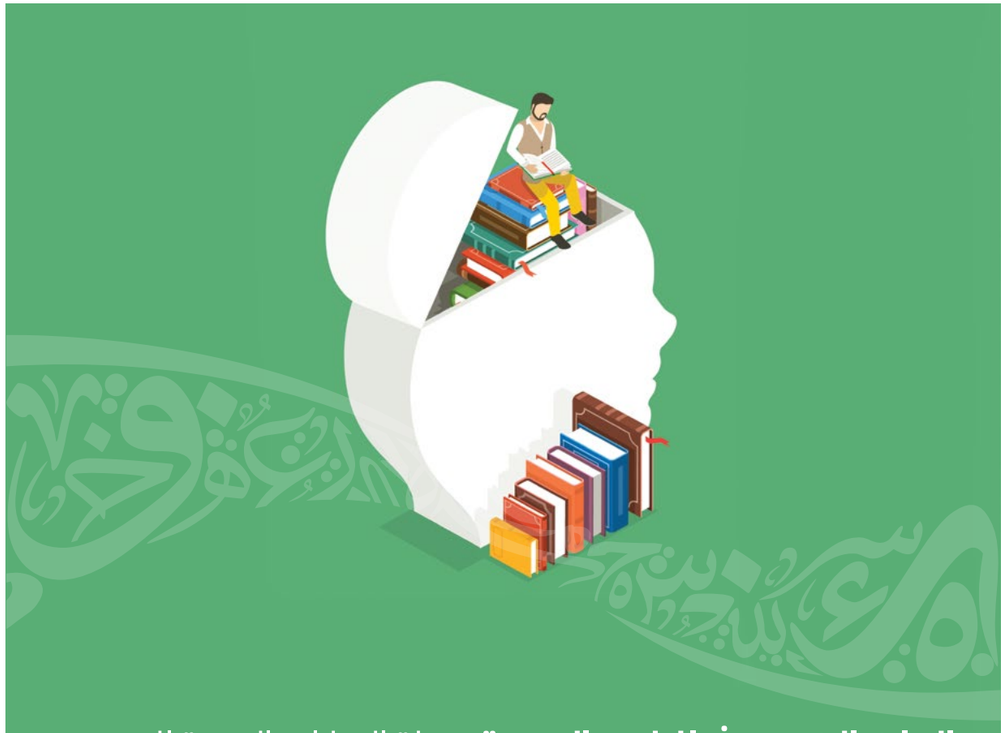

# التراث الشعبي في المناهج التربوية بدولة الإمارات العربية المتحدة

عبد الرزاق الدّرباس

**تعتبر المناهج المدرسية الوطنية انعكاساً صادقاً للرؤية الوطنية العامة، والرسالة التربوية والتعليمية التي تسعى الجهاتُ المتخصصة لإيصالِها إلى الطلبة، على اختلاف مراحلهم الدراسيّة، من خلال منظومةِ المناهج، والمعلمين، وطرائق تدريس تلك المناهج. وهذه الرسالة التعليمية تتجلّى في اتجاهين اثنين، يطلق عليهما التربويون مصطلحَ نواتج التعلّم، وهذان الاتجاهان هما:**

**- الاتجاهُ المعرفي الأكاديمي، الذي يتركز في المعلومات النظرية من خلال مناهج العلوم البحتة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء..**

**- الاتجاهُ الوجداني السلوكي، الذي يركز على القيم والسلوكات والاتجاهات الأخلاقية التي تشكّل هوية الطلبة، من خلال مناهج التربية الإسلامية واللغة العربية والدراسات الاجتماعية.**

**ثم تأتي مواد الأنشطة (فنون بصرية، موسيقية، رياضة وألعاب..) داعمةً للاتجاه الثاني، عن طريق الترويح عن الطالب وتوظيف تلك الأنشطة في بناءِ جسم الطالب وعقله.**



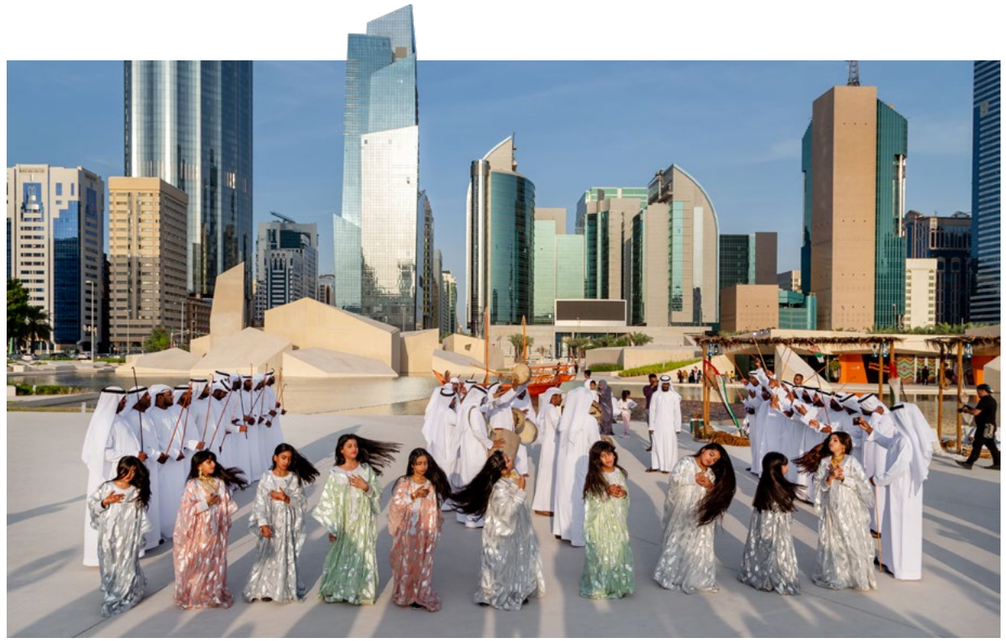

ومن خلال خبرتنا في المناهج الرسمية المقرّرةِ لطلبة المدارس الحكومية وبعض المدارس الخاصة، في دولة الإمارات العربية المتحدة، نجدُ ذلك الاهتمامَ الواضح الذي يتجلى في ما يسمّونه الرؤية والرسالة، التي في ضوئها عملت لجان تأليف المناهج، وتتلخص في إعداد جيلٍ جديدٍ يمتلك المهارات النظرية والتطبيقية، مرتبطٍ ببلاده، محافظٍ على قيمها وتراثها، متطلّعٍ إلى المستقبل بانفتاحٍ معرفي وتقني يمكنّه من التفوّق والمساهمة في بناءِ وطنه.

ومن نافلة القول إنّ مناهجَ التربية والتعليم في دولة الإمارات العربية المتحدة، من أكثر المناهج تطوراً، واستجابةً للمتغيرات، لذلك نجدها - مع ثباتها على الأسس العامة - كثيرةَ التغيير وفق تطوّر الحياة ومستجداتها، ومواكبة التطورات التنموية والإنجازات الكبرى التي تشهدها الدولة، فتنعكس في الدروس والمقررات لترسيخِها في نفوسِ الطلبة. وقد خصّصت المناهجُ الوطنية الإماراتية حيّزاً كبيراً للتراث الشعبيّ في مواد التربية الإسلامية واللغة العربية والدراسات الاجتماعية، من خلال الدروس المقرّرةِ أو الأنشطة الطلابية، ومن ذلك يمكننا استقصاء الاهتمام بالتراثِ وفق ثلاثةِ محاور رئيسيةٍ:

## المحور الأول - السَّنَع

والمقصود به التربيةُ الشخصية والأسرية والمجتمعية وفق موروث الآباء والأجداد، بما يحفظه مع مرور الأجيال، ولا يخفى على أحدٍ ذلك التحوُّل الكبير السريع الذي طرأ على الأسرة

الإماراتية بعد قيامِ الاتحاد، والتنمية ووفرة الموارد المادية، التي تبدّل فيها شكلُ المسكن والمأكل والمشرب، وكثرة التيارات والجنسيات التي تعيش على الثرى الطيب لدولة الإمارات، إضافة إلى الانفتاحِ على ثقافات العالم، وشبكة المعلومات، ووسائط التواصل الاجتماعي، ما دعا إلى الثبات على الأصول من عادات وتقاليد وطقوس من الموروث الشعبي الإماراتي، وتوصيلها من الأجدادِ إلى الآباءِ ومن خلالهم إلى الأبناء والحفدة، ولم تترك وزارةُ التربية ذلك الدَّورَ المهم للأسرة فقط، بل تصدّتْ للمهمة بجِرَفيةٍ وتمكّن من خلال تدريس السَّنَع كمادة مقرّرة ضمن الدراسات الاجتماعية، فكان له الأثر الطيب، في ارتباط الجيلِ الجديد بالموروث الشعبي الأصيل، مع تنفيذ أنشطةٍ عملية، وتكاليفَ كتابيةٍ وغنائية وفنية وموسيقية، يقوم بها الطلبة بإشراف معلميهم، لتعزيز تلك العاداتِ وترسيخها في وجدان الطلبة على اختلاف مراحلهم الدراسية، وخاصّةً في مرحلة الحلقة التعليمية الأولى (5 - 11 سنة).

### المحور الثاني - التراث المادي والثقافي

لقد تضمنت المناهج المدرسية المقررةُ دروساً مختلفةً عن التراث المادي (الآثار، اللّقى الأثرية، اللباس، الضيافة، المجالس، الأعراس الشعبية، الأواني والأدوات...) بمسمّياتها التراثية، وتصويرها الأصلي الملوّن، وشرح استخداماتها ومناسباتها، مع توجيهات للأسرة كي تتضافرَ جهودُها المنزلية مع جهود المدرسة في تعريف الطلبة بهذا التراث الخالد، وضرورة استمراره كمعلوماتٍ نظرية في الأذهان، وسلوكاتٍ عمليةٍ في الحياة اليومية، ومن فرطِ الاهتمام بذلك أنّ نسبةً من درجات الامتحان كانت مخصّصةً للإجابة عن أسئلة تخصُّ التراثَ الشعبي، باعتباره ناتجاً تعليمياً تسعى إليه المدارس من خلال مناهجها ومعلّميها المؤَهّلين على القيام بهذا الدّور الوطني التربوي.

وفي جانب التراث الثقافي غير المادي (رقصات شعبية، أغانٍ، أشعار، أمثال شعبية، مفردات تراثية...) فإن الاهتمامَ كان بالمستوى نفسهِ من خلال الدروس المقررة والنشاطات الصفيّة غير الصفيّة، واغتنام المناسبات الدينية (حقّ الليلة، المولد النبوي، شهر رمضان، عيد الفطر وعيد الأضحى، الحج..) والمناسبات الوطنية (اليوم الوطني، يوم الشهيد، يوم العلَم..) والمناسبات الاجتماعية (العرس، الولادة، التعزية، الغوص، الرعي، الصيد..) لتنفيذ نشاطاتٍ ثقافية تراثية تعزّز تلك الممارساتِ التطبيقيةَ لهذا التراثِ الجميل، من خلال المدرسة، والمقرّرات الدراسية.

### المحور الثالث - المسابقات والأنشطة التراثية

وهو المحورُ الأكثر جذباً للطلبة، حيث يجدون فيه متعةَ التعلم، والسعادة خلال اكتساب المعلومة، والترفيه المقترن بالهدف التعليمي، ويتجلّى ذلك في مبادراتٍ فردية ورسمية، على مستوى الدولة أو المناطق التعليمية في كلّ إمارة، أو مجموعةٍ من المدارس المتقاربة، من خلال إقامة مسابقات تراثية، تعنى بالموروث الشعبي المادي والثقافي، بما يتلاءم والمرحلة العمرية للطلاب، وتُرصَد لذلك الحوافز التشجيعية والجوائز المادية، كمسابقة المُتوصّف في مدارس دبيّ، التي تهتم بحفظ الطلبة للأمثال الشعبية ومناسبات قولها، ومسابقة عروض الأزياء الشعبية التراثية للرجال والنساء في مدارس الشارقة، ومسابقة أفضل عرس شعبي تراثي في مدارس رأس الخيمة، ومسابقة أجمل متحف مدرسي للتراث في مدارس عجمان، ومسابقات فنون إلقاء الشعر الشعبي في المنطقة الشرقية، وغيرها، وكلُّ تلك المسابقاتِ تمضي بأهدافٍ واضحة، في مقدمتها ربطُ الطالبِ بالتراث الشعبيّ الوطني لبلاده، ويشرف عليها تربويّون متخصصون، وقد يُستعان بمحكّمينَ من جهاتٍ حكومية متخصصة بالتراث، إضافة إلى تنظيم الرحلات المدرسية والمشاركات الطلابية في فعاليات الأيام التراثية، التي تقيمها الجهات المتخصصة، مثل معهد الشارقة للتراث واستقباله لكثيرٍ من النشاطات التراثية لطلبة المدارسِ وفق خطّةٍ مبرمَجةٍ واضحة الأهداف وممارسات التنفيذ، كما لا يمكننا إغفالُ الزيارات المدرسيّة للمتاحف، كأنشطة رديفةٍ للمناهج المدرسية المقرّرة، والاستفادة من تلك المشاركات والمسابقات والزيارات في زيادةِ المخزون التراثيّ للطالب، من حيث الاطّلاع والاهتمام والحفظ والتطبيق، بما يجعل من المناهج الدراسية والنشاطاتِ المجتمعية خطّين متوازيين يهتمّان بالتراث بشكلٍ مدروس مضمون النتائج.

وبالإضافة إلى هذه المحاور الثلاثة، أكّدت المناهجُ المطوّرة بالكلمة والصورة، والوسيلة المرفقة (وسائل سمعية، وبصرية، وفيديوهات) ضرورة ترسيخ الهُويّةِ الوطنية من خلال التراث، والتمسك بعادات الأجداد، وقد أفردَ المنهجُ المتكامل الذي سُمّي سلسلة (سلامة)، ويخصُّ طلابَ الحلقة الأولى من الصف الأول إلى الصف الرّابع، على الدروس العملية التطبيقية، لوحدةٍ مستقلة عنوانها (تراثنا العريق)، وذلك من خلال دمجِ مواد التربية الإسلامية واللغة العربية والدراسات الاجتماعية، والتربية الأخلاقية، في منهجٍ متكاملٍ واحد، مترابطِ الوحدات متكاملِ المهارات، كما تتمّ متابعةُ تنفيذ النشاطات التراثية بشكل مستمر من قِبَل إدارات المدارس والفِرَقِ الزائرة للمدارس، لدرجة اعتبار نسبةٍ من تقييم جودةِ أداء المدرسة متعلّقاً بتدريس وتطبيق تلك الأنشطة التراثية للطلبة. ومن خلال متابعتنا الميدانية، لتلك المناهج المهتمة بالتراث، وطرائق تنفيذها، والمشاركة في المسابقات والأنشطة الطلابية التي تخص تراث الإمارات، يمكننا الشعورُ بالرّضا والاطمئنان حول تلك المهمّة الوطنية، التي تشكّل رديفاً رسمياً لعمل المؤسسات المهتمة بالتراث، لأن المدارس تضمُّ في جنباتها الشريحة الاجتماعية الأكثر عدداً والأكثر تقبّلاً للأنشطة التراثية، على اعتبارها من الجيل الجديد المتعطّش لذلك، خاصةً أن الأسرةَ قد تغفل عن تلك المهارة الضرورية لأبنائها في كثرة المشاغلِ الحياتية، مكتفيةً من المدرسةِ بالتحصيل العلميّ الأكاديمي فقط، لأنه الأهمُّ في زعمهم، ولكنْ رغم ذلك الرضا، فإن الطموحُ مازال أكبرَ من الواقع، لأن جيل الطلبة الأطفال، هم المؤهّلون لحمل الأمانةِ للجيل التالي، والتراثُ لولا الاستمرارُ في الأجيالِ السابقة لما وصلَ لنا، لذا نرى نقلَهُ إلى الجيلين الحاليّ والقادم جهداً وطنياً وأخلاقياً، نسعى إلى تحقيقه بشتّى الوسائل، ومن هذه الوسائل مضمونةِ النجاح المناهجُ المدرسيّة والمقررات المُعتمَدة.

وختاماً بإمكاننا القولُ في ثقةٍ وصدقٍ: إنّ المناهجَ الوطنيّةَ في دولة الإمارات العربية المتحدة اهتمت بالتراثِ الشعبي وجعلته جزءاً من أهدافِها، وأدركتْ أهميةَ توصيله إلى الجيلِ الجديد بأمانةٍ وموضوعية، انطلاقاً من رسالتِها السامية في تربية الأجيال على الهدى والحقّ والجمال والوطنية، والولاء والانتماء للوطن، بماضيهِ العريقِ وتراثهِ الأصيلِ الجميل، ليكونَ ذلك جذوراً راسخةً وثباتاً مَكيناً، منه يكون الانطلاقُ نحوَ آفاقَ المستقبل، ونُنهي مُستذكِرينَ قولاً للوالدِ المؤسّسِ - رحمه الله تعالى - المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان: **(نحنُ نريدكم أن تعلّموا أولادَكم عن ماضيكم وعن حياة الأجداد السابقين، لأنَّ الذي لا يعرفُ عن ماضيهِ شيئاً سيكون تعليمُه ناقصاً)**.

كاتب من سوريا

# (سما - تاوى) بأهرامات الجيزة

## (اليوغاالفرعونية)

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

(سما-تاوى) باللغة المصرية القديمة تعنى «الاتحاد» أو «الوصل» وهي جزء من النظام الديني القديم، وكلمة (سما -تاوى) تعنى حرفياً التوحيد والمعنى الباطني لكلمة التوحيد اتحاد الذات الدنيا (الأرض) بالذات العليا (السماء). تشمل (سما-تاوى) (ما يعرف باليوغا)على تأملات وتدريبات تطهيرية للعقل والجسد والروح للاتصال بالذات العليا والوصول إلى الكيان الأسمى المحتجب (الله). هناك مدارس عديدة لليوغا المصرية:

1. يوغا الحكمة
2. يوغا الحب الإلهي
3. يوغا التأمل
4. يوغا الكاراما (إخضاع الأنا من خلال خدمة الآخرين)
5. يوغا التانترا أوطاقة الحية (الكونداليني)

يمكن الجمع بين أكثرمن نوع أثناء الممارسات حتى يصل الإنسان إلى التنوير، يعني أن يرى الوحدة التي تجمع بين كل صور التعدد في الكون، وأن يدرك خروج الكل من الواحد ليعبرعنه، وأن الذات الإلهية موجودة داخل كل واحد منا. وقام القدماء المصريون بتدوين كل ما لديهم من معرفة روحانية باللغة الهيروغليفية التي نقشت فوق جدران المعابد والمقابر وعلى أوراق البردي والتوابيت التي جمعت لاحقاً في كتاب عرف باسم «الخروج إلى النهار» ومنها كتابات تشير إلى ما يلي:

- «اعرف نفسك... معرفة الذات هي المعرفة الحقيقية».

«بمقدور الإنسان أن يتحول إلى كائن إلهي، إذا عاش الفضيلة، وقدّم العلم قوتاً لروحه، وهذّب جسده بالانضباط».

- «يبعث الإنسان كائناً خالداً بالجهد الذي يبذله في حياته الدنيا».

تشمل تعاليم الحكمة المصرية:

- الإله واحد ويتجلى في كل شيء.
- الأفعال المخالفة للضمير تؤدي إلى جهل الروح وتتحول إلى أغلال تقيدها.
- الحب الإلهي هو الذي يحرر الروح من الأغلال.
- (سما-تاوى) أفضل أشكال التقرب إلى الله[1].

كان المجتمع المصري القديم روحاني بالدرجة الأولى وكانت ممارسات التأمل الروحي تقام في أهرامات الجيزة والمعابد.

### التأمل الروحي بأهرامات الجيزة

اعتقدت البعثات الأثرية في مصر أن أهرامات الجيزة بنيت لتكون مقابر لملوك مصر القديمة، ولكن إلى الآن لم يثبت أن الأهرامات كانت تستخدم كمقابر، كما أنه لم يتم العثور على مومياءات بداخل الأهرامات[2]. وتؤكد الكثير من الأبحاث العلمية الروسية والأوكرانية والهندية بأن بناء الأهرامات كان بغرض التأمل وجلب المعرفة الروحية من مستويات متعددة في الكون[3]، وأجريت دراسات حديثة على الأشكال الهندسية كالمربع والمستطيل والمخروط ووجدوا أنها لا تنتج التأثير نفسه الذي يحدثه الشكل الهرمي. والشكل الهرمي له قدرة على إنتاج ذبذبات معينة من الطاقة الأثيرية تحدث تأثيراً في المادة بداخلها. كلمة الهرم «Pyramid» في الإغريقية مكونة من قسمين «Pyr» وتعني النار أو الحرارة و«Amid» تعني المركز أو المنتصف، وبهذا: الكلمة تعني أصل الطاقة أو مركز الطاقة، الهرم هو مولد للطاقة بأبعاد ومستويات متعددة في الكون، وينتج عنه رنين ذو تردد معين، كما أنه جهاز استقبال وإرسال، يرسل تدفقات معينة من الطاقة المنبثقة نتيجة إجراءات معينة في الكون. وهذه التدفقات من الطاقة تتمركزوتتكاثف حول مصدر الطاقة داخل الهرم. إن التأمل داخل الهرم ينقل ذبذبات الدماغ من مستوى بيتا الدماغية وهي حالة الوعي بالبيئة الخارجية إلى مستوى ألفا التي تمثل حالة الاسترخاء دون التفكير في البيئة الخارجية وهي مرتبطة بحالة الهدوء العقلي. لقد أجريت دراسة على أشخاص قضوا وقتاً في التأمل داخل الشكل الهرمي وتم وضع جهاز لقياس موجات ألفا الدماغية فكانت الموجة تتدفق بقوة عند قمة الهرم فوق الرأس، ويصبح الإنسان في حالة وعي بديلة وهذه الموجات تُفقد الإنسان الإحساس بالزمان والمكان[4].

استُخدمت الأهرامات كمعبد روحي للتأمل من قِبل ملوك مصر والكهنة للتواصل مع العالم الآخر، بهدف الحصول على معلومات من الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وكذلك من أجل الحصول على حلول للمسائل المستعصية، وهذا يمثل نظاماً خاصاً حيث يُمرر من خلاله المعلومات والطاقة من فضاء إلى فضاء آخر. كما أن المصريين القدماء يطرحون تساؤلات حول معلومات كونية ومصيرية ومن بين المعلومات التي حصل عليها المصريون خلال التأمل الروحي العميق الذي يعرف بـ» الطرح النجمي» (حالة خروج الروح عن الجسد)، أي إن حركة الأرض تخضع لنفس القانون الذي يحكم الكواكب: المشتري، وزحل، وزهرة وأن الشمس تتحرك حول الكون، وأن الأرض كروية الشكل. ووُثقت هذه المعلومات في أقدم المخطوطات على البردي داخل الهرم وتعرف باسم مخطوطات «إيدن»، والنتيجة هي: وبعد انتهاء إحدى جلسات التأمل، ذكر المتأمل التالي: «تبدو الأرض أمامي، وكأنها كرة دائرية الشكل».

### فوائد عظيمة للشكل الهرمي

تأثرت كل من اليابان والصين وروسيا والهند بالشكل الهرمي. وأنشئت الكثير من الأبنية على الشكل الهرمي حول العالم أهمها منتجع أوشولللتأمل الروحي في بوني في الهند. وأبنية هرمية في روسيا بنيت بغرض التأمل والاسترخاء في منطقة رامينسكو بموسكو، (يزوره أكثر من 20 ألف شخص في اليوم). السؤال الذي يجب أن يطرح هنا، ما هو التأثير الذي يحدثه الشكل الهرمي في الكائنات الحية؟ أولاً: تعمل الأبنية الهرمية على التصحيح الفيزيائي للخصائص الروحية والنفسية للكائن البشري. كما تعمل على إعادة تصحيح البنية الحيوية البشرية، ما يجعله من الممكن إعادة إحياء وتنشيط طاقات كامنة وكذلك تنشيط الأعضاء الداخلية الخاملة في جسد الإنسان، مما ينعكس على تنشيط روحه وحيويته. وأثبت الأطباء الروس بعد إجراء اختبارات صارمة ودقيقة بأن الجلوس داخل المجسم الهرمي لمدة 15 دقيقة يومياً يزيل الإرهاق، ويشفي من الصداع والأرق، ويوازن ضغط الدم، ويزيد من القدرة الإبداعية. وقد تأثر الطبيب الهندي كيرتي بيتاي

بالنتائج التي يحدثها الشكل الهرمي على فيزيائية الإنسان، وبنى أهرامات بقياسات دقيقة من أجل تشافي المرضى، واستطاع أن يعالج العلل من خلال الأهرامات المصنعة من الأحجار الكريمة وبعد استخدام تلك الأهرامات على موضع الآلام يتلاشى المرض تدريجياً[5]. كما أجريت أبحاث على الفاكهة والخضروات والأزهار المقطوفة التي توضع في الشكل الهرمي ولاحظوا أنها تدوم لضعف المدة التي تتلف بها إذا بقيت خارج الهرم. إن الشكل الهرمي قادر على إحداث معالجة للماء من الكلور ويجعله خالي من الشوائب والمواد الكيمائية، كما يمكن شحن الماء بطاقة الهرم واستخدام الماء المعالج في مجالات كثيرة[6]. ويقاوم الهرم الظروف المناخية بما فيها العواصف والزلازل على مر العصور، ففي أواخر القرن الثالث عشر دمر زلزال مدينة القاهرة ولم تتأثر أهرامات الجيزة[7]. إذاً فالشكل الهرمي هو أحد الأشكال الهندسية التي لا تخضع للتبدل أو التغير، ولكنها قادرة على إحداث تغييرات في البيئة المحيطة بها ■

الهوامش والمراجع:

1. د. مواتا أشبي، علوم طبية إلهية: خلاصة الحكمة وأسرار آمون، الجزء الثاني، الناشر معهد سيما، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2005، ص ص 48 - 58.
2. علاء حلبي، طاقة الهرم: علم الهندسة الثيرية، دار دمشق للنشر والتوزيع، سوريا، 2015، ص 208.
3. د. مواتا أشبي، اليوغا المصرية: فلسفة التنوير، الجزء الأول، الناشر معهد سيما، فلوريدا، الولايات المتحدة الأمريكية، 2005، ص 14.
4. علاء حلبي، طاقة الهرم، ص 231.
5. أكدت التحاليل والتصوير الإشعاعي تشافي المرضى تماماً ممن يعانون من ضيق الشرايين وضمور في العضلات والسكري والضغط بعد استخدام الأهرامات على موضوع الألم. انظر: المصدر السابق نفسه، ص 287.
6. المصدر السابق نفسه، ص 273.
7. المصدر السابق نفسه، ص ص 38 - 51.

# الأدب والمأدبة

وليد علاء الدين
روائي وكاتب مصري

**واحد** من أشهر التفسيرات لإطلاق مصطلح «الأدب» على بعض أشكال الكتابة، هو أن العرب كانوا يُطلقون لفظ «مأدبة» على ما يُعدّ من طعام خصيصاً بغرض دعوة الناس إليه.

ويرتبط نجاح كل «مأدبة» بقدر ما تتضمنه أطعمتُها من دقة وانضباط على مستويات رئيسية: الأول مستوى ما قبل الصناعة، ويتعلق بخصائص المكونات ومواصفاتها وجودتها، كما يتعلق كذلك بالمهارة والدراية في اختيار الأنسب من بينها لكل صنف طعام. وهو مستوى تأسيسي خطير تنعكس آثاره على المنتج النهائي شكلاً ومضموناً.

أما المستوى الثاني، فهو مستوى التجهيز والإعداد، الذي يتضمن خطوات الطبخ ودرجات الحرارة والتوقيتات المناسبة، وفترات النضج ومستوياته وغيرها من تفاصيل تؤثر بلا أدنى شك في مضمون المنتج، وتؤثر في فوائده وقيمه الغذائية كما تضمن شكله، ولكنها تستهدف بالأساس مذاقه ورائحته، يعني؛ تعمل من أجل إرضاء حاستي الذوق والشم.

يلي هذين المستويين مستوى العرض، وهو مستوى يهدف بوضوح وبلا مواربة - بمدارسه وضروبه وفنونه المختلفة - إلى جعل وجبة الطعام دعوة بصرية مثيرة.

المستويات الثلاثة السابقة، هي مستويات الإنتاج والصناعة، تظل نتيجتها مشروطة بمستوى آخر وأخير، لكنه خارجي، علاقته بالمنتَج علاقة استهلاكية بحتة، وهو مستوى «التذوق».

ورغم الأهمية القصوى لهذا المستوى - فإنه لا يعدو كونه محصلة للمستويات السابقة، يضاف إليها شرط خارجي لا يمكن ضمانه وهو «ذوق المتذوق». فمن يضمن أن تنال مأدبته - مهما بلغت درجة إتقانها المستويات السابقة كلها - رضا الضيوف كافة؟ إذن، اكتسب «الأدب» كمصطلح يشمل فنون الكتابة التي تغازل ذائقة القراء، اسمه من «المأدبة»، وعليه فيمكننا ببساطة إزاحة هذه المواصفات من مأدبة الطعام إلى مأدبة الأدب؛ ليصبح المستوى المقابل لمستوى اختيار مكونات الطعام هو المستوى الذي تتفاعل فيه ثقافة الأديب ومعارفه ووعيه ليختار منها مكونات مأدبته/ منتجه الأدبي.

ويصبح المستوى المقابل لمستوى التجهيز والإعداد هو المستوى الذي يستفيد فيه الأديب من درجات معرفته واطلاعه على تاريخ الفن الذي يكتب فيه وقدرته على إعداد خلطة جديدة تناسب ما اختاره من مكونات، ويتوافر فيها الحد الأدنى من التميز والتفرد، فتصبح عمليات التسبيك والتحمير ودرجات الحرارة وغيرها مرادفات للجهود المبذولة في تأسيس الشخصيات وبنائها وإغنائها عالم الرواية أو القصة عبر البحث والدراسة واختيار إيقاع الجملة والتقنيات والكثير من فنون وضروب وحيل الكتابة التي تحدد درجات طغيان أو ذوبان عنصر أو عدد من العناصر داخل الطبخة الكلية،... إلخ. ثم يأتي مستوى العرض وفنون إعداد الصحون، وهو مستوى لا يقابله في الأدب مباشرة مجرد اختيار الأديب الشكل النهائي للرواية أو القصة مثلاً، لأنها تفاصيل تتداخل بشكل كبير مع مستوى التجهيز والإعداد، كما أن هذا المستوى في حالة الأدب يتضمن بعض الفنون التي لا يقوم بها الأديب بنفسه، وإن شارك فيها، تتعلق بالتصميم واختيار شكل وقطع الرواية وربما نوع الخط وموعد النشر،... إلخ. عموماً هذا هو المستوى الذي ينتقل بعده العمل مباشرة إلى مستوى «التذوق» التي - كما في مأدبة الطعام - لا يَد للطباخ/ الأديب أو طبيخه/ أدبه فيها .. إلا بمقدار ما يتفق وأذواق الآكلين/ القراء.

تضعنا هذه المقارنة مباشرة أمام حقيقة واضحة لا تحتمل اللّف والدوران، وهي أنه مثلما لا يوجد طعام يناسب أذواق الآكلين كافة، فإنه لا يوجد شيء اسمه أدب يناسب أذواق القراء كلهم.

ليس معنى ذلك أن يظل الأدب بلا معايير أو تصنيف، فمملكة الطعام التي نزلنا ضيوفاً عليها، لم تترك الأمر بلا معايير، ويمكننا أن نستعير منها أشهر أساليبها العلمية في تقسيم الأطعمة، وهو التقسيم الذي يجعل الطعام على ثلاثة مستويات: غذاء صحي، وغذاء متوازن، وغذاء آخر تتعدد مسمياته من «طعام سريع» «Fast Food» (والسرعة هنا إشارة إلى عدم العناية بقيمته الغذائية كما تشير إلى إمكانية إعداده وتناوله بسرعة.)!

داخل هذا الحقل من العلوم، يحمل هذا النوع الأخير من الطعام اسم Junk food، وبعيداً عن الترجمة الحرفية - التي تعني الخردة أو النفاية - فإن التعريف المنضبط لهذا المصطلح هو «طعام مجهز أو معلب بطريقة تقلل من فوائده الغذائية.. إلى درجة العدم». وكما أن ارتباط «الأدب» بالمأدبة يبدو أمراً لطيفاً، فإن من لطائف العلاقة بين الطعام والكلام أن يُحيل أول المعاني القاموسية لكلمة Junk المستخدمة لوصف الطعام قليل الفائدة، إلى الكلام والكتابة؛ فالـ«جنك» هو «كلام أو كتابة/ مهمل أو مهملة تم اعتباره/ اعتبارها غير ذي جدوى وقليل/ قليلة المنفعة».. وبذلك يمنحنا عالم الطعام - كما منحنا مصطلحَ الأدب نفسه - المخرجَ الأفضل من ورطة معايير تصنيف هذا الأدب، لنكتشف مدى حساسية العربي الذي اشتق مفردة الأدب من المأدبة فصنع لنا هذه الثنائية الدالة: المأدبة/ الأدب.

تذهب هذه الكلمة الإنجليزية بدلالتها كذلك إلى ذروة الإيحاء خارج الأدب - بمعنى اللياقة والحشمة - لتشمل فيما تشمله من معانٍ: الأفعال الضارة كالسرقة والكذب والخداع أو الاحتيال، وصولاً إلى أنها تعني، في بعض استخداماتها، الأعضاء الجنسية!

بعيداً عن الاستغراق في الـ Junk، يمكننا أن نخرج من عالم المأدبة والطعام بمعيار يمكن استخدامه للتصنيف داخل عالم الأدب، الذي يبدو عصياً على كل تصنيف مثله في ذلك مثل كل ما يتعلق بأذواق البشر.

هناك غذاء صحي وغذاء متوازن، وغذاء «جانك». وفي الأدب كذلك - وعلى المنوال نفسه، يمكننا استعمال حد أدنى من المعيارية للتفرقة بين أدب جيد وأدب سيئ، أدب رفيع وأدب وضيع، أو ببساطة بين أدب و«جنك أدب»، إلى أن يأتينا المدد من جهابذة العربية بمفردة تكتنز ما تكتنزه مفردة «Junk» الإنجليزية من دلالات. وذلك من دون أن نحرم أحداً حرية الاختيار من بين هذه الأصناف، فالتصنيف - كما يعرّفه الباحثون والعلماء - جهد تنظيمي معرفي لا غنى عنه في المجتمعات التي تفهم معنى التطور. ما معنى إذن أن نصرف كل هذا الوقت والجهد في تحديد معايير للتصنيف، بينما ندّعي أننا لن نستخدمها لمنع الناس من تعاطي «الجنك أدب»؟... سؤال حصيف، ولكن دعنا نلحقه بسؤال: هل حالَ تصنيفُ الأطعمة غير الصحية إلى «جنك فود» دون اتهام الناس لتلك الأطعمة صباحاً ومساءً؟ لم يحدث، هو منحهم الفرصة للاختيار على معرفة ودراية وبيّنة من الأمر فقط، ثم ترك لهم الحرية في الاختيار بين ما هو صحي وما هو «جنك».

علينا ألا نغفل قدرة هذا التصنيف نفسه - في مستويات أعلى - على وضع قائمة بالأطعمة «المضرة» (لاحظ دقة التفرقة بين الخالي من الفائدة والمضر). وللطرافة فإن كلمة «جنك» تطلق كذلك على بعض أنواع المخدرات الشعبية!

وبناء على هذا الفرز المضر، صارت هناك ضرورة لتدخل جهات تمتلك السلطة بإجراءات وقائية أو تجريمية لحماية الفئات المتضررة. ومن هنا أصبح بيع الأغذية السامة والأعشاب المخدرة وتداولهما - رغم تصنيفهما كأغذية- جريمة. وأصبح تداول أغذية ذات آثار نفسية أو طبية محددة - كالأدوية أو المثيرات الجنسية مثلاً - في حاجة إلى جهة متخصصة للتصريح ثم لضبط التداول والتناول.

هذه ليست دعوة عمياء لاستخدام إجراءات المنع والحظر المطبقة في عالم الغذاء بحذافيرها على عالم الأدب. ولكن إذا كان الأدب قد استمد اسمه من عالم الطعام والغذاء، فلماذا لا نقارب الفوائد كاملة من العالم نفسه؟

من ذلك مثلاً التفكير في أن تتضمن صناعة النشر العربية جهوداً منضبطة للتصنيف ووضع العلامات وفقاً للمضمون والمتطلبات التعليمية والتربوية للفئات العمرية الأكثر تضرراً.. مثلاً. ليس بهدف منع أحد من اقتناء كتاب أو قراءته، إنما للمساعدة في أن يكون اتخاذ القرار عن معرفة وقناعة وليس من باب المصادفة التي إن كانت لبعضهم سعيدة، فهي لآخرين مؤسفة وتعيسة.

وجه المقارنة الأهم في تلك المقاربة بين عالمي الغذاء والأدب يمكن تلخيصه في سؤال: إذا كنا لن نقبل من دولة أو مؤسسة رسمية أن تمنح جائزة لمنتج غذائي مصنف «غير صحي»، لأنها بذلك تؤسس لرواج نمط فاسد بين مواطنيها.. يعني: إذا كنا لن نقبل أن تمنح الدولة جائزة للـ«جنك فود» فكيف نقبل أن تمنح جوائزها الرسمية للـ«جنك أدب»؟ نعم، هذا هو السؤال ■

# محاورة التراث والحوار مع الآخر

علي كنعان

**جاء كتاب الناقد والأكاديمي الدكتور صالح هويدي بعنوان «محاورة التراث والحوار مع الآخر» ليقدم لنا إضاءات فكرية ساطعة، ويضع القارئ أمام شبكة من الأسئلة والإشكالات التي يثيرها موضوع التراث منذ أوائل عصر النهضة حتى اليوم. ويجيب الباحث على تلك الأسئلة بنظرة علمية كاشفة وحكمة مضيئة وإحاطة مقنعة، ويبين مواطن الإشكال بوعي عميق وتحليل علمي واضح، تمهيداً للوصول إلى الرؤية الفكرية المفيدة، قائلاً: «ينبغي لنا أن نقرأ التراث بوصفه وقائع الأمس وأحداثه ومنتجاته التي أنتجها أهلها». وهو يدعو إلى «قراءة موضوعية للتراث بمنهج العلم الذي يجعلنا غير مشاركين فيها أو مسؤولين عنها»، مشيراً إلى دراسات الدكتور جابر عصفور الذي يرى أن إشكالية التراث في النقد العربي القديم «أحبولة للإيقاع بنا في دوامتها». وهو يدعو إلى دراستها دراسة موضوعية، «واتخاذ علاماتها المضيئة هادياً لنا ومعيناً للوصول إلى بناء رؤية كلية، منسجمة وموحدة في كليتها الهيكلية»، ويؤكد ضرورة الابتعاد عن التفاصيل المؤدية إلى الوقوع في الأيديولوجية التي حوّلت الدين الحنيف إلى أداة سياسية للصراع والتجني وقمع الحريات.**

يقسم الدكتور هويدي كتابه إلى خمسة فصول، إضافة إلى المقدمة والمدخل. ويتساءل في المقدمة: «لماذا لم ينجح العرب في تقديم تراثهم على نحو منسجم واضح ومفهوم لأجيالهم الناشئة؟» ولماذا جعلنا من تراثنا العربي «عقدة سرعان ما يؤدي فتحها إلى تفجّر شظايا لا حصر لها؛ لتفرقنا بعضنا عن بعض من جهة، ولتوزعنا في مظاهر فرقة أخرى إزاء الآخر (الغربي) من جهة أخرى؟».

ويوضح الناقد أن دعاة الإسلام السياسي أساؤوا إلى الدين الحنيف مرتين: «الأولى حين احتكروا سلطة الحديث باسمه فتأولوا وتشددوا وأنتجوا قراءات متضاربة لا حصر لها، بعيدة عن المنطق السليم والفطرة الإنسانية التي انطلقت منها رسالات السماء كلها». والإساءة الثانية تتجلى في أن الآخر صار يرى ديننا مسرحاً «للتطرف والتعصب المقيت وكراهية الآخر»، وذلك من خلال «الصور التي شكّلها له الإسلاميون». ويكفي أن نتأمل ما فعلته داعش في سوريا والعراق.

ويلفت الباحث النظر إلى أن الرسالة التي يرجوها من كتابه «أن تكون جزءاً مما ينشده وهو «أن نضع حداً لدورانّنا في حلقة مفرغة»، نختلف فيما بيننا فيها، ونتنازع ونتقاتل ونتوزع شيعاً ومذاهب على أمور ليس لنا يد فيها، ومن أجل وقائع لا نعرف عنها إلا ما نقله المؤرخون لنا في سردياتهم الصادرة عن شخصياتهم البشرية المعرضة لكل ما نتعرض نحن إليه من ظروف تاريخية وسيكولوجية وثقافية وسياسية».

وفي مدخل الكتاب، ينطلق الباحث من مدلول كلمة (ورث) في المعاجم، حيث كانت محدودة المعنى بالتركة، لكن مفهوم التراث مرفي تطور كبيرفي عصرنا حتى ارتبط بالهوية. وفي تناوله بالدراسة الإشكالية التي تثيرها مقاربة التراث يرى أن العلة تكمن في النزعات الأيديولوجية التي تحول دون تقديم رؤية واضحة، وهذا يؤدي بنا إلى معاناة إشكال حضاري منذ أن غربت حضارة أمتنا، مع استثناء مرحلة الإصلاح التي قام بها أعلام التنوير العربي، ومنهم: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، ورفاعة الطهطاوي... ومن بعدهم: طه حسين، ولطفي السيد، وسلامة موسى، وشكيب أرسلان، وقسطنطين زريق، والطاهر بن عاشور وسواهم. لكن محاولات هذا الفكر الإصلاحي منيت بالفشل، ونشبت خلافات شتى حول مفهوم التراث وسيرورته ومراحل تشكله وتياراته وكيفية توظيفه والاستفادة منه، فضلاً عن علاقة التراث بالآخر.

ويرى الباحث أن الفكر العربي تتنازعه الآن ثلاثة تيارات: الخطاب الاستعادي المتماهي مع التراث، والخطاب التغريبي المفارق للتراث، والخطاب المعرفي الموزع بين أكثر من تيار. ويتابع بالتفصيل دراسة كل من هذه الاتجاهات، فيرى أن الخطاب الاستعادي ينطلق من الإقامة في التراث واستقلاله عن المرجعيات الحضارية الأخرى، وهذه الرؤية الاستعادية تعتبر نفسها وصية على وعي الأمة وتراثها، وتستهين بالعقل العربي وإمكانية تجدده، وتؤدي إلى نفي الآخر والانغلاق المحفوف بالتجمد والتخلف.

أما الخطاب التغريبي والقطيعة مع التراث، فهو يمثل رؤية هروبية من الواقع، والعمل على محاكاة الآخر المتقدم في الفكر والحياة والسلوك. ويشير الباحث إلى أن طه حسين وزكي نجيب محمود كانا في مرحلة مبكرة من أتباع هذه الدعوة. وخلافاً للخطابين السابقين ظهر الخطاب المعرفي حاملاً مشروعات فكرية تناولت إشكالية العلاقة بين التراث والتحديث، معتمدة على عدد من المناهج الغربية، ومتخذة من المنهجية العلمية وسيلة لدراسة التراث وتحديد العلاقة بين الأنا والآخر. لكن هذا الخطاب لم يسلم من الانزلاق إلى مواقف أيديولوجية محفوفة بالغموض والالتباس. ويظل تراثنا العربي مجالاً واسعاً للبحث وإمعان النظروتبادل الآراء، ما دام الزمن جارياً وأحوال الدنيا والناس في تفاعل دائم وتغير مستمر. وإذا كان من الصعب الإحاطة بخلاصة تفي بما جاء في فصول الكتاب الخمسة، بدءاً من بحث الإسلام وقيمه الإنسانية، وفي طليعتها التسامح والحوار واحترام الرأي الآخر في الفكر والعقيدة، مروراً بالفلسفة الإسلامية وموقف المستشرقين منها واعتراف المنصفين منهم بالأثر الكبير الذي تركته جهود مفكري الإسلام وفلاسفته.

ثم ينتقل الدكتور هويدي إلى بحث الفن في الحضارة الإسلامية، مستعرضاً فن التصوير والعمارة والزخرفة والخط وجمالياته والموسيقى والغناء، مبيناً موقع هذه الفنون في الحضارة الإسلامية ومدى تأثيرها في الغرب والشرق، حتى يصل الباحث إلى أفق الحوار وأهميته وآفاقه في الفكر والثقافة والتراث في الواقع المعاصر، مع الذات والآخر. ويأتي الختام في الفصل الخامس متضمناً نصوصاً من التراث، ونطالع في هذه النصوص قصصاً وحكايات حافلة بالحكمة والرشاد وقيم العدالة والإنصاف في القضاء وحسن المعاملة وفضيلة الصبر والصدق في الحق وقيم الكرم والعدل والتكافل والإخلاص للوطن والتضحية في سبيله.

وفي مقدمة هذا الفصل الختامي، يشير الدكتور صالح هويدي إلى أننا مقصرون بحق أجيالنا الشابة لأن المناهج التعليمية لم تتح لهم الوقوف على مختارات من صور التراث العربي المشرق بغية تعزيز ثقتهم بهذا التراث، لعل ذلك يلهمهم اكتساب المواقف والرؤى التي يمكن أن تدخل في حياتهم فكراً وسلوكاً، لافتاً النظر إلى أن هذا «ما تفعله أمم العالم وشعوبه المتحضرة».

ويضم الكتاب لوحات فنية عدة من كنوز التراث، تتضمن مشاهد تحتفي بالكتاب والطب والموسيقى، إضافة إلى الإحالات والمراجع والمصادر التي بلغت العشرات من أهم الأعلام وأمهات الكتب. وهو من منشورات معهد الشارقة للتراث، والطبعة الأولى من إصدارات عام 2022، وكم أتمنى أن يكون مرجعاً لطلاب الجامعات عسى أن يطّلعوا على ما في تراث أمتنا من معارف وقيم ■

شاعروكاتب سوري

# صناعة «الدخون» حرفة من التراث ذات رائحة شذية

موزة سيف المطوع

**تملأ السعادة والهناء قلبها حينما تمزج بأناملها سحال العود (مسحوق) مع خليط عطور عربية لتضع ما صنعته بعد أن يجف على قرص الجمر لتفوح مع دخانه روائحٌ عطرة، تجرب خلطات جديدة روائحها شذية تبعث السعادة والانتعاش لكل من يشمها، تُقبل عليها صويحباتها، يبتعن بخورها لتعبق منازلهنَّ بأطيب الروائح التي تجهزها جارتهن.**

**صناعة الدخون حرفة إماراتية امتهنتها أمهاتنا، لتشكل مصدر دخل إلى جانب حرف أخرى يتقنَّها، ومازال صنع البخور قائماً حتى يومنا هذا، ويعد استخدام المدخن والبخور الشذي عند العرب من العادات العربية الصرفة التي لا يشاركهم أحد فيها، ظهرت في شبه الجزيرة العربية، وعشق أهل الخليج خاصة رائحة العود فاستخدموه بصفة يومية في منازلهم والمساجد وعند الذهاب للصلاة وفي الزيارات والأعياد وحفلات الزواج والولائم وفي مجالسهم.**

ولمّا نال البخور والعود من نفوس أهل الخليج والإمارات ما ناله شرعوا في صنع المداخن فاتخذت أشكالاً عديدة بأحجام وصور متنوعة، والشكل المعتاد منه والأكثر انتشاراً في المنازل يصنع من الفخار والجص، والمدخنة لها قبضة جانبية ليسهل الإمساك به وتُطلى باللون الأبيض أو الأحمر، وكانت تنشط صناعة المباخر «المداخن» في رأس الخيمة وتُصدَّر إلى باقي مدن الإمارات، أما المباخر المصنوعة من المعدن والخشب فكانت تستورد من دول شبه الجزيرة العربية والهند، ويوضع داخل «المدخنة» جمر يعلوه رماد يوضع فوقه العود أو البخور ويوضع عند الأقدام لتبخير الملابس التي يرتدونها أو توضع «المدخنة» في الأسفل وتعلق فوقها الثياب لتعبق فيها رائحة عطرة تدوم أياماً متتالية، والمدخنة أداة مرتفعة عن مستوى الأرض مصنوعة من عراجين وجريد النخل المتشابك بشكل هندسي فيه فتحات سداسية لتمرر رائحة البخور لتعطير الملابس والثياب وأغطية البيت الموضوعة لتتعشق بها الروائح العطرة الشذية وتظل عالقة بها مدة طويلة. وللبخور سنعه الخاص به (آدابه وتقاليده) في الضيافة، فيتم تعطير المجالس بأجمل الروائح والعطور، ويتم تمرير البخور في المجالس لتعطير الضيوف من قِبل أحد أفراد الأسرة بخشب العود بعد الانتهاء من ضيافتهم، وحال أن يمر عليهم المبخر ويتبخرون به، يبدأ الضيف بالاستئذان استعداداً للانصراف وهذه العادة لاتزال موجودة حتى يومنا ومنه يقال «عقب العود ماشي قعود» كآخر مرحلة من الضيافة، ويطيِّب أحد أفراد الأسرة الضيوف فيرش على أياديهم ماء الورد

الموضوع في المِرش وهو وعاء من النحاس ذي نقوش دقيقة تجمله، أسطواني الشكل رقبته طويلة به ثقوب تسمح لماء الورد أو العطر بالنفاذ منه، إلا أن المِرش لم يعد يستعمل إلا في المنازل التي تضم كبار المواطنين، وفي الاحتفالات الشعبية.

دخلت على البخور إضافات جديدة زادت من تنوع أنواعه وتعدد نكهات روائحه العطرة الشذية، ففي الأساس البخور يتم تجهيزه من خلال كرملة السكر على نار هادئة ليضاف له سحال (مسحوق) العود والمسك والصندل، ويشكّل البخور من المزيج السابق بأحجام صغيرة ويترك حتى يجف قليلاً ثم يخمر في المخمرية لأسابيع عدة كي تتركز رائحة العطور فيه، وتتنوع الخلطات حسب العطور المستخدمة مثل دهن العود والعنبر ودهن الفل وماء الورد والهيل والزعفران والمسك والصندل وخليط العطورات العربية، في المقابل اللبان المعطر لا يضاف

له السكر فأصله الصمغي يجعل كل ما يضاف إليه من عطورات متماسكاً، وله فوائد صحية في تخفيف حالات الربو والقضاء على الميكروبات وانشراح الصدر، ويضاف له بعد تسخينه على النار بعضاً من العود الخشن المطحون والعطورات العربية، ويؤخذ بالحسبان ضرورة ترك النوافذ مفتوحة قليلاً لضمان التهوية الجيدة للغرف. أما المستكة التي تستخرج من شجيرة من عائلة الفستقيات، فعلى من لديه حساسية من الفستق أن يتجنبه كي لا تهيج حساسيته فيصاب بأزمة تنفسيه أو تورم في الوجه، ويطبخ بعد تنظيفه جيداً من الشوائب على نارٍ هادئة لتجنب أبخرته القوية الكاتمة للنفس، لتضاف له العطور المتنوعة حتى تمتزج معاً وتُشكّل كأقراص صغيرة، تترك لتبرد حتى تصبح جاهزة للاستخدام. العود المعطر يضاف له المسك المطحون الذي يسهم في تشرّب خشب العود للعطورات المضافة له كدهن العود والصندل ويحفظ في علب زجاجية لقرابة الشهر حتى يصبح جاهزاً للاستخدام وكلما زادت مدة تخزينه وتخميره صارت رائحته أكثر عبقاً ومركزة وجلية مميزة.

أما خشب العود الخام فيحفظ في علب خاصة مغطاة بقطعة قماش مخملية، لتقيه أشعة الشمس والهواء الذي يقلل من جودة رائحته، ويحتل العود الهندي المرتبة الأولى من حيث الجودة والرائحة العطرة، ويقبل محبو العود على أنواع أخرى منه، منها: العود الكمبودي، والفيتنامي، والماليزي ■

باحثة وكاتبة إماراتية

# مريم بنت النهار

شيخة الجابري

**ما كانت مريم تعلم أن الأيام تلك الأيام الصعبة والقاسية سوف تمضي بكل ما حملته من مرارات وألمٍ تجاوزته هي وأبناؤها بالصبر وقوة التحمل حتى أصبحت اليوم حين تمر بها الذكريات تذرف دمعةً سخية على رحيل الأيام الحلوة رغم ما وجدته فيها من عناء وتعب، أصبحت مريم اليوم شخصية جديدة رغم تقدم العمر، وانشغال الأبناء بحياتهم الجديدة، تتذكر مريم أول كتابٍ اشترته من مكتبة «القدس» في شارع دوار الساعة في مدينة العين ولم تكن الشوارع بعد قد اكتملت، ذاك الكتاب الذي جعلها تتعلق بالقراءة بعد أن التحقت بالتعليم المسائي؛ لتُصبح فيما بعد صاحبة مكتبة جميلة تضم العديد من المؤلفات من أمهات الكتب ومصادرها، وخلال مسيرتها نحو التعلّم بالقراءة والكتابة كانت مريم فتاة طموح متطلعة، تؤمن بقيمة الكلمة في تكوين الذات وصقل الشخصية وتشكيل الوعي، نما ذلك في قناعتها مُذ كانت طالبة صغيرة تحمل «جزء عمّ» بين يديها لتتلقى درس القراءة الديني عند مطوع الفريج كل صباح.**

**تستذكر مريم بعد أن مرّت الأعوام تلو الأعوام مطوّع «راشد» ذاك الرجل الذي «يتعصّم» بغترةٍ ناصعة البياض، ويختفي عوده النحيل داخل «كندورة» ناصعة البياض تُشبه تلك القلوب الطّيبة النابضة بالحب والوفاء والصدق، يظهر على شكل مطوع راشد انحناءة بسيطة وتحدباً ظاهراً باتجاه كتفه الأيمن، أما عصاهُ التي يحمل فهي من ذاك النوع الذي يقال بأنها «محنّاية» لكي تكون حارة تلسع الجلد لسعاً إذا ما استخدمها لتنبيه أوتأديب طالبٍ أوطالبةٍ لم يحفظ ما حدد له من آيات غيباً بصوت شجيّ، وتلاوة مسبوكة.**

مريم الهيّة بنت النهار الذاهب نحو الغناء الشفيف كانت تتوسط صف البنات الذي كانت عدد الفتيات فيه يربو على العشر بنات، يقابل صفهّن صف الشباب الذي يزيد عددهم قليلاً على عدد البنات، والمكان عبارةً عن سبلةٍ سقفها من جريد النخل، وفراشها من الحصر التي كانت تُسفُّ بأنامل السيدات من نساء الحارة اللائي يقضين فترة «الضحى» لإنجاز تلك الأشغال اليدوية، بحرفيةٍ عاليةٍ، وحب كبير.كانت الحارةُ التي نشأت فيها مريم حُبلى بالحب، والتواصل الإنساني النبيل، كل جارٍ يحب جاره ويعتني بأبنائه عند غياب الآخر، وكل امرأة لا تضع لقمة في فمها قبل أن تشارك جاراتها ما أعدت من غداء أو «ربوق» بحسب ما توافر من مواد غذائية بسيطة في تلك الفترة التي نشأت فيها مريم نشأتها الأولى، قبل افتتاح المدارس وبدء التعليم النظامي والمسائي الذي انخرطت فيه بحب، وشغف، وتشوق لكل جديد من العلم والدروس في كل مرحلة من مراحل التعليم. كان المجتمع متعاضداً جداً، يشعر الجار بما يعانيه جاره من وجع، أو ألم، أو فرح، يتفازعون ويتشاركون في كل الأشياء الجميلة والحزينة، مجتمع ينضح بالعواطف والمشاعر النبيلة التي تجمع أفراده، وتضعهم جميعاً في مسار واحد هو المحبة والتراحم فيما بينهم، في هذه البيئة تربّت مريم، وفيها تزوجت، وأنجبت، وكانت أجمل النساء اللائي أخذن على عاتقهن تربية الأبناء وتنشئتهم التنشئة الحسنة وسط ظروفٍ ماديةٍ صعبة. من عادات مريم اليومية كان حرصها على الذهاب في فترة «الرايح» ما بين العصر والمغرب مزرعتهم القريبة من مكان سكنهم في الجهة الشرقية ومن واحة العين التي تحب، وبالقرب من الريف المتكئ على خاصرة الزمن حيث عيدان الهمبا، وأشجار الموز واللومي ظلّ المكان وقلبه، مريم التي اعتادت ورابيعها «صديقاتها» أن يقضين النهار في ظلال النخيل أي المزارع والمساء في أفيائها كانت نموذجاً فريداً للعطاء والحب والتضحية، صبرت على مفاجآت الأيام حين باغتتها برحيل رفيق دربها فكانت بعده الأم والأب والأخت والسند، والمعلمة والمربية التي لم تتعب أو تشكو أو تتذمر فهي بنت ذاك الوقت الذي كانت النساء فيه بارعات وفاتنات شجاعات وملهمات وقادرات على تحمّل المسؤولية بمحبة ومهابة وحنان. وقفت مريم وقفة الرجل الشجاع في وجه الأيام حين اختبرتها بالفقر والحاجة تغلبت على كل ذلك بإيمانها العميق بالله، وبمساندة ابنتها الصغيرة عائشة استطاعت مواجهة التحديات، عمِلت في أول مدرسة افتُتحت في قريتها وكانت تلك الأم الحانية للطالبات فقد كان عملها يقتضي مرافقة الفتيات في الحافلة في الذهاب والعودة من المدرسة وإليها، كما كانت مسؤولة عن النظافة وإيصال البريد من الإدارة وإليها، وجعل «حوش» المدرسة نظيفاً لامعاً بمكنستها المتواضعة حين تقف الطالبات لطابور الصباح دون أن يتعثرن بقشة في المكان. لم تكُن مريم «فرّاشة» كانت فراشةً جميلة زاهيةً تبعث الفرح والسعادة والمحبة والأمان في فناء المدرسة الشاسع، إنها بنت النهار والحب ■

باحثة وأديبة من الإمارات

# الشاعرة مستورة الأحمدي (1975 - 2010)

مريم النقبي

**الشاعرة مستورة ضويعن سعد الأحمدي الحربي، شاعرة وكاتبة وأديبة سعودية. قدمت تجربة شعرية متفردة، وهي من الأسماء الشعرية التي تميزت على خارطة الشعر والأدب في المملكة العربية السعودية، ومن الشاعرات اللواتي تركن بصمة كبيرة ومميزة في الساحة الشعرية. برزت الشاعرة في النسخة الرابعة من برنامج شاعر المليون عام 2010، ووافتها المنية في الثالث من أكتوبر من العام نفسه وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها. وللشاعرة الراحلة الكثير من المحطات المهمة والبصمات الكبيرة في مسيرتها الشعرية، فقد كتبت قصيدة أوبريت ملك القلوب لمهرجان الجنادرية، وشاركت في أمسيات شعرية عدة ولها قصائد بالفصحى والنبطي، كما كانت تنشر قصائدها تحت اسم (وله) وذلك قبل أن تصرح باسمها الحقيقي.**

كانت أول شاعرة سعودية تتقدم للمشاركة في برنامج شاعر المليون، ثم تلتها الشاعرة عيدة الجهني، الذي حققت فيه نجاحات وحظيت بجماهيرية كبيرة، وكانت تلك المشاركة آخر نشاطاتها الثقافية في عام 2010، حين شاركت في أمسية شعرية خلال فعاليات مهرجان المدينة الذي أقيم في معرض جامعة طيبة الدولي الثالث للكتاب. صدرلها ديوان (حروف لا تجر) عن أكاديمية الشعر بأبوظبي، واحتوى الديوان على ما يقارب الستين قصيدة بموضوعات وأغراض شعرية مختلفة. ومن قصائدها:

تتعب ويتعب من يجاريك طغيان
يا تابع الواثق وقصدك تزلّه
دوّر بمجهر... سخّر الأنس والجان
مالك سوى الخيبة وزورٍ تدلّه
بي ضعف إنسانة... ولي عثرة إنسان
في كل أمر... إلا الدروب المخلّه
دايم على قولي والأفعال ميزان
ترجح بكفه كل عثره... وخِلّه
أمشي على وضح النقا مشي سلطان
مثل الجبل ما يخفضه دوس ظلّه
وأخفض جناحي من محبة وإيمان
وإن مِسَّت العزة فلله... ولله
عندي كرامة تهزم اقلوب فرسان
هيهات تهزمني الدعاوي المضلّه
بنت الرجال اللي لهم كلمه وشان
واللي لهم بالدين منهج ومِلّه
متميزين بعلم مع حلم وإحسان
رضيعهم تلقى به اللي تجلّه
أفخر بهم، وأمشي على نور الإيمان
أترك حرام الدين وأعمل بحلّه
لي عين فأقدامي ودربي بها بان
ولي عقل في عيني ولا أحدٍ يضلّه
ولي غايةٍ فوق المكايد والاضغان
منها يفت الغدرروحٍ تسلّه

ولها قصيدة بعنوان «العيد صبحك»:

العيد صبحك والهدية حضورك
اللي بشوفك يصبح العيد غايه
يشتاق فجر العيد ريحة بخورك
وأشتاق قولك: عيد وأنتي معايه
ألبس وأغير وأتخيل شعورك
وأمشط وأطيب ما هجرت المرايه
تشرب ثيابي العطر لحظة ظهورك
وأرقص لعطرك لا تخلل هوايه
أروح وأرجع أتحرى مرورك
أفل شوق القلب وأضفر شقايه
أردد أبياتك، وأقطع بحورك
أبغى التفوق في الغلا ياغلايه
الله يوم أشرق على القلب نورك
غابت حروفي وانكرتني خطايه
تفتح بشوفك في خدي زهورك
تبي تحس في نظرتك بالرعايه
كلي أمل أحظى ببسمة سرورك
وأقرأ في وجهك ما يسطر هنايه
ياليتني حبر الفرح في سطورك
يا غيث إحيى بالمودة ثرايه ■

شاعرة وكاتبة إماراتية

# القدوة والنموذج

**فاطمة حمد المزروعي**
كاتبة وباحثة من الإمارات

**هل** وجدتَ نفسك يوماً ما في موقف لا تُحسد عليه، في موقف لا يُمثّل ما تؤمن به؟ نعم، يحدث أحياناً هذا لكثيرين. قد يتصرف المرء أحياناً بعكس قناعاته ومبادئه في لحظات الغضب والانفعال الشديدين. بعض الآباء والأمهات قد يتصرفون مع أبنائهم، في لحظات، سلوكاً يندمون عليه، ولا يتناسب مع طرقهم في التربية، فلماذا؟ هل هم متناقضون مثلاً؟ في هذا الموقف يجدون أنفسهم ملتبسين بشخصية أحد والديهم أو من يعرفون، مع أنهم قد يكونون اكتسبوا منهم أموراً إيجابية أخرى.

بداية لابد أن أوكد أن لكل زمان تحدياته، التي زادت في هذا العصر أكثر من غيره، بسبب التطور السريع المتلاحق في التكنولوجيا وأساليبها، إضافة إلى ضغوطات العمل والحياة. يعدّ الأفراد إعداداً علمياً ومهنياً للعمل، من خلال سنوات التعليم والتدريب، الذي لاينقطع ضمن رؤية التعليم والتدريب المستمرين. لكن ماذا عن مهارات الحياة، عن أدوارهم الاجتماعية؟ قلة من الناس لديها الوعي بهذا، هذا هو السبب الرئيسي إضافة إلى ضيق الوقت كما يقولون؛ لأن مسؤوليات الحياة وضغوطها، أو لإحساسهم بتمكنهم، وعدم حاجتهم. على الرغم من أن هذا العصر توافرت فيه العلوم والمعارف بطرق كثيرة، في الإعلام التقليدي والجديد، من منصات وتطبيقات مختلفة، تساعد الشخص على أن يعيش بطريقة أفضل، لو بذل جهداً بسيطاً. لكن ما الذي يحدث إذا لم يطور الإنسان نفسه، ويتعلم مهارات الحياة؟ ألن يقلد دون وعي منه نماذج مرّت عليه، تشرّبها من خلال التجربة التي مرّ بها أوراآها، أو سمعها، يأخذها بشكل تلقائي لا إرادي، دون أن يحللها، أويفكر فيها؟ رغم أنها غالباً لا تكون أفضل الممارسات، هذا ما يحدث في المواقف الانفعالية. بعض الأمهات قد ينفعلن على الأبناء، فتصدر منهن كلمات قاسية، أو تصرفات تخالف ما يعتقدن من طرق التربية. هذا ما يسمّى بالنموذج الذي يكتسبه الإنسان من خلال التجربة والتواصل، هو يختلف عن القدوة، التي يأخذ فيها الإنسان أفكاره وممارساته الراقية من مصدر الاقتداء، وهو واعٍ ومدرك لما يفعل؛ لأنه معجب به، على اقتناع به، فهو يسير على هديه راغباً في أن يصل إلى ما وصل إليه؛ ليحقق ما يرجوه ويصبو إليه. يجدربالمرء أن يحسن ويطور مهاراته الحياتية شيئاً فشيئاً، بممارسة ضبط النفس، في المواقف العصيبة، حتى لا يدفعه ذلك إلى ما لا يرغب فيه من سلوك. معظم الأبناء يتشربون نماذج الآباء والأمهات، رغم أن بعضهم يعجبون بغيرهم.

قد يعجب الأبناء بالمشاهير من نجوم الفن والرياضة والأغنياء، لا عيب في ذلك ماداموا يدركون أنهم بشر لهم أخطاؤهم، وأن حياتهم ليست مثالية، حياتهم الحقيقية بعيداً عن الكاميرات والأضواء . منهم أناس إيجابيون وناجحون. هؤلاء المراهقون قد لا تعجبهم بعض تصرفات أهلهم؛ لأنه أمر مرتبط بفترة المراهقة، ما فيها من تقليد وتجريب، إضافة إلى البحث عن هوية خلال فترة النضج. يحتاجون إلى تذكيرهم بالنموذج الفارق والقدوة الوطنية هو المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - مؤسس الدولة وبانيها تحققت قولاً وفعلاً، وعاشها الأجداد والآباء، ويطلع عليها الجيل الجديد داخل الأسرة من خلال القراءة والحديث عنه، ومشاهدة لقاءاته التلفزيونية. إنه قدوة ونموذج سيبقى حاضراً في الأيام والليالي، من خلال التعليم والإعلام. الإعجاب والمحبة نحتاجهما ليكونا دليلاً للممارسة العملية في الحياة لنا كآباء وأمهات ولأبنائنا، وهذا ما يدعو إليه ويؤكده صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة - حفظه الله - في ضرورة الاهتمام بالأطفال والمراهقين في المجالات كلها، خاصة نفسياً واجتماعياً، وهو القدوة والنموذج الذي نتعلم منه. كما أن أم الإمارات سمو الشيخة فاطمة بنت مبارك - حفظها الله - نموذج وقدوة للمرأة الإماراتية والعربية، بكل ما قدّمت من إسهامات جليلة، وحرصها الدائم على أن تكون مصلحة الأطفال هي الأولى، لرعايتهم وخلق جيل واعٍ صالحٍ محبٍ لوطنه ■



نادي تراث الإمارات

# إعلان طباعة كتب

وَضَع نادي تراث الإمارات ومركز زايد للدراسات والبحوث خُطّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، ويَدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها في «المركز»، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ «المركز» لمؤلّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

**شروط النشر:**

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنهْل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادروالمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

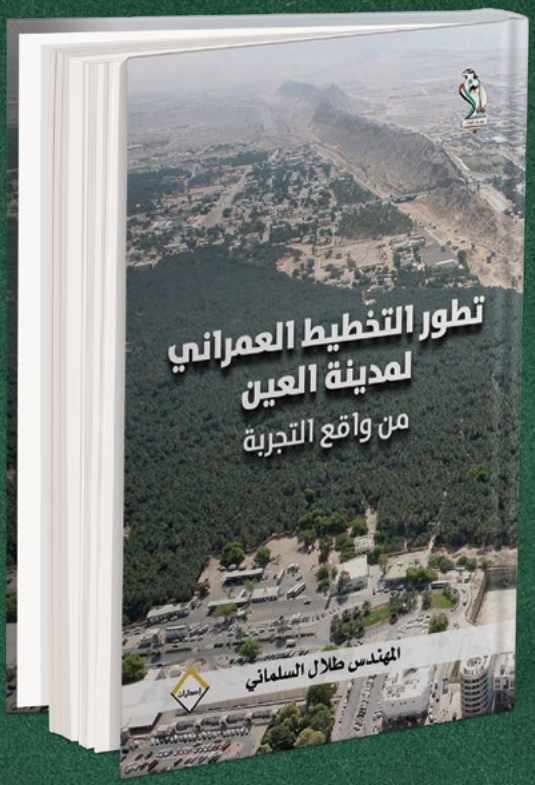


# تطور التخطيط العمراني لمدينة العين

## «من واقع التجربة»

تطور التخطيط العمراني لمدينة العين «من واقع التجربة» كتاب يتناول قصة نجاح مدينة العين في التحول من تجمعات سكانية صغيرة حول الواحات إلى مدينة عصرية خضراء، ويرى المؤلف في كتابه أن الحفاظ على هذا النجاح واستدامته هو من أولويات التخطيط الحضري السليم الذي يستوجب المراجعة الدورية المنتظمة لخطط التطوير العمراني للتحقق من مرونتها واستجابتها لمتطلبات المرحلة القادمة دون الإخلال بالثوابت والأهداف التي حددتها خطة إطار الهيكل العمراني لمدينة العين لعام 2030. كما يتحدث المؤلف عن واقع معايشته لمستجدات التطور العمراني لمدينة العين لأكثر من ثلاثة عقود مشيراً إلى مجموعة من المشاهدات لبعض الظواهر في البيئة العمرانية في المدينة، وهو يرى أن أي تخطيط للمدينة يجب أن يقوم على أساس علمي منهجي يستند إلى دراسات وإحصائيات وتحليلات لمختلف القطاعات ذات الصلة بحياة البشر سواء في الإسكان...

المهندس طلال السلماني